فلاح الجواهري

الجواهري..
وعيٌ على ذكرياتي

فأنتَ مع الصبحِ شدوُ الرعاة وحلمُ العذارى اذا الليلُ جا

الفهرس

- الإهداء
- اللقطة الأولى والثانية
- بكفيا - بدك كبة نيّة؟
- لقطة من الأربعينات
- المدرسة
- المقصورة
- وهل يعود طائر السنونو؟
- التحدي
- أم عزيز
-- جعفر
الحسناء والشاعر
- القاهرة - احمر اسود! احمر!
- الانتفاضة
- جون ووني
- باريس
- المهاجرين
- قاهرة الجواهري
- خدمة بخدمة
- يا رمز المعالي

- لوحات

الضباب والغابة

الفرات الذهبي

فرشت أنساً لكَ الحدقُ

يُمضني الشوق إليك رغم أنك لم تغب عني..

إلى أبي.. إلى الجواهري

إهداء

إلى من خففت عني وحشة الغربة في الوطن،
ومرارة البعد عنه، إلى زوجتي إلهام.

فلاح الجواهري – لقطات ١ – ٢٠٠٧

اللقطة الأولى

ظلام متسع الأبعاد لا تقطعه إلا بقع ضوء من كاشف السيارة تمتصه رمال البادية الرمادية الكابية فلا يترك أثراً..

اهتزازات حاشية النافذة المعدنية التي يتكئ عليها رأسي فوق وسادة يدي.. لمعان نجوم مهتزة عميقة الأبعاد.. حزن ووحشة أعمق.

.. هذه الآلة المزمجرة الرجراجة المتجهة إلى المجهول تبدو في الصورة خاوية ممن سواي..

شيء ما هناك فوق سطحها لا اعرف شكله أو مغزاه يثير الحيرة ويخز بالألم... أتذكره من حين لحين، بين لحظات الظلمة المتسعة وبقع الرمال الرمادية الكابية والنجم المهتز وزمجرة الآلة الحديدية الخاوية.

.. تلوح من بعيد قبة نيرة لمّاعة.

.. تقترب القبة!

...تزداد اقتراباً..

شوارع مقفرة نصف مظلمة، نجتاز بين مسافة فيها وأخرى عمود إنارة موحش في عزلته.

.. شيء شبحي المعالم يرسم بلا وضوح معالم دكاكين مغلقة.

.. أقواس مداخل أسواق مقفرة شديدة الحلكة.

ظلال سوداء مُحددة المعالم على خلفية جدار رمادي داكن.. الظلال تتحرك تحيط بالسيارة.

.. الظلال عباءات ووجوه وعمائم.

.. تنزل عدة عباءات سوداء من السيارة.

.. لغط ونحيب.
.. تلتف الظلال والوجوه والعباءات والعمائم.
وحشة قاسية وخوف شديد.

تمتد عمامة كبيرة داخل السيارة.
.. ترفعني يدان إلى خارجها.
وجوه نسوية مبلولة تلتصق.
.. يتندّى وجهي.. قبلات تغمره..
ولولة وبكاء.
تصخب أذناي.
.. أناول من يد لثانية.. من عباءة لأخرى.
يصيبني الدوار.. أرغب في البكاء.. أخشاه فتخنقني غصة وغرغرة في حلقي.

يُحمل الصندوق من على ظهر السيارة فوق الأكتاف.
.. يطفو في الهواء.
يتقدم ويمشي الجميع وراءه.
أطوف واهتز فوق أحد الأكتاف..
يختفي الجمع .. تهرب الأصوات.. يتلاشى الصندوق.
أطفو وحيدا في الفضاء.
موحش هو الفضاء.

فلاح الجواهري – لقطات ٢ – ٢٠٠٧

اللقطة الثانية

ساحة الدار فارغة، أرضيتها من الطابوق الفرشي العريض المبّرد بندى الصباح الباكر.

..البيت يلفه صمت مطبق.

أتفحص أرضية الدار، أراقب المربعات الصفراء االكابية المرصّعة بالمسامات والتنقير.. آثار طحالب خضراء في بعض زوايا الطابوق العريض.

برهة وتضيع الخطوط والألوان.

ارفع راسي فيجابهني دهليز مدخل الدار نصف العاتم، المنتهي بالبوابة الخشبية الضخمة ذات الضلفتين وترباسيها الحديديين.

أتأمل ذلك لبرهة.

.. تختلط التفاصيل ثم تضيع.

أتحول ببصري قليلا..

.. جدار حجري واسع، ألوانه حائلة ومقشّرة، مرقشة بحفيرات عاتمة.

.. ازحف ببصري إلى الأعلى ببطء.

.. جدار خشبي اخضر حائل مقشّر الصباغ.. نوافذ طويلة تمتد وتمتد إلى الأعلى.

.. لا يستطيع بصري الارتقاء لحافتها العلوية.

..اخفض بصري وأجيله فيما حول ساحة البيت.

.. باب بني عاتم بضلفتين.. على اليسار.. على اليمين سلالم حجرية ملصوقة بجدار بالغ العلوّ كالح اللون.

أتوجه إلى السلالم بخشية، الدرجة الأولى عالية وأحاول تسلقها..أنجح بعد جهد.

.. أثابر فأتسلق الثانية بجهد اقل، هي اقل ارتفاعا!

.. أواصل بدأب.. أصل إلى المساحة المربعة أمام الباب الموارب.

يأخذني الخوف من هذا الارتفاع الشاهق .. بيني وبين ساحة الدار أبعاد شاسعة.

ادفع الباب فتجابهني عتمة..
لحظة وتنجلي العتمة.
ادخل وأنا أحس بفرح ينبع من الأعماق و ينطلق بصرخة.

.. يردّ عليّ الصمت.
.. يتضاءل الفرح.
.. الفرح يغور عند مرأى السرير الوسيع الفارغ مبعثر الأغطية.
أجيل البصر..
.. مرآة.. أمشاط وقناني صغيرة على دولاب صغير أمامها.. مقعد صغير مدوّر.
.. قميص نومها مرمي بإهمال على بساط أرضية الغرفة.
.. ستائر الغرفة العاتمة مسدلة على النافذتين الطويلتين
.. بين النافذتين ماكينة خياطتها، طاولتها عالية.. كرسي من الخيزران وراءها.
دولاب الملابس في الركن القصي من الغرفة مغلق الأبواب..
أعود ببصري إلى السرير، أمعن البصر.. أحس بمرارة الوحشة في فمي.
السرير خال لاشيء، غير الوسادتين والأغطية المبعثرة فوقه.
.. أقف حائرا.
.. تدبّ وتزداد الوحشة.
أحس بغصة وغرغرة في حلقي.. تتضبب التفاصيل وتغبّش أمام عينيّ.
أتحرك ببطئ نحو السرير.. أتسلقه.
أضع راسي على وسادتها في الحاشية اليسرى من السرير فتغمرني رائحتها.
أمد جسمي التعب واحتضن الوسادة.. اشعر بحزن.. تعاودني الغصة والغرغرة وتتضبب عيناي من جديد.
.. أحس بوجنتي تتندّى.
أغمر راسي في الوسادة أكثر فأكثر.. تسري رائحتها فيّ من جديد.. تسري معها سكينة.
السكينة نعاس وخدر.
تغيب الأشياء.

" لا كان ذلك اليوم يا مناهل، ولا كان نوري السعيد، بل وعساني لم أكن أنا بالذات، و سواء أكان ما أرد ت، أم لم يكن، منذ فوجئت بنبأ هذه السفرة، التي كنت خالي الذهن عنها وزاهداً فيها..

اتفقنا على الحيلة المبتكرة للتملص من ذلك التكليف المنغص، بعد أن قطعت عهداً لنوري السعيد، وان كان لايصح أن يكون ما اتفقنا عليه، مكراً عابراً،على مثل نوري السعيد ومكره..

وقلت لك ابرقي لي يا مناهل ولنتفق على الحرف الواحد:

"إنَّ" (وقد بدأ عليّ التشديد في- إن-)" والدتي في خطر".

لقد أسرعت بما فيك من نبل وشهامة، في تدارك هذا الاسم بالذات، لشدة ما أدركت من أمر حبي العنيف لوالدتي فقلت لي :

" لماذا والدتك؟ سأبعث لك برقية عني "..

وصلت إلى بيروت وودعتك مشيعاً بقبلاتك وقبلات الأطفال، وكان الطيبي مترعاً بالطيبة كاسمه، وكنا نلتقي بين يوم وآخر.

في اليوم الخامس سلمني البرقية، بحروفها وكلماتها المتفق عليها، بما لا يختلف حرفاً واحداً :

" إن والدتي في خطر - فرات ".

دسستها في جيبي، وبفرح عارم من إتمام الحجة ومن قرب العودة.."

فتحت جريدة الزمان.. ما هذا الإطار الأسود؟ما هذا الاسم الذي يحمله واحمله مع الجريدة؟!!

كانت الصحاف ممدودة، والملاعق بأيدي المدعوين وهم ينتظرون أن أمد يدي، وإذا بهم يرون الجريدة قد سقطت من يدي،

شحب وجهي، ورأوا عيني ويدي المرتجفتين، ففزعوا لفزعي.. "

" إيه يا مناهل..ما زلت عند قسمي وعهدي، يوم قلت لك " كفّي يديك!"..

أوتذكرين حين حانت ساعة "رامونة"، بقينا رهيني صمت ابلغ وافجع من كل آهة أو دمعة، نحيب أو بكاء.

اجل، إنني ما زلت عند قسمي، فلم ألمس أثرا مما خلفه الآخرون، وهم كثيرون.

إما أنت يا حبيبتي، فلم تبرّي في ما بعد، فيما تعاهدنا عليه (أقول ذلك وأنا راج عفوك) من انك ستكونين معفوّة، بعد عمر مديد من أن تلمسي أو تبعثري أسلابي. أقول لك - أيها الملاك، ويا أيتها الروح التي أعيشها - وقد تجاوزت بك الحياة ومداراتها، العمر والزمن، حتى لكأنك تبدين لفرط ما عانيت، اكبر مني سناً، أكثر مني تعباً، واشد نسياناً.

ها أنت ذي شاخصة، ماثلة، عائشة، وقد بلغت ما بلغت من العمر، وبفارق عشر سنين كان، وما يزال بيننا، أرى وجهك كما كان في عزّ فتوته، وارى بسمتك لحظة تشرق، وأنت معي كل يوم وليلة، في كل بيت، في كل بلد، في كل غرفة.. في مدارج حياتي، في منامي، في أطيافي وأحلامي.

يا مناهل.. الروح تهزأ بأنياب الدهر، بمخالبه، بأشداقه.. تهزئين بها.. تشقين الصمت، تمسكين بروحي التائهة الشرود، فأعود معك إلى ثلاث سنوات من العشرينات، ونؤوب معاً إلى ثمانٍ من الثلاثينات، نسترجع ما كان وما يبقى.

انك معي الآن، وأنا، أسجل ما أسجل.. طائفة حولي، تسمعين ما تهمس خواطر القلب.

انك ما تزالين تدقين وتدقين على النافذة وأنا في غمرة ليلتي هذه، في الواحدة من صباحها، الحادي والعشرين من الشهر الثاني من عام ١٩٨٨

وها أنت تدقين النافذة.. تدخلين.. تتوقفين.. تتأملين ما سيكون مني وأنا اكتب، بمثل ما سبق لك أن قمت به، وفي ليلة لايصل فيها إلى السمع حتى همس نسيم ولا رفيف شجر، عندما كنت وأنا على وشك أن انقل إلى المستشفى لعارض مفاجئ أصاب قدمي ببغداد، وفي غرفة نومي من دارنا بمحلة- القادسية-، وبمثل ما سبق لك من ذلك وقبل أعوام قليلة، وأنا في دمشق وفي ليلة ليلاء عشت صباحها، وقد أوشك بصري أن يذهب.

وليلة أخرى يا مناهل وأنا في براغ، وعلى حال مفزع من الألم والقلق، تدخلين وتتأملين ما اكتب إليك وعنك، وتعلمين علم يقين راسخ، إن قلمي سيمضي في وصف خصالك وفضائلك، ومكارمك، ولطفك وصبرك، وان هذا الوجيب الذي يملأ ملكوت الروح سيتوج ذكرياتي، لأقول ما لا استطيع الفكاك عنه ولا يستطيع الفكاك عني.."

" وقلت لك يا حبيبتي مناهل :

في ذمة الله ما ألقى وما أجدُ
أهذهِ صخرةٌ أم هذه كبدُ
قد يِقتلُ المرءُ من أحبابهُ بَعدوا
عنهُ فكيفَ بمن أحبابهُ فُقدوا
بالرُوح رُدي عليها إنها صلةٌ
بين المحبينَ ماذا ينفعُ الجسدُ
بكيتُ حتى بكا من ليس يعرفني
ونحتُ حتى حَكاني طائرٌغَردُ
إنا إلى الله! قولٌ يستريحُ بهِ
ويستوي فيهِ من دانوا ومن جحدوا
مُدّي إليَ يداً ، تُمدد إليكِ يدُ
لابدَ في العيش أو في الموتِ نتحدُ
غطى جناحاكِ أطفالي فكنتِ لهم
ثغراً إذا استيقضوا ،عيناً إذا َرقدوا
قالوا أتى البرق عجلاناً فقلتُ لهم
واللهِ لو كان خيراً أبطأتْ بُرُدُ
ضاقت مرابعُ لبنانٍ بما رَحُبَتْ
عليَ والتفّتِ الآكامُ والنُجُدُ
تلك التي رقصت للعينِ بَهجتُها
أيامَ كنا وكانتْ عيشةٌ رَغَدُ

الجواهري "ذكرياتي "

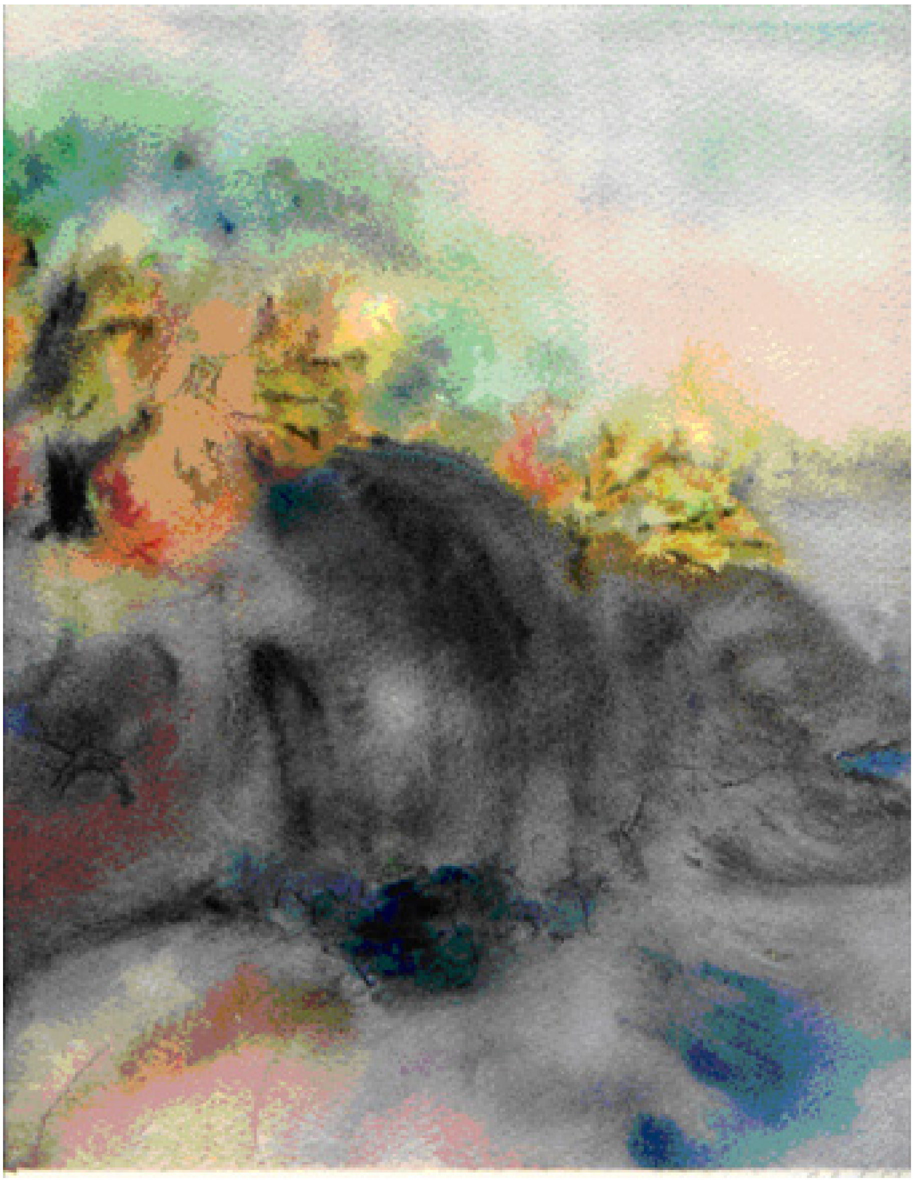

غسلَ البحرُ أخمصيها ورَشّتْ   عبقاتُ الندى جباهَ الروابي

فلاح الجواهري (معرض الجواهري ٢٠٠٣ .. لندن غاليري الكوفة)

بكفيا.. بدك كبة نية؟

- بَدك كبِـه نيـه؟!

كنت أقف متردداً في حديقة زاهية الخضرة محاطة بسياج خشبي قليل الارتفاع.

..أمامي باب المطبخ المفتوح..

بعيدا فى الداخل، تجلس امرأة بفخذين سمينتين منفرجتين نصف عاريتين.

تمدّ بإحدى يديها عجينة مغزلية... تدعوني بحركة رأسها إلى كسر خجلي والتقدم لأخذها.

أتقدم ببطء وحذر... آخذ العجينة المغزلية الصغيرة... العجينة لونها مائل للخضرة.

.. أتذوقها بحذر

... طعمها مالح غريب.

... أردها بخجل إلى المرأة المبتسمة.

أتراجع ببطء إلى الحديقة.

افتح باب السياج الخشبي الواطئ الأخضر

... سفح مدرّج اخضر ينحدر... ينحدر

... درجة... درجة... درجة

حقول واسعة خضراء.

على يساري أشجار شامخة خضراء.

أشجار عنب قصيرة.

... خضراء

في الجانب الآخر البعيد....

سفح اخضر.

ينحدر... ينحدر الآخر.

... يلتقي السفحان.

خضرة تشف هنا.
... أوشحة طويلة خضراء هناك.
أبخرة دخانية... ضباب

يتقاطع الضباب...
بالخضرة الأخرى....
أتقدم إلى حافة المنحدر.. أتنقل ببصري في خضرة المدارج، في السفح المقابل، في العمق المحزّم بأوشحة الأبخرة الدخانية..بالضباب، بشجيرات العنب القصيرة المتراصة

... انزلق إلى الدرجة الأولى...
اثبّت قدميّ المهتزتين على التربة الحجرية.
... شجيرات العنب تعلو رأسي.
... انزلق إلى المدرج الذي يليه.
... والذي بعده... وآخر.
أواصل انزلاقي باتجاه العمق المضبب.
... رجل ضخم منحنٍ يلبس شروالا منتفخاً أسود يحفر في الأرض بعصا.
... العصا برأس ذا أداة حديدية حادة.
أتذكر أداة تقطيع اللحم في المطبخ.
أقف... أتأمله قليلا.
... أتأمل الأداة التي تحفر.
... أواصل انزلاقي مدرجا ومدرجا ومدرجا.
انزلق عن آخر مدرج.
أقف وأستدير.
ارفع رأسي... حيث بدأت؟.
... أرى خضرة تتصاعد وتمتد.

... المدارج لا تتمايز.
تتلاشى حاشية الأعالي الخضراء بزرقة السماء الشافة.
أشعة قرص الشمس القريبة من الحافة تعشي عيني.
أشعر بدوار.
أخفض بصري وأستدير.
هنالك جدول قريب...
امشي بفرح إليه.
... اجلس على حصى حافته.
برودة الندى لها طعم النعاس.

... أحس بالخدر.
أمد ساقيّ فيبتل حذائيّ.
على مهلي اطرطش الماء
ثم بقوة ...، مُيّ! مُيّ! مُيّ!.
.. هيه مُيّ! مُيّ! ميّ !
.. هيه هيه ميّ.
نثار الماء يرتفع... يتموج حول حذائيّ
يندى حذائي
أنتعش وجهي،... ميّ! ميّ! ميّ!.
.. أبعثر الحصى من تحت يديّ ثم أمسك حفنة منه وأرميها في الجدول الرقراق.
ألوان الحصى تتلامع، تختلط.
انهض..أخوض في الجدول فوق الحصى، ينزلق الحصى تحت قدميّ، أجتازه إلى الجانب آلاخر.
... أتوجه إلى المدارج المقابلة.
... أتسلق بجهد المدرج الأول...
الثاني اقل ارتفاعا.

من جديد ،شجيرات العنب تعلوني...
أواصل الصعود.
بضعة مدارج...عند الحافة.. وبرتقالية. بدء يتكاثف، خطوط حمراء، ووردية وصفراء
وبرتقالية.
أتسلق المدرج الأخير... تتكاثف الزرقة.
في حواشي السماء، هنا، وهناك.
أحزمة بنفسجية.
بنفسجية...بنفسجية حمراء.
أستدير اطل إلى الأسفل...
عتمة القعردخانية.
.. أقف.. أجيل النظر بحيرة...
... كم أنا جائع!.

* * *

أضوية كثيرة معلقة... أحمر... أزرق... أخضر.
موائد حولها أناس بأزياء، وأزياء... أناس ببناطيل سوداء وقمصان بيضاء يتحركون بين الموائد حاملين صواني وصحونا وأقداحاً.
...أشجار هنا وهناك بين الموائد وحولها.
أربعة أطفال حول مائدة.
نجلس.. نكركر.. نصخب... أمامنا صحون
... نرفع كؤوسا فارغة.، نكركر.
... " صحتك!"...، " صحتين! ".
اجلس قرب سياج خشبي واطئ.
أمد رأسي فوق السياج.
... أشجار عاتمة تتطاول.

من قعرالوادي تطفو العتمة
في عمق القعر... ضاع البصر.
أطيل النظر.
أغوص في العتمة...
لا وحشة في الظلمة!!.

عينايّ تواجهان قوس المدخل الذي تتعلق فيه اضوية ملونة كثيرة...
من المدخل أرى والدي ببدلته الفاقعة اللون.
يتقدم بخطاه الواسعة صوبي.. شعره الكث منفوش، لِمّـتة كبيرة..عيناه جاحظتان فيهما غضب
... تحول إلى استغراب... تحول إلى جذل.
أتت خالتي خلفه شبه مهرولة.
وقف إلى جانبي.اطل بوجهه عليّ.
ابتسامته ماكرة مستغربة...

ارفع قدحي الفارغ تجاهه...
" صحتك! ".
تبكي خالتي.
يأخذني والدي تحت ذراعه ونمشي..
أحس بفرح.
في زقاق مظلم نتوقف عند باب عاتمة بظلفتين خشبيتين ضخمتين..
يفتح الباب.. يظهر رجل طويل برداء طويل اسود.. غطاء رأسه طويل اسود.
لحيته طويلة سوداء.
.. هذا هو "أبونا"!.
"أبي"... "أبونا".."أبي وأبونا".."أبونا وأبي"
غرفة بكنبات كثيرة، وكراسي، ومناضد، ورفوف، وكتب، واوان، وملاعق، وهرة

تموء وتدور رافعة ذيلها.

- ميـيـيـوو... تتمسح القطة برداء "أبونا" الأسود الطويل.

"أبونا" يتحرك في الغرفة بكثرة،... يتكلم ويضحك بصوت عال.

- قم وقبل يد "أبونا"!، هو من دلنا عليك.

أنهض بارتباك وخجل وخوف.

..يرفعني "أبونا" بيديه الضخمتين

... أطير عاليا.

يقربني من وجهه، تدغدغني لحيته...

يجلس...

اجلس على ركبتيه.

* * *

أبي في المقعد الأمامي قرب السائق... أضع رأسي على حافة النافذة.

... اشجارضخمة سوداء تمرق خاطفة من جانبي.

... نسمات طرية حلوة باردة تضرب وجهي.

تنحرف السيارة...

... ينحرف الوادي.

الوادي مظلمـم، عميـيـق.

.. أطير... اطيـيـير.

أطير فوق الوادي.

يظلّم العميييق... الوادي..

يظلّم الوادي.

أغمض جفني.

رأسي في حضنها ...

الدفء في حضنها!!

... أصابعها تمشّط شعري

لبنان -الجواهري وأم نجاح (على اليمين) ، محمد حسين الشبيبي
وزوجته (على اليسار) كاتب السطور - ثلاث سنوات - أسفل اليسار

"...نزل الناس لفحص الأمتعة وأنا بينهم، وانتهت المهمة بأقل من ساعة، وابتدأ المسافرون يرحلون

إلا أنا....لم الاستثناء؟!

دخلت مكتب المسؤول عن مركز الحدود، في هذه الأثناء انطلقت سيارة الأجرة تاركة حقيبتي الصغيرة.

بقيت رهين الدهشتين : المفاجأة، والتهيب من التطفل في التساؤل عنها.

وتطفلت فأوجزت : " ما الأمر أيها السيد "؟.

- انك ممنوع من دخول لبنان.

... ورحت أفتش عن السبب في أولى ساعات الليل... بعد بحث وتنقيب شخص أمامي ما كان غائبا عن ذهني: تذكرت إني وقبل ثلاث سنوات تقريبا، شتمت الانتداب الفرنسي والمنتدبين عليه، في قصيدة أنكرت فيها أن أجد في جنة الخلد غريبا عليها، موكّلا بعذاب من فيها، اعني قصيدتي في (عيد الزهور) وبالحفل الحاشد المهيب، الذي اقيم في (بكفيا) المصيف الشهير الذي كنت فيه والعائلة كلها، ضيوفا على بيت من بيوتها ذات القباب الحمراء.

أرجِعِي ما استطعتِ لي من شبابي
يا سُهولاً تدثرتْ بالهضابِ
غَسلَ البحرُ أخمصيها ، ورشتْ
عبِقاتُ الندى جباهَ الروابي
واحتواها "صنّينُ" بين ذراعيـ
ـه عجوزاً لهُ رُواءُ الشبابِ
كللتْ رأسهُ الثلوجُ ومستـ
ـهُ بأذيالها متونُ السحابِ "

الجواهري : " ذكرياتي "

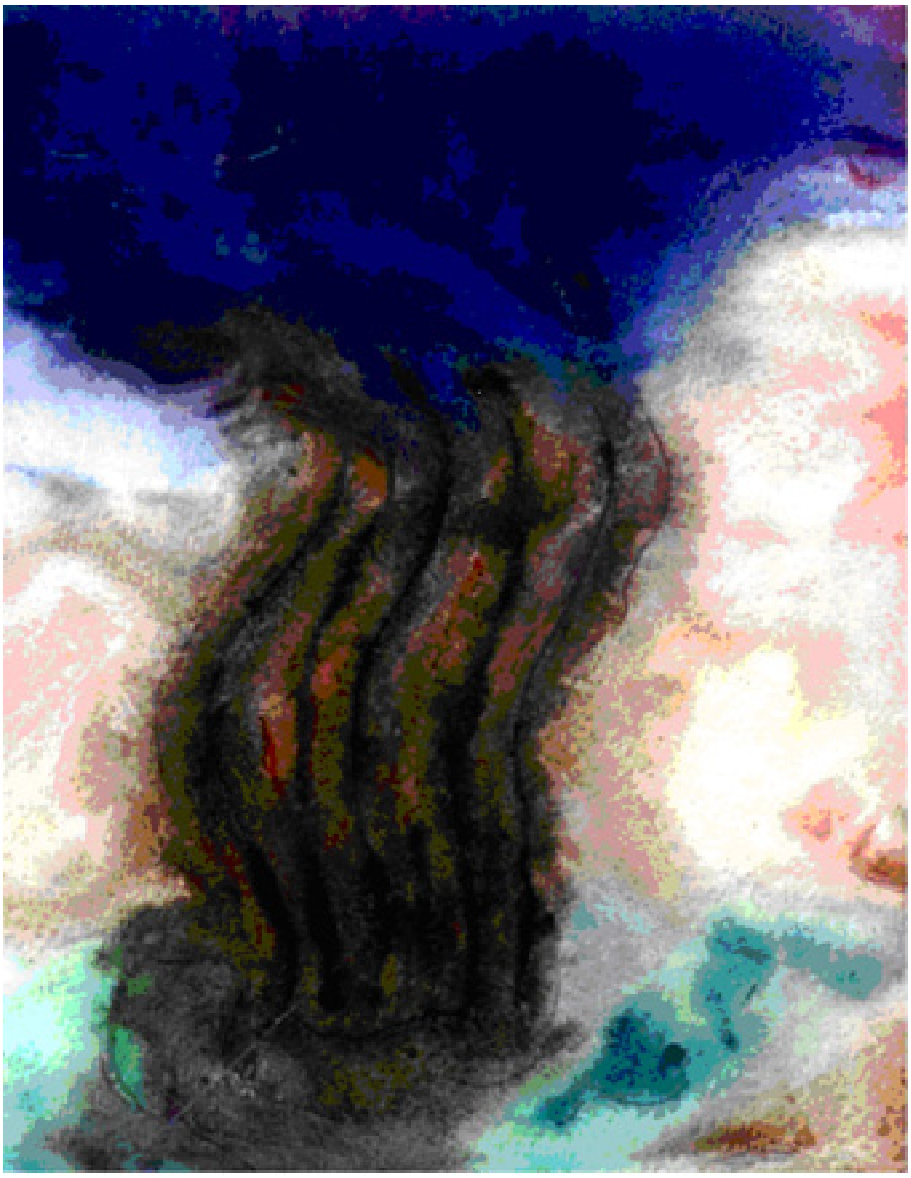

فلاح الجواهري – الواحة – ٢٠٠١

لقطة من الأربعينات

(شدي الرحال يا أم نجاح)

أفيق مرعوباً على صوت مدوٍّ فأقفز صارخاً من سريري الحديدي وأركض دون وعي خارجاً من الغرفة الخالية إلى ساحة الدار ذات السقف العالي.

أبواب الغرف المطلة على الباحة مشرعة.

اركض صارخاً إلى كل واحدة منها.. يزداد هلعي حين أجدها كلها خاوية.

يتجدد الصوت المدوّي فيزداد هلعي.. لم يبق إلا السلم الذي يقود إلى السطح.. اركض تجاهه واصعد درجاته بسرعة مستعيناً بكفيّ.. اسمع لغطا ً في السطح وأجد الباب مفتوحا على مصراعيه.. تهبط سكينة مفاجئة وانطلق مكركراً لألتصق إلى ساقيّ أختي.

..الكل منشغل بالنظر إلى السماء.

ارفع بصري أنا أيضا.

.. طائرتان بجناحين الواحد فوق الآخر.. تقتربان.. تبتعدان عن بعض.. تعلو واحدة وتهبط الأخرى.. يعود اللعب المسلّي هذا مرات ومرات.

أصوات مفرقعات تختلف شدتها تماما مثل أصوات المفرقعات في ليلة المحيى.

.. يدوّي من بعيد صوت يشبه ذلك الصوت الذي استفقت عليه.

– " هذي القنبلة في سن الذبان ".

– "..هذا الصوت المرعب هو قنبلة.. قنبلة!.. ها ها ها قنبلة! "

أوجه ضحكتي إلى خالتي الواقفة بجوار أختي وأكرر.. " سن الذبان..سن الذبان.. للذبان أسنان! أسنان الذبان.. ذبان الأسنان.. ".

يرن جرس الباب وأركض لأفتحه.. أطال القفل.. أفتحه بعد جهد قليل.

.. يدخل والدي بقامته الطويلة.

.. يطلّ عليّ.. يبتسم.. يخفي شيئاً وراء ظهره.. يتحرك بمكرٍ إلى زاوية في

ساحة البيت.. أتبعه.. يدير مفتاحاً صغيراً داخل شيء يحاول أن يخفيه.. يديره مرات عدة..

يضع ذلك الشيء على أرضية باحة الدار فتنطلق دراجة نارية صغيرة تدور مع راكبها الصغير حول ساحة الدار محدثة ضجة وصفيراً.

أدور بفرح وجذل وأنا أكركر خلف الآلة الصغيرة.

تختفي كل معالم الدار الوسيع ومن فيه.

..لا شي في الدنيا غيرنا يدور.. الدراجة.. راكبها الملون الصغير، وأنا من خلفهم.

* * *

بيت شرقي بدورين وساحة مربعة ببضع غرف تنفتح عليها، مع حوض ماء غير عميق مربع الشكل وسط الساحة..عدة غرف في الدور الثاني مع ممر أمامها يلتف حول الدار بأكملها.

.. نساء وثلاثة أطفال.

طفلة بوجه ممتلئ وعينين زرقاوين واسعتين وشعر أشقر وملابس ملوّنة برّاقة، تقاربني سنا

.. تتقدم إلي.. بابتسامة واسعة تسحبني: " بيا! بيا!! ".

.. أتبعها إلى غرفة طويلة مفروشة بالحصر.. على الأجزاء المجاورة للجدران منها، تمتد فرش بوسائد اسطوانية طويلة.

تجلسني في احد الأركان أمام دمى عديدة مختلفة الأحجام مصبوغة واسعة العيون عليها قلائد مخرّزة وأمامها صحون وملاعق صغيرة.

- " بيفرما! ".

تلعب (بوران) " التوكي " في الدرب المقابل للبيت.

.. اجلس على عتبة الدار أراقبها.

.. ارمي أحجاراً في النهر

النهر قريب ضيق.

أراقب!.. واجهات بيوت حجرية وطينية في الجانب الآخر من النهر.
ارمي أحجاراً في النهر الذي لاارى مياهه.
اخطّ بإصبعي في التراب.. انهض.. اسحبها " بيا بيا!". نهرول على طول الجسر الحجري فوق النهر.
- " خشخاش!.. خشخاش سكّري!.. خشخاش! ".
يقترب رجل بسروال عريض أسود.
-".خشخاش!".
.. يُنزل طبق الخوص الذي يحمله فوق رأسه. تدفع له " بوران" قطعة نحاسية فيعطيها نبتة يابسة.. ساق رفيعة طويلة تنتهي بكرة يابسة مجعّدة بلون بني كابي.
.. تهز(بوران) الخشخاشة الجافة قرب إذني..اسمع خرخشة مكتومة.

.. تَكسر فتحةً في الكرة المجعدة اليابسة.. تمسك الساق من أعلاها وترفعها.. تلقي برأسها إلى الخلف.. تفتح فمها وسيعاً.. تنكث الكرة المتيبسة.. يتساقط نثار من بذور عاتمة ومسحوق ابيض.
.. تناولني النبتة اليابسة.
.. الحبيبات تنهمر في فمي وينهمر معها المسحوق الأبيض السكري.. أجرش الحبيبات بأسناني... يلسعني طعم شديد المرارة.. ألوكُ معه السكر المتبقي في فمي.. انتظر برهة.. افرغ ما تبقى من محتوى الخشخاشة..ألوكهُ بإصرار.
.. ما زلنا واقفين على الجسر الحجري، وما زالت "بوران" ترطن بكلمات لا أفهم معظمها.
أتأمل النهر والبيوت الممتدة على جانبيه.
.. النهر يتسع.. يطول.. يتلوّى.. البيوت تتلوّى على جانبيه.
.. يرفرف الكون، قطعة قماش مرسومة!؟.
اهتزّ الجسر وتراخت ساقاي.
.. أتشبث بإصرار بسياج الجسر الحجري.
.. النهر الطويل العريض المتلوّي، نهايته البعيدة بدأت ترتفع شيئا فشيئا نحو السماء، ومعها نهاية الدربين ببيوتهما.

.. اخذ جزء النهر القريب من الجسر يتسع أكثر فأكثر.

أنا والجسر نغوص، نغوص!..

يكاد ماء النهر يغمرنا!، النهر- المنقلب صعوداً-.

..البيوت على جانبيه تدور، تتزايد سرعة دورانها..

أنا منزلق، تمتد ساقاي على أرضية الجسر.. ظهري يحاول الالتصاق والاستناد عبثاً على جدار الجسر..

أميل على احد جانبيّ وأستند على كفي.. أضحك!

.. أضحك كثيرا ً.

.. أرى شبح بوران الملون المهتز، الواقف أمامي، يظهر ويتلاشى.

.. يعود شبحها متأرجحا على طبقات متراكبة.

.. التراكيب يشف بعضها، بصخب تلمع ألوان البعض الآخر.

.. اسمع ضحكتها هامسة من بعيد.. تقترب ضحكتها.. تتعالى بكركرة يزداد صخبها أكثر فأكثر.

.. تتحول الألوان والخطوط المهتزة إلى ضحك متصاعد مجلجل.

.. أسمع الألوان كضجيج ورنين معتم وشفاف، ازرق ووردي، بنفسجي موشى بخطوط حمراء..

* * *

الوالد وخلفه خالتي وشخصان صغيران في قرية جبلية مترية ببيوت طينية خربة.

تحدث طويلاً مع رجل ملتح بسروال طويل منتفخ وعمّة صغيرة.

.. الرجل يؤشر بكثرة بيديه صوب الجبال المتشامخة والوالد يصغي بانتباه ثم يتبعه إلى مكان غير بعيد..يختفيان عن الأنظار.

.. الرجل الملتحي يتأرجح فوق بغل ضخم في ممرات جبلية ضيقة ممتلئة بالأحجار.

.. قمم تكسوها الثلوج.

أنا اجلس قريبا من عنق بغل بني عاتم.. ذراعا والدي تحيطان بخصري بإحكام.. إذنا البغل تتحركان متعاكستين.

.. تفلت بعض الأحجار من تحت قائمة البغل الأمامية اليمنى.. تنحدر من على الحافة القريبة.

.. أتابع الأحجار المنحدرة وهي تتسارع ساحبة معها أحجاراً أخرى وأتربة.. يتوقف البغل ويدير رأسه تجاه الوادي.

.. أتابع المشهد.

.. ما زالت الأحجار المتهاوية تنحدر وتتضاءل بسرعة مبعثرة الصخور العتمة الضخمة.. الأحجار تختفي في هوة لا يستطيع بصري المشدود أن يصل إلى قرارها.

أحس أنني أحلّق منفلتاً من على ظهر البغل ثم مسحوباً إلى الهاوية حيث اختفت الأحجار وسحابة الغبار المنسحبة خلفها..

أتشبث بكفيّ والدي الضخمتين المطبقتين على خاصرتي.

ينظر البغل بسهوم برهة إلى المنحدر، ثم يبدأ بالسير بخطوات متمهلة حذرة..

.. يتقدم البغل باصرارعلى حافة الهاوية دائماً.

.. الأحجار تنزلق من تحت قدميه وتتدحرج على المنحدر الزلق وتأخذ معها أحجارا أخرى.

الأحجار والأتربة تطير منحدرة إلى الهاوية محدثةً ضجيجاً وأصداء، يستمر رنينها طويلاً في أذني.

.. البغل يتقدم على الحافة الحرجة اليمنى دائماً.. على اليسار فسحة كافية من الممر الحجري.

-" الله الله..شوف النذل..الله الله!! سيرمينا في الهاوية..(آغاي..آغاي صرفت مِيكوني..آغاي سمع نداري!!) "

نصل إلى قبة خضراء لامعة، فوق هضبة وسيعة خضراء..تحت القبة فسحة، أرضيتها من بلاط اخضر..

عُمد خُضر.. جدران بفسيفساء خضراء.. بسط خُضرممدودة في الحواشي.

في الفسحة تحت القبة، بركة مرمرية صغيرة خضراء، ماؤها الزجاجي المتلامع يكشف عن قاع ممتليء بقطع نقدية معدنية براقة..

.. ترمي خالتي بضع قطع نقدية..تهتز الصفحة الزجاجية..تنزل القطع بميلان مختلف فتحرك بعض القطع في القاع وتضيع بينها.

* * *

أنا في درب حجري خالٍ مترب.. على يساري كتل صخرية تتصاعد الواحدة فوق الأخرى إلى السماء.

على اليمين مني حافة الوادي السحيق..

- " دير بالك تجي قريب منه..تره تموت!! "..

أنا لا أريد أن أموت!.

البيت الخشبي القريب مني معلق فوق حافة الموت.

.. لا أحب البيت الخشبي هذا، المعلق فوق الوادي.. فوق الموت.

.. ألِجُ إليه بحذر.. تصرّ ألواح أرضية البيت الخشبية.

.. الألواح لا تهتز تحت قدميّ مثلما تهتز هي تحت قدميّ والدي.

.. الخالة في المطبخ المضيء.

.. البيت كله مضاء بأحزمة الشمس المغبرّة.

.. رائحة ال" آب كشت " في كل مكان.

ادخل المطبخ.

.. خالتي تخرج لحماً من قدر(ألآب كشت).. يتصاعد من القدر بخارمتقطع.

تضع اللحم الساخن وبخاره معاً في هاون خشبي.

تخرج حمصاً من القدر.. بخار الحمص أقل.." لبلبي! لبلبي ".

أتذكر أهزوجتنا في الزقاق في بغداد " يا لبلبي يا لبلوب والآنة ترس الجيوب ".

تضع الحمص " اللبلبي " في الهاون مع اللحم والبخار... تدق خليط اللحم والحمص والبخار بعمود خشبي قصير.. رائحة اللحم تفوح.

اشعر بجوع فجائي شديد..أظل واقفاً إلى جانبها.. كم ستظل تدق؟!

تمد يدها إلي بعجينة صغيرة دافئة.

أهرول إلى الشرفة الخشبية المعلقة فوق الوادي" المميت ".

والدي يجلس بملابسه الداخلية وراء طاولة صغيرة فوقها قنينة صغيرة وقدح به ما ء مُضبب.. هو يدندن.. تنقطع دندنته.

.. والدي يدندن كثيراً.

ينظر إلي ويبتسم.

أتجاوزه وأتوقف عند السياج ذي الأذرع الخشبية المتقاطعة.

.. اقضم عجينتي الدافئة وانظر بحيرة إلى السلاسل الجبلية في الجانب آلاخر.

السلاسل الجبلية أعلى من السماء،..السماء تظهر من بين قممها المغطاة بالثلوج..هناك غيمات صغيرة تتحرك تحت تلك السلاسل الأعلى من السما ء.

أحس إني أطفو وأتحرك باتجاه معاكس.

يصيبني الدوار فأتشبث بالسياج..

أمد رأسي من بين أذرع السياج الخشبية بحذر شديد وأطلّ بعينين جاحظتين مرعوبتين إلى " الوادي المميت ".

.. عجيب!، لاشيء مخيف في القعر!

.. جدول ما ء يجري على عجل بين صخور تبدو صغيرة متناثرة.

.. بين تيار الماء الصاخب، تتراقص هنا وهناك، بقع شمسية متحركة.. يجرف التيار البقع الشمسية وينثرها.

هنالك في القعر أشجار تبدو صغيرة جداً على الجانبين..

بدأت أميز أجساما صغيرة لأناسٍ يجلسون على ضفتيه.. ها هو البعض يخوّض بين صخورجدول ما ء القعر.

.. أريد أن أشاركهم لعبهم هذا!

تتصاعد إلي وشوشة الماء وتمتزج معها دندنات والدي.

* * *

أصعّد بصري شيئا فشيئا.. لا أرى نهاية للجبل الذي يتسلق السماء صافية الزرقة.

.. صخور وأكمات وأحجار وأشجار وجداول بماء بارد وسناجيب وماعز وكلب يهز بذيله وينبح بمودّة..

.. سقيفة بأغصان مورقة خضراء وكالحة وأخرى متيبسة، تنفذ بقع الضوء من خلالها فوق ارض منداّة نظيفة.

فوق الأرض البنّية اللون المنداّة، أسرة حيكت من أعواد أشجار غليظة.

نتبارى بوضع اكفنا في تيار الماء المتدفق القارس البرودة.

.. تتلامع بقع الضوء الشمسية وتتكسر فوق الحصى المتلوّن.

.. تسبح بقع الشمس.. يغرق البعض منها.. يطفو البعض الآخر متراقصا من جديد.

.. تتبدل ألوان الحصى.. تنعكس عليها مناشير ضوئية و خطوط عاتمة وضباب.

نقرّب أصابعنا من أفواهنا وننفخ فيها بشدة.

نتسابق إلى أشجار الكرز ونتسلقها كالقطط..

نقطف الحبات القرمزية ونعبئ بها أفواهنا.

تسيل دماء الكرز فنمسحها بأكمامنا.

.. نتغوط حبات كرز.

* * *

صفارات إنذار تنعب بصوت حاد يثير الخوف.. تسود الظلمة فأصرخ.

أتلمس أبي الذي يهرع إلى جانبي.

.. يرفعني.. يضعني في رازونة عميقة في الجدار..

- " لاتخاف"!

اسمع همهمة في الغرفة المظلمة.

.. تنتاب احدهم نوبة سعال شديدة.

.. تمضي فترة طويلة قبل أن ينبعث الضياء في الغرفة.

يمسك والدي بيدي ونخرج إلى ممر الفندق الطويل الخالي.

.. ننزل درجات سلالم مغطاة بسجادة حمراء.

نخرج إلى الشارع.. الشوارع خاوية وشبه مظلمة.

انقطعت المياه الملونة التي كانت أمس تندفع عاليا من النافورة الضخمة وسط الساحة الوسيعة. نخطو بضع خطوات.. يتوقف والدي، ثم يتلفت في اتجاهات مختلفة..

.. يسحبني برفق عائدا.

* * *

تكاد المياه المتماوجة المعتمة تصل إلى حافة القارب المائل.

- "الله! الله!.."مولانا شوفلك جاره مو راح نغرق!"، يتعالى صوت والدي بغضب.

كف المجذاف تغوص في عتمة الليل، ترتفع المياه.. أتابع أصوات الضربات الرخوة الرتيبة.

.. أرى أضواء تتماوج فوق صفحة الماء.. أضواء أخرى ثابتة و بعيدة.

يتراءى الشاطئ.

- " هلا بيكم هلا ومرحبة.. على كيفكم من تنزلون..انطيني أيدك.. تعال تعال! لا تخاف!

يرفعني رجل غريب وينزلني على سلم حجري لا يعلو كثيراً عن مياه النهر.. يمسك بيدٍ كفي ويمد الأخرى إلى آخرين في القارب.

الرجل الغريب يكرر :

- " هلا هلا..حمد الله على السلامة هلا هلا ".

على السلم يعانق والدي الرجل الغريب.

- " تعّبناك ويانه يا أخي عبد الرزاق بنص الليالي ".

- " نوّرتْ البصرة بيك أبو فرات ".

* * *

اجلس إلى جانب الرجل الغريب.. والدي ينادي دائماً الرجل الغريب: " أبو سعود".. إلى الجانب الآخر من الرجل الغريب، يجلس والدي وبقية العائلة.

.. كراسٍ مساندها حديدية سوداء، مقاعدها من قماش أبيض متسخ.

.. أناس كثيرون يجلسون من حولنا في فسحة كبيرة تحوطها جدران بيضاء.. في الجدار الأمامي قطعة قماش كبيرة بيضاء..

كل شيء ابيض!..لمَ يسميها الرجل الغريب " الحمراء ".. " سينما الحمراء "؟.

.. الأنوار مطفأة ونجوم كثيرة تتلامع في السماء من فوقي.. أمامي رجال فوق خيول متراكضة ينفخون أبواقاً طويلة.

تمتلئ الساحة والفضاء بأصوات عالية ذات صفير.

* * *

اركض بفرح في ساحة البيت.. أفتح أبواب الغرف المغلقة وأدور فيها واحدة واحدة، ممثلاً سيارة مسرعة تجأر مكائنها وتطلق "هورنها" بين مسافة وأخرى..

كل شيء يغلفه الغبار، حتى أشجار الحديقة و"الفراندا " المطلة عليها وأرضية السطح الفسيح يغلفها الغبار.

تعصّب خالتي وأختي رأسيهما بمنديلين وترشان كل شيء بالماء من جردلين يتطوّحان تحت أكفهما. أخرج باحثاً عن شلتي من الصغار.

يعود والدي في المساء.

– سوّاها النذل، سوّاها النذل، يدمدم بغضب وهو يدخل إلى المطبخ حيث تتواجد خالتي.

اسمع آهة وصرخة ألم.

.. نحيب وشهقات مختنقة وشتائم تتعالى

– " البيت!، البيت والمطبعة!..هذا النذل الدويك.. يا إلهي صدُكَ سوّاها النذل .. رهنها؟!..هذا هو صديقك العزيز؟!.. ما راح نخلص من أصدقائك الأعزاء.. هَذوله راح يدفنونه بالحيا!

* * *

"..كان قد انتهى أمرالجعجعة ومصيرها ومصير رشيد عالي الكيلاني نفسه ومصائر من معه من ماشين على خطه أو مخدوعين أو مغلوبين على أمرهم، بل ومصير العاصمة العراقية كلها، وقد فرغت هي والعراق كله من حكومة تحكمها أو من خزينة تمولها، ثم ليسد الفراغ الموحش بعد يوم أو يومين عودة الأمير عبد الآله ومن معه من أتباعه.. وقد تألفت وبسرعة وزارة جديدة برئاسة جميل المدفعي..

كانت الأحداث رهيبة، والدماء تسيل. قال لي:

"هذه فرصتك أن تعود الرأي العام - المغلقة - إلى الصدور ".

" وفي بغداد علمت من نور الدين داود - مدير الدعاية العام- كل التفاصيل المكلف بإبلاغي إياها من قبل (المدفعي) عن ضرورة إعادة جريدتي (الرأي العام) إلى الصدور، ولم يفوّت عليّ التلويح بما قد يعوزني بهذا الصدد من (أمور مادية!).

قلت فيما قلت، إنه لو فرش الطريق إلى الجريدة ذهباً لما أصدرتها..

القادمون على أنقاض الكيلاني يسعون ورائي ويضايقونني بمثل ما ضايقني به.. الكيلاني أراد مني قريضاً، وغرماؤه يريدون الجريدة، ذاك أرادني أن أبارك، على نحو غير مباشر، النازية مستغلا غضبي على الانكليز، وهذا يريدني مادحاً له وفي ظل الحراب البريطانية. "

" لقد كانت بريطانيا خصماً مباشراً لوطني، ومنذ العشرين وأنا محرّض عليها. أما النازية فقد كانت خصماً للبشرية كلها، وليس لبلادي فحسب، رغم أن هذه الحقيقة لم تكن جلية للعيان وبخاصة لدى الجماهير العربية المضللة.

طلبتُ من زوجتي أن تستعد مجدداً للرحيل، بل للتشرد و التشريد..

واستودعنا البيت بما فيه من حطام الد نيا إلى صديق من الأعزاء هو محمد دويك.. ودفعنا الثمن الغالي.. وتوجهنا إلى إيران.

دخلنا إيران عن طريق جلولاء فإلى كرمنشاه، حيث مقر أخي الاكبرالمغترب عبد العزيز..الأعز لديّ.

ونزلنا ضيوفاً عليه عدة أيام، لنفترق عنه ونحن في طريقنا إلى طهران، إلى فندق صغير متواضع، ولسوء الطالع بالقرب من وزارة الدفاع، المهددة بتلقي القنابل والصواريخ من الزاحفين..الجيوش السوفيتية تنحدر من الشمال، والبريطانية تتصعد من الجنوب (من العراق)..

أقيل الشاه واعتقل منفياً إلى مثواه الأخير، وجرى باتفاق الزاحفين تنصيب ولده الأكبر محمد رضا ملكا بديلا عنه..
وفي مثل هذا الجو المتعب وجدنا أنفسنا في بلد متأزم وظروف متأزمة كانت وكأنها على موعد معنا، وهي اشد إيلاما لنا من الجو الذي هربنا منه..

كان لابد من العودة.. بيد أن ظروف السفر وسبله كانت شبه عصية، فالحكومة الإيرانية تعلن للمسافرين أن الحفاظ على أرواحهم أمر متعذر، ومن يريد أن يغادر إيران فهو المسؤول عن نفسه، ويعزى ذلك إلى أن فلول الجيش الإيراني المهزوم قد تحولت إلى عصابات قطاع طرق. ولم تبق لنا من وسيلة للسفر سوى القطار عن طريق الأهواز فالبصرة.. وصلنا إلى الأهواز ومنها بسهولة فإلى البصرة ونزلنا بضيافة الصحفي الأديب الشاعر الصديق عبد الرزاق الناصري. "

الجواهري "ذكرياتي"

"

فلاح الجواهري – ١٩٨٦

المدرسة

غرفة الاستقبال والجميع يجلس منصتاً بإعجاب إلى شاب وسيم ببدلة بيضاء وهو يتحدث عن إيفاده الحكومي الى أمريكا في بعثة دراسية، اسمعهم ينادونه دون كلفة ب"جليل".

- والمحبوبة رزيقة، تنتظرك أربع سنين؟ تقولها خالتي وهي تنظر اليه بمكر وتبتسم..خطبتها من أبيها؟

- أبوها قال: من الآن إلى أن ترجع يحلها ألف حلال. قالها جليل وهو يداري خجله واحمرار وجهه.

- يعني رفض؟!.. شيخ رؤوف شديد وقاسٍ احيانا.

- فضيها سيرة أم نجاح، العلم وأمريكا أهم، قالها والدي ليداري ارتباك الشاب الشديد.

- تعال يا فلاح! وأشار إليّ بيده مشجعاً

قالها جليل ومدّ يده في جيبه مخرجا قطعة نقود فضية ومعقباً

- هذه حق السلامة. خذها واشتري بها صباح الغد دفاتر وأقلاماً فقد سمعت انك ستذهب إلى التمهيدي.

- "ما يخالف، روح وخذ من عمك!" حثتني خالتي ملاحظةً ترددي.

- "بس ليش مدرسة يهود، أم نجاح؟"

- هذه أحسن مدرسة في المنطقة.

لم استطع النوم فرحا فوق سريري على السطح لفترة طويلة، كنت خلالها أتأمل لمعان القطع الفضية في الظلام واقلبّها ثم احكم قبضتي عليها خوفا من أن تفلت مني إن أنا أغفيت.

ذهبت معي أختي الكبيرة عند الصباح لشراء كل ما احتاج من قرطاسية، ولا باس من أن استمتع ببعض الحلوى أيضاً من هديتي الضخمة، التي لا أزال احكم قبضتي عليها دون أن أأتمن أياً من أهل الدار على مسّها. وحين يسأل احدهم أن أريها إياه، كنت انسحب إلى الوراء مبتعداً قبل أن ارفعها بإصبعيّ عالياً لبرهة خاطفة قبل أن أعيد إحكام قبضتي عليها من جديد.

اشترت لي من دكان المنطقة كل ما احتاج وربما لأكثر من عام دراسي.. كررتُ طلبي بالحلوى أثناء انتقائها القرطاسية المناسبة خوفاً من أن تنسى. وأخيراً أكملت شراء اللوازم المدرسية.

- "شنو من حلويات تريد؟"
- "حلقوم..إي نعم من هذا عمي..إي إي من هذا.. واثنين حلقوم جعـ... الملك!"

غدا تفتتح المدارس وأنا نشوان بالمغامرة الأولى الكبرى القريبة فكم كنت احسد بضعة من رفقة الدرب حين كانوا يعودون متراكضين زاعقين، ببدلات مدارسهم الخاصة، حتى وإن كانت هذه متربّة مجعدّة أو ممزوقة الجيوب أحياناً، وكانوا يلوحون بحقائبهم أو أكياس متاعهم الفارغة أو يتضاربون بها، جادين أو مازحين.

لكن يبدو أن القرار لم يرس بعد بين خالتي ووالدي، على أي مدرسة، وقد سمعت جزءاً من الحوار:

- " مدرسة يهود لا بيها قرآن ولا ذكر فيها لديننا.. تاليها الولد يطلع إلنا يهودي.. والجيران ش راح يقولون؟.. لا لا ما يصير! " كان هذا صوت خالتي.
- " قرآن وديانة؟ ليش ش راح يفهم منها بهذا العمر.. يهود؟!.. والجيران!؟ قالها ساخرا.. وش بيهم اليهود؟، مو أم الياس جارتج اللي تحبيها؟.. بعدين هذه أقرب مدرسة وأحسنها! "
- " شرط بس هذه السنة.. وهذا البيت أصلاً مرهون ويمكن راح يبيعوه وننتقل غصباً ما علينا

.. هذي هم وحدة من نذالات "أصدقائك الأعزاء".. الدويك، الدويك صديقك العزيز..الله لا يوفقه!، ربي يهجم بيته مثل ما هجم بيتنا!"

وسمعت صوت بكاء ونحيب اضاع نشوتي.

أغلق رجل متجهم الوجه يلبس بدلة عاتمة، البوابة الحديدية العالية ولفّ السلسلة الحديدية الطويلة حول قضبانها واحكم القفل الضخم فيها ..أحسست بحزن لا اعرف مصدره.

عدد لا يحصى من الأطفال في الساحة الواسعة المتربة والصخب يتعالى ويشتد وكذلك الركض و التدافع وتصاعد الأتربة.

.. اقف وحيدا في أقصى الساحة قرب الجدار، لااحد يقترب مني من كل هؤلاء الاطفال المنشغلين بألعابهم وأحاديثهم.

.. مجاميع صغيرة تتفرق من هنا لتلتئم في مكان آخر.

.. هنالك مجموعتان تتقاذفان الكرة.. مجموعة أخرى تلعب "حرامية جرخجية".. الرابعة تلعب " سمبيلة السمبيلة "..

.. اعرف كل هذه الألعاب لمَ لا يشركني احد منهم؟

أقترب بخجل من إحدى تلك المجاميع أقف لفترة غير قصيرة بالقرب منهم، لم يلتفت احد تجاهي، احدهم مد لسانه وحملق بعينيه معاكساً.

.. وحشتي تتزايد.

خرج رجل عجوز يلبس بدلة زرقاء كالحة، وبدء بهز جرس كبير بيده من على عتبة مدخل بناية المدرسة.. استمر يدق الجرس.. بدء صوته يصل إليّ ويتعالى رنينه مع خفوت أصوات التلاميذ في الساحة.

خرج من بناية المدرسة إلى الساحة ثلاثة رجال نحاف طوال يتبعون آخر قصيراً بديناً متجهماً بيده عصا رفيعة وبدء الرجل القصير البدين بالزعيق حالما وصل منتصف الساحة وبعصبية مخيفة " إصطفاف.. إصطفاف.. اصطفاف "

في الصف- التمهيدي-، لم تكن الحالة أفضل، بل كانت أسوأ بكثير.. كنت أجلس وحيداً وراء رحلتي آخر الغرفة، على حين كان الجميع يجلسون أزواجاً فوق كل رحلة.

.. خـلال وقت طويـل – لا نهـاية لـه –، لم ينقطع المعلم النحـيف ذو العـوينات الثخينة عن الزعيق والتلويح بعصاه الطويلة والدق بها على رحلات التلاميذ مهدداً.

.. لم يسمح لي للخروج للتبول..

أخذت ابكي.

في الفرصة كانت الساحة المتربة أكثر صخباً، كانت وحشتي تتزايد مع تزايد حركة الأطفال وضجيجهم.

.. تحـركت من ركني القصي في السـاحة مقـتربا بخشـيـة وتوتر وحذر من البـوابة الحـديدية الضـخمـة. نظرت يمينا وشمـالا.. لا أثر للحارس.. اخذ قلبي يخفق بعنف وأنا اقتـرب أكثـر من منتصـفهـا.. مددت يدي بحركة مفـاجئة سريعة يائسـة ساحبـاً إحدى "الضلفتين".. لم تنفرج إلا عن مسافة أصبعين لا أكثر، على حين اهتزت السلسلة الحديدية وقفلها الضخم مصدرين ضجيجا جعلني اهرب بعيدا عن الباب خوفا من قدوم الحارس.

..عدت أجرجر قدميّ إلى ركني المنعزل بخيبة ومذلة وغصة تملأ حلقي.

رفعت بصري بعد مدة حين استعدت بعضا من هدوئي، ناظرا إلى السياج الطويل العالي، ومن جديد أصابني يأس خانق..

ولكن ما الذي أراه في الركن الآخر من الساحة؟!!

.. هناك في تلك الزاوية القصية شجرة كبيرة ترتفع عـالياً وتعبر بعض فروعـها سياج المدرسة.

لم تكن إلا دقـائق.. ها أنا في الجـانب الآخر من السـيـاج.. انـهض نافضـاً الأتربة عن الملابس التي كانت جديدة.

.. الملابس التي كانت جديدة أصبحت ممزقة ومتربة الآن.

.. كيس المتاع لا يزال متدليا من رقبتي، أما الحقيبة الصغيرة بكراستيها الملونتين واقلامها والممسحة الخضراء ذات الرسوم، ومبراة الأقلام، فقد بقيت في الجانب البغيض الاخر.

يا لها من فرحة تندى لها العين!!.. انا طليق.. انا حر.. الدروب حلوة.. الشمس حلوة.. انا حلو.

وجدت دربي عائدا..

عشرة دقائق لاغير من التسكع الحالم الجميل وها هو البيت يظهر.

.. اخترت زقاقا قريبا وجدت فيه ثلاثة من رفقة التسكع الصغار.

كان أول شيء لتمتين الأواصر هو أن افتح زوّادة أكلي - العليجة - ولأنتحي بهم عند دكّة عريضة من بيت قريب.

.. تقاسمنا لذائذ طعام يوم المدرسة الأول.

في ذلك العام تعددت البيوت التي انتقلنا إليها وتعددت معها المدارس وتعددت معها أساليب مغامرة الهروب المثيرة.

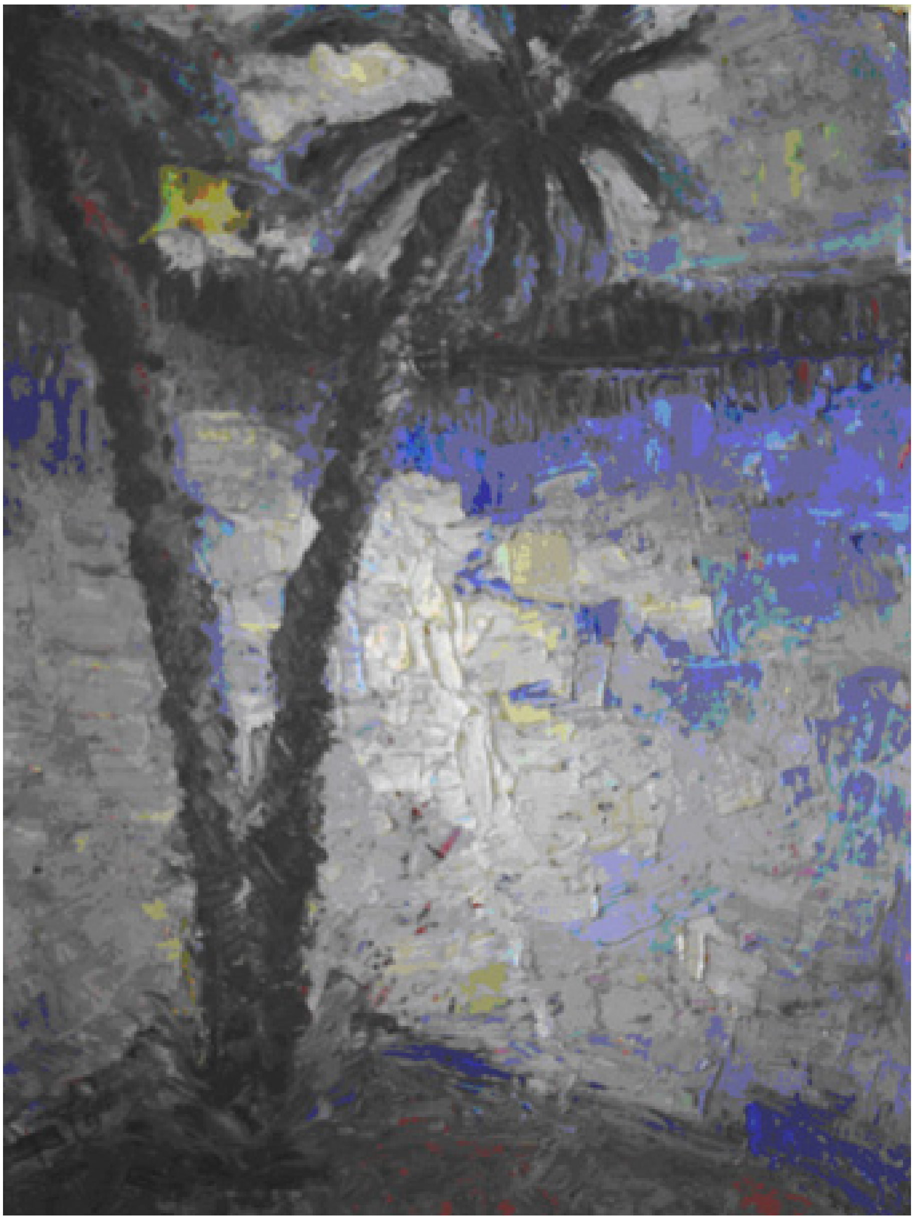

فلاح الجواهري – دجلة الخير– موسكو ١٩٦٣
معرض الجواهري – غاليري الكوفة ٢٠٠٣

المقصورة

.. الزرقة الكثيفة الشديدة العتمة تتسرب من خلال القضبان الغليظة وتغرقني.. اصعد إلى السطح دون عناء يذكر.

أضواء نمنمية تسبح في الزرقة الداكنة مشوشة الإنارة، في القعر فانوس صغير يتأرجح ويقترب..

.. الزرقة ليل، والأضواء النمنمية نجيمات متباعدة.. فانوس القعر نجمة الراعي، وأنا افتح عينيّ بكسل .. اسمع مع حوار النقيق المتقطع همسات منغّمة.

.. ادفع الأغطية عني واجلس على حافة السرير مرخيا ساقيّ، أنصت بإمعان..

.. النقيق يتواصل والهمس ينقطع..الهمس يعود غناءً.. حدواً.. اسرح بعيداً في متاهات ضبابية شفافة

دون أخيلة واضحة المعالم.

.. انهض وامسح عينيّ..

أتكئ على حافة السياج الخشبي واسند ذقني إلى راحة كفي.

.. زرقة حبر الليل تسيل.. تذوب في عتمة دجلة،

لا حدود بينها وبين الستارة المنسدلة المرصّعة بالماسات الصغيرة المتلامعة والجوهرة الكبيرة الساقطة من أعالي الزرقة السماوية الكثيفة إلى القعر.

أزيز جنادب يتجاوب.. صوت مجذاف يقترب.. تختلط أصوات ضرباته بالنقيق، وأضواء ذابلة، وانعكاسات متكسرة تتحرك فوق سطح الماء..

يعود الحادي لغنائه المهموس.

أتأمل الحادي منسرحا فوق شازلونج في الشرفة شبه الدائرية الممتدة داخل النهر ومسرحّاً بصره في الأفق اللا محدود للظلمة.. يتوقف الحادي عن الغناء وينصت.. النقيق يتواصل مع حوار الجنادب وأنغام ضربات المجداف.

.. الأنغام تقترب من حافة الشرفة.. تعبر ساحة الدار المكشوفة.. تنساب صاعدةً فسحة الدور الثاني حيث أقف.

.. وجهي يَندى بنثّ قطرات ماء المجداف.

سلامٌ على جاعلات النقيق..
سلامٌ على جاعلات النقيقققْ..
النقيق.. الهوى..الهوى..

بريدَ الهوى
.. جاعلات النقيقْققِ..بريد الهوياآآ..
على الشاطئييين.. بريدَ الهوى..بريدَ الهوياآ
سلامٌ على جاعلات النقيقِ .. على الشاطئييين
سلامٌ على جاعلات النقيقَ على الشاطئينِ بريدَ الهوى

يستمر الحادي في الغناء منتقلا من صورة لأخرى وتختلط أنغامه بأنغام الجنادب ونقيق الضفادع وضربات المجداف وصيحة ديك مبشر بأن " بأنْ قد مضى الليلُ إلا إنى "..

ينهض الحادي فينقطع الغناء.. يتوجه إلى حافة الشرفة. يقف منصتا دون حراك ومجيلا بصره بين آن وآخر من أضواء الجسر المترائي على اليمين إلى موقع الشاطئ الرملي الذي يشّف بين ستارة الليل الكثيفة وحبر النهر الداكن، ثم يسارا حيث يتمايز شعر سعالي النخيل المشتبك، كتلة مكثفة من ظلمة الليل.

..اسمع أنغام الحادي تتعالى برفق من جديد..

على الجسر ما انفكَ من جانبييه..
على الجسر ما انفكَ من جانبيه..
.. على الشاطئييين..

على الجسرِ ما انفكَ من جانبيه
أأأأأأأأأ الهوى ى آآ
يتيح الهوى..
..الهويآآآ
يتيحُ الهوى..
من عيونِ المهآآآ

على الجسرِ ما انفكَ من جانبيهْ
يتيحُ الهوى..
من عيونِ المها

عليا النخلْ
على النخلِ
ذي السعفات الطوالْ

ويستمر الغناء، وأستمر في السرحان في الظلمة وفي متابعة الحادي الذي يخترق الظلمة بقامته الفارهة والذي يُنظّم بإيقاعاته سمفونية الفجر المقترب.

- إيه دنيا!

يلقي الحادي نظرة أخيرة سريعة من الشرفة على بانوراما دجلة الليل، ويستدير ويخطو، ويبدو أن تأملاته لم تنقطع تماماً و هويرتقي السلالم، دون أن ينتبه إلى موضع إطلالتي عليه من متكئي على سياج ممر الدور العلوي، ولا في إنني كنت أتابعه في حدوه وتغنيه بالأبيات المنظومة.

- أنت هنا؟ يسأل مبتسماً وفي دهشة.. منذ متى وأنت هنا؟.. ما الذي أصحّاك في مثل هذه الساعة والفجر لم يَبِن بعد؟

انه يعـرف أنهـا لـم تكن المرة الأولى لمثل هذه الإطلالة والمتـابعـة، ولا في إنني سـأذهب وارتدي ملابسي على عـجل لأسبـقه إلى الممر قـرب باب الدار لمرافـقتـه.. أو الأصح اللحاق به في خروجه اليومي عند الفجر.

لقـد فـات وقت مـحـاولة الإقناع، بثنيي، لامنعي عن هذا الامـر، والعـودة إلى سريري، فـقد مر على ذلك زمن، وكاد أن يصبح لحاقي به، عـادة يومية أثنا ء العطل المدرسية. بل لقد أصبحت وربما ومن المرة الأولى مرافقةً، تقابل بالجذل،.. وإن لم يخل من استغراب مصحوب بحنان، يحاول جاهدا أن لا يكون معلناً تماماً.

خطواته واسعة، لم أحاول أن أجاريها. لا ولم أحاول أن يكون موقعي، في شبه هرولتي، مجاورا له في سيره.. إلا ما ندر، حين يأخذني إما فضول، أو رغبة في أن أشعره، أنني لا أزال موجودا، وأن لا حاجة به إلى الالتفات إلى الخلف للاطمئنان أنني لست بعيـدا عنه كل البعـد.. حينهـا ارفع راسي وأنا لا أزال مـواصـلا خطوي السـريع وأتمعن في وجهه. فأما أجده مبحرا في عالم بعيد المتاهات أو منشغلا في دمدمة حدائه المنغم الخافت.

الظلام لا يزال سائدا، إلا أن أضواء المصابيح اليسيرة المتباعدة، تلقي بظلالها الشبحية على الشارع أكثر مما تنيره، فتبعث فيه الكثير من الغموض، وأجواء من الخرافات والأساطير..

هذه الأزقة الجانبية الغارقة في العتمة.. كم فيها الآن من "الطناطل" والسعالي، تلك التي تناقلنا حكاياتها أنا وصحابي في الليالي، ونحن نجلس عل عتبة دار احدنا.. كم فيها من أرواح هائمة. خصوصا في تلك الأزقة الضيقة المؤدية إلى أرصفة دجلة وشرائعها.. هناك حيث الغرقى يخرجون من أعماق دجلة ملتفين بألاعشاب وملطخين بكتل غريّن القاع اللزج الكثيف، وبعين واحدة محدّقة، وتقحوّر الأخرى التي أكلتها الأسماك..

حين أصل إلى مشهد الغريق الهائم، يتصاعد الوجيب في صدري وتصخب به إذناي.. أسرع أكثر مقترباً من ساقّي والدي.

.. انظر من جديد إلى الزقاق، فإما أن يكون شبح الغريق قد هرب واختفى، أو انه يبدأ الآن في الاستدارة عائداالى مكانه من ظلامات النهر القريب.

ها هي أضوية الجسر الجديد تتلألأ.. لقد انتصر النور أخيرا!

عند مدخل رصيف الجسر يستدير والدي نحوي، فافهم الرسالة المعتادة
.. اقترب على عجل فيمسك بيدي ويبتسم ونواصل السير سوية، جنبا إلى جنب ويدا بيد.

ثم عند الربع الأول من الجسر يترك كفي ويبطئ سيره.

نواصل العبور شبه متلاصقين..

حين نصل نهاية الجسر، يمسك بكفي من جديد لنستدير داخلين سوق السراي.

يبدأ بعض باعة الكتب فيه بفتح أبواب دكاكينهم، فتصبح بقع اضويتها كافية لإنارة أجزاء من السوق.

.. حينها يترك كفي من جديد، وكل منا يعود إلى مساره وعوالمه..

- صباح الخير أستاذ، يرفع احد الباعة صوته.
- صباح الخير والسلامة ابني
- صبحكم الله بالخير أبو فرات، تنطلق التحية من دكان ثان.
- صبحكم الله بالخير حجي، يجيب الوالد رافعاً يده بالتحية وهو يواصل سيره

- " أبوفرات.. كبة تلوك لهل الحلك الذهب، خلي استفتح بيك رزقي اليوم! "
- " تشكرْ أبو بهية..صارْ.. لِفْ اثنين ودزهنْ للجريدة.. تفضل! "
- " خليها عليّه ابوفرات..الله يزيدك، هاي هواية انطيتني! "

- " لُطفكْ كان أزيَدْ.. هذا إستفتاحْ أبو بهية وانشالله بيها البركة. "

ننعطف على شارع المكتبات وتستمر تصابحات الخير،.. وتتزايد حين نستدير على شارع الرشيد، مقتربين من مقهى" حسن عجمي ".

يدخل المقهى دون أن يلتفت صوبي ويلقي التحايا، ويتوجه إلى ركنه المعهود قرب الزاوية اليمنى.

أقف عند المدخل الواسع ماسحاً ببصري تفاصيل المقهى..

.. على اليسار من المدخل، تصطف أباريق الشاي المختلفة الحجوم على رفوف متدرجة، ألوانها زاهية

ونقوشها في الغالب أوراد متباينة الأحجام، وأغصان مورقة، وأشكال نجمية ودائرية متداخلة..

على يمين الأباريق، هنالك سماور نحاسي ضخم يضيء بلمعانه، وآخر مماثل تماما له على اليسار... تصطف أمام أباريق الشاي ومن الجانبين سماورات اصغر، تتدرج في ارتفاعها.

في أرجاء المقهى تنتشر تخوت من خشب عاتم، بصفوف متقابلة، عدا تلك التي تستند على جدران المقهى

الثلاثة.

.. يغطي سطوح التخوت وظهورها سجاد إيراني.

أرضية المقهى مرصوفة بالطابوق الفرشي النظيف والمندّى دائما. أما إنارته فهي مما يسمح بالهدوء والتأمل، وقراءة الجرائد بالطبع، وهي تأتي من فوانيس كهربائية نحاسية مزخرفة تتدلى من أماكن عديدة من السقف.

يجلس " حسن عجمي " بجسمه الضخم الممتلئ وراء طاولة فوقها صوانٍ نحاسية مختلفة الأحجام، يضع فيها الخارجون حساباتهم من القطع المعدنية.

.. وجهه وادع بشوش على الدوام..

يستقبل حسن عجمي رواده بالتحايا ويودعهم، وهو جالس وراء طاولته، بالسلامة أو بمعية الله.. يقوم أحيانا لنجدة " الجايجي " العجوز، والمنشغل دائما في ملء أباريق الشاي بالماء المغلي من احد السماورين الضخمين، أو بدلق الشاي من إبريق لآخر، أو بغسل أقداح الشاي الصغيرة - الاستكانات - وصحونها، وبالطبع في ملئها وفق طلبات الزبائن، والتي ينادي مساعده صانع المقهى بها بصوت عالٍ منغّم : " واحد شاي واثنين حامض وواحد زهورات ".

.. صانع المقهى يقوم بإيصال الطلبات إلى رواد المقهى.. أما الماء فيدور به ساقٍ خاص يدور باستمرار بين التخوت حاملا دورق الماء في يمينه ومنغّماً رنات الأقداح العديدة، التي يحملها بيساره.

ما يسترعي اهتمامي، ليست كل هذه التفاصيل التي أحبها أكثر من أي مكان آخر ارتاده مع والدي....

.. الفرحة المشرقة دائما هي في ببغاوات حسن عجمي الثلاث بألوانها الصاخبة، ولغوها المدمدم ذي النبرة الجادة.. إنها تصدر أوامر، أو تلقي حكماً ومواعظ.. وأياً هي المفردات التي ترددها، فقد كانت دائماً تدمدم بها على عجل شديد.

.. أخطو بحذر وببعض الخجل من الحاج حسن.

.. يبتسم مشجعاً.. هويعلم كل العلم أنني اقترب لا منه، ولكن من ببغواته الثلاث.

ها هي الكبيرة منها، والتي يغلب اللون الأصفر على بقية ألوانها، تفلح ودون جهد، في تسلّق ذراعه اليسرى وتقف شامخة فوق كتفه..

.. " سلامُ عليكم..سلامُ عليكم " تدمدم العابثة الصفراء، عاقفة رأسها المتوّج الممدود تجاه الجانب الأيسر للحاج حسن.. تلوي رأسها أكثر لتظهر تساؤلها الواضح وانتظارها الملّح بعينها المدورة البراقة، والتي أصبحت تواجه عين الحاج اليسرى.

.. يرفع الحاج حسن يده اليسرى بهدوء ودون اكتراث ظاهر، مقدماً حبة يقطين بيضاء كبيرة.. تلتقطها الببغاء اللعوب بهدوء ودون عجلة وتبدأ في "تكريزها"، غير

ناسية أن تلقي بالقشور المنزوعة، ومن موضعها ذاك، إلى الصينية الموضوعة على المنضدة تحتها.

الببغاء الضاربة إلى خضرة عشبية براقة، تتناول بأناقة حبة من بضعة حبوب منثورة فوق المنضدة دون أن تلقي بالاً، لا إلى الحاج ولا غيره.

الثالثة منشغلة بحل معضلة كبيرة وهي تروح وتجيء بكبرياء ملكية وقورة فوق المنضدة، مطرقة برأسها ونافشة ريش عنقها.

.. يناولني الحاج بضع حبات بيض سمان..

.. اقترب من الصفراء اللعوب المنتصبة فوق الكتف اليسرى

.. تعقف رأسها و تدير لي عينها المدوّرة اليسرى متفحصة متسائلة.

.. تلمح الحبة البيضاء بين إصبعي:

.. " سلام ُعليكم..سلامُ عليكم " ترطن الببغاء.

اجلس على التخت بهدوء إلى جوار والدي المنشغل بقراءة إحدى الصحف.. بعد حين ينتبه إلى وجودي:

– " شَربتْ شيْ؟ "

.. أهز رأسي بالنفي.

– " أبو محمد! من فضلك!.. يخاطب ساقي الماء.. فد كَلاصْ شربت زبيب وصمونة بيها قيمر من أبو شربت الزبيب اللي يمكم، لحضرة الأفندي.. يشير إلي مبتسماً ".

.. بائع الجرائد الصباحية، والتي توزع إلى الباعة المتجولين عند الفجر، يمر بين تخوت زبائن المقهى حاملا جرائده بشكل تظهر فيه أسماؤها وعناوينها واضحة للجالسين على تخوت المقهى

.. يشتري البعض بضع صحف.

الغالبية من رواد المقهى هم من زبائن شخص آخر ممن يؤجر قراءة الصحف، يدور عليهم معيراً إياهم الصحيفة المطلوبة، ورافعا الجريدة التي أنهى الزبون قراءتها والتي يضعها جنبه على التخت، ليعيرها إلى زبون ثانٍ لم يطالعها بعد.

– " كبه يا الله..كبة ياالله، " تدمدم على عجل الببغاء الصفراء.

.. " كبة يا الله..كبة يا الله " تكررها ذات اللون الأخضر،..

..ويستمر سجال المناداة المنغم، حتى يتناهى من على رصيف الشارع، الذي يطل عليه المقهى، صوت جهوري مبحوح:

" كبة يا الله..كبة يا الله "

.. يظهر رجل ضخم متقدم في العمر يحمل طنجرة كبيرة فوق رأسه المعتمر بمخدة دائرية يستقر فوقها القدر الذي يتصاعد من تحت غطائه البخار..

- " كبة يا الله..كبة يا الله "، يكرر الرجل النداء، ويقف مستديراً بحذر ومواجهاً المقهى وروادها ويكرر نداءه:

" كبة يا الله..كبة يا الله ".

نعبر شارع الرشيد شبه الخالي من السيارات وعربات الخيل..نمر ببضعة محال كانت قد فتحت أبوابها.

..نتجاوز جامع " الحيدرخانة "، لنصل بعده بقليل إلى سلالم تنحدر إلى زقاق ضيق، تمتد على جانبيه دور متراصة، ذات أبواب ضخمة قديمة خشبية، بنقوش بارزة ومطارق نحاسية كبيرة.

بعد اجتياز بضعة بيوت، تظهر قطعة خشبية علقت فوق باب مفتوح بضلفتين..القطعة، مؤطرة بإطار متواضع، كتب عليها بخط جميل، " جريدة الرأي العام " وتحت هذا العنوان وبخط اصغر "، جريدة يومية سياسية ".

.. دخل الوالد، وبخطى واسعة اجتاز الممر الصغير ونصف الساحة المكشوفة، ناهباً درجات السلم إلى الدور الثاني.

.. لم ينتظر جواب تحيته الصباحية لعمال الطباعة في الدور الأول، وربما لم تصل إلى مسامعه وهو يقطع المسافة إلى غرفة تتوسط الجانب الأيمن من الدور الثاني وتشرف، عبر نوافذها العديدة الطويلة ذات القضبان الحديدية، على الدار كله بطابقيه.

في أقصى زاوية من الغرفة، يجلس شاب نحيف قصير وراء منضدة صغيرة،

واضعا إذنه لصق مذياع صغير، ومدونا على عجل ما يتنصت إليه..يهبّ الشاب عند دخول والدي.

– أهلا أستاذ.. صباح الخير، يسبق الشاب الوالد بتحيته.

– صباح الخير،.. ها سليم؟! التقطت شيئاً مهماً من الصبح؟ يقول والدي ذلك، دون أن يلتفت تجاه سليم.

.. سليم التكريتي يواصل الاستماع إلى الراديو الضخم ويخربش بسرعة كبيرة، بكفه القميئة الأصابع، حروفا وإشارات فوق قصاصات ورقية.

.. والدي منشغل بخلع سترته على عجل وتعليقها على ظهر كرسيه، وراء طاولة غير كبيرة، مزحومة بالصحف الصباحية، وقصاصات أوراق مطبوعة، وأجندة صغيرة، وأوراق مكتوبة بخط مختلف.

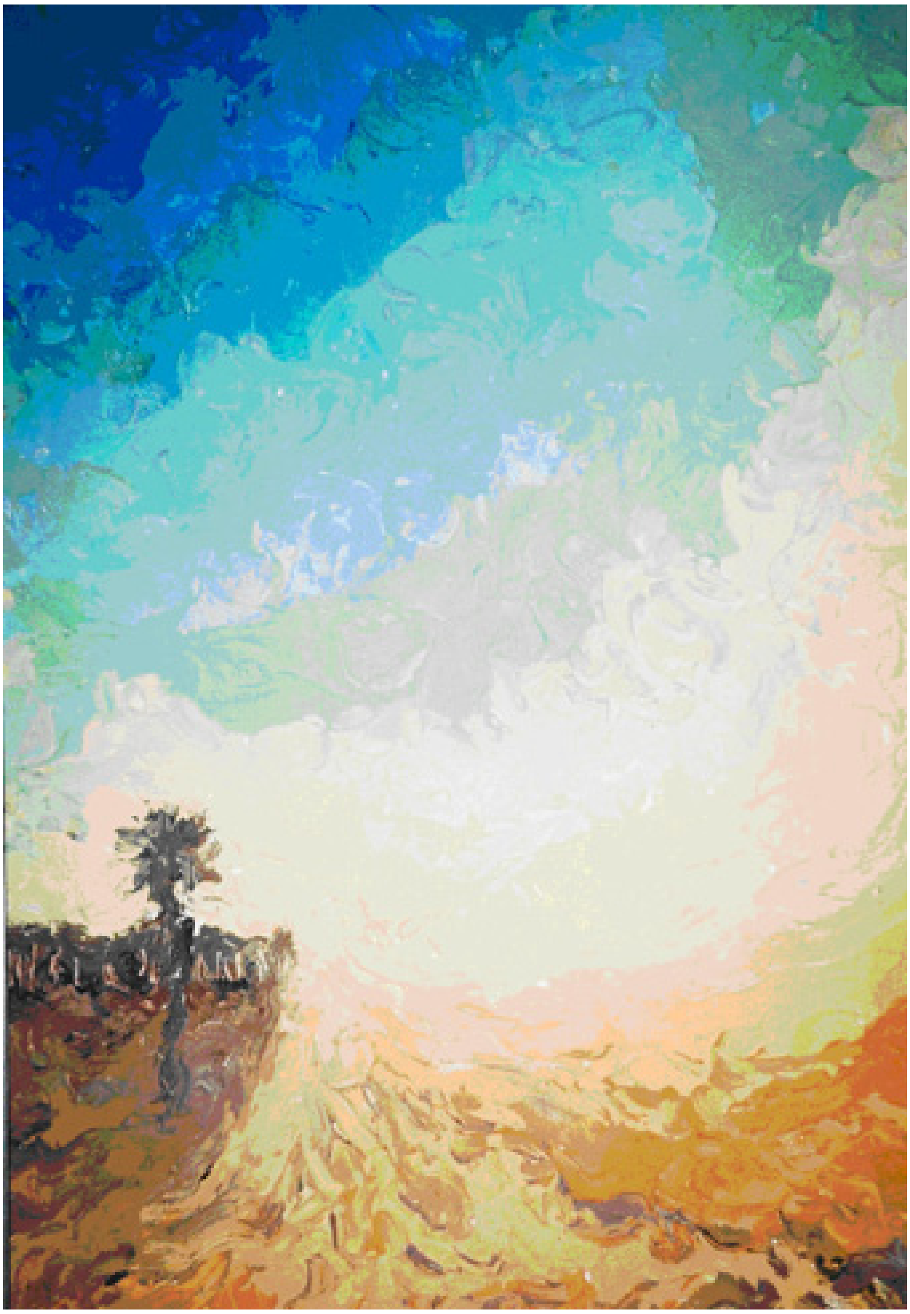

فلاح الجواهري – الراعي– غاليري الكوفة – معرض الجواهري – ٢٠٠٣

.. وهل يعود طائر السنونو؟!

لمصطفى البلاّم مهام عديدة توفيها رجولته الفتيه، وجسده ذو البنيان المرصوص، وأريحية أخلاقه. فهو يرعى مع ثلة صغيرة من البلامة نقل (العبرية) من شريعة الجعيفرفي جانب الكرخ، إلى شاطئ المجيدية المقابل للمستشفى المجيدي، نسبة إلى مُنشئه مجيد باشا والي بغداد ، والذي ألصق به لاحقاً - في الحقبة الملكية - لقب المستشفى الملكي، الذي لم يعترف به الناس.

في الأوقات الخالية من العبرية يهب مصطفى، والذي يناديه الجميع تحببا بمصطاف، لمساعدة هذا وذاك ممن يقطنون على جوانب شريعة النهر، فهنا تنور يُنصب، وسطح يُطيّن، وستارة سطح ترمم، ونقل أثاث ثقيل في بضعة بيوتات موسرة كبيت المدلل وبيت الريس، أو في منع سباحة صبوحي، وحيد أم صبوحي، الخياطة من الاقتراب من شريعة النهر أو ضفته الحجرية القريبة.

...الويل كل الويل لمن يتعرض لأيٍ من صبايا الطرف بالتحرش أو إلايذاء، فصرخة " وينك خوية مصطاف! " تكفي لأي بطل همام منهم، أن يختفي عن الطرف وعن عيون مصطاف وقبضته لأمد غير قصير.

لايقبل مصطاف أي اجر لقاء كل هذه الخدمات العابرة - غير اجر وظيفته كبلاّم - إلا من موسري المحلة وبعد إلحاح، وعلى أن تسمى " هدية الويلاد ".. مع إن الكل يعرف انه غير متزوج، وانه صريع غرام يائس لغنية الخبازة جارتنا ، والموعودة لابن عمها.

يفخر مصطاف أمام صحبه بأنه هو دون غيره " بلاّم عمي الجواهري "، والحقيقة إن هذه المهمة التي إصر أن يقوم بها دون مقابل، لولا حلفان الجواهري بأن يقبل الدينار، لا كأجر شهري ولكن كـ" هدية الويلاد ".

يعرف مصطفى مواعيد مغادرة الجواهري إلى الجريدة صباحاً فيكون في انتظاره لا في شريعة المنطقة ولكن على الضفة الترابية المتراكمة بكتل سدة النهر الحجرية -

المسناية – القديمة المنهارة والواقعة أسفل دارنا والتي كنا نصل إليها عبر بقايا سلم حجري خرب يكاد يتحدر بصورة عمودية إلى حافة النهر. كما ويعرف مواعيد عودته فيكون القارب في انتظاره على الشاطئ الرملي أمام (المجيدية) من جانب الكرخ وعلى مقربة من حدائق بيت المدفعي الغنّاء المنسرحة إلى ضفاف دجلة.

ينقل مصطاف سفر طاس غداء الجواهري من البيت إلى شاطئ المجيدية، حيث يكون في انتظار استلامه ساعي جريدة الرأي العام الوفي جاسم عريبي، الذي سمّى كل أبنائه وبناته على أسماء أولاد وبنات الجواهري تيمناً.

– "عمو مصطاف! عمو مصطاف!.. بطتي طارت!!، الله يخليك عمو مصطاف!"

كنت اصرخ بلوعة تقرب إلى البكاء وأنا أمد راسي من الشرفة المطلة على النهر متوجهاً بنداء الغوث إلى الشريعة المجاورة حيث ترسو القوارب.. وكم هي المرات التي طارت بها هرباً من ملاحقة أخي الصغير، أو شوقاً ممضاً إلى ماء النهر القريب، و تلك مهمة خطيرة، كانت عندي هي الأسمى، بين مهام الشهامة الأخرى لمصطاف.

في بعض الأماسي وبعد قيلولة تطول أو تقصر اعتماداً على انحسار فترة الحر الشديدة افرض نفسي في مرافقة والدي مثلما كنت افرضها في مغادرته المبكرة على الإقدام عند الفجر.

لم تكن متعة المرافقة إلى أجواء الجريدة والمطبعة هي وحدها ما كان يشدني، فهنالك ركوب القارب، الذي غالبا ما تحوّل العبور فيه إلى نزهة نهرية طويلة.

كان مثل هذا التحول يبدأ بعبارة : " ابني مصطاف لا تستعجل بينا اليوم.. خلي البلم ينحدر ويه الميّ! " حينها أكف عن العبث بيديّ في الماء واجلس صامتاً، سارحاً في ضفاف تصلح مشروعاً للسباحة، مخلياً له الجو لسباحة من نوع آخر في عوالمه الخاصة، وللدندنة والحداء دون تشويش.

يصمت مصطاف عن أي حديث نهري كان يستمتع به مع (عمه)، في أيام عبور أخرى، ويترك مجذافيه دون تحريك.

...غالباً ما يسرح هو الآخر. ولطالما اقتنصت متابعته الساهمة لبيت غنية الخبازة الطيني القريب من بيتنا والمشرف على النهر.

..كان الجواهري مسترخيا في دندنته عند مؤخرة القارب الوثيرة، مدونا من حين لآخر شفرته الخاصة على وريقات صغيرة، حين هبت نسمة عابثة - لعينة -، فاطارت عددا كبيرا منها إلى سطح النهر.

- دخيلك مصطاف أبو الغيرة!!! هب الجواهري منتفضا من مكانه والفزع واللوعة الحارقة آخذة بكل معالم وجهه. همّ بان يقفز إلى عمق النهر لولا انه أحجم في آخر لحظة عن ذلك ممسكا بحافة القارب ومحدقاً في الوريقات العائمة باسترخاء فوق صفحة النهر.

.. الجواهري لا يعرف العوم.

قبل أن يكرر نداء استغاثته كان مصطفى قد نضى عنه دشداشته وقفز إلى الماء...

حين حاولت أن أحذو حذوه امسك بمعصمي بغضب.

- " أ كُعد راحة!! "...

كانت خبرتي في العوم في بداياتها البسيطة الأولى.

حين وجد مصطاف أن فكرة الإمساك ببعض الوريقات الذائبة بللاً في قبضته، ومحاولة السباحة وراء أخريات، هي محاولة ليست مجدية بل وضارة أيضا، توقف.. فالوريقات التي كانت بيديه أصبحت نتفا مهروسة.

عاد واخذ بقاربه يتابعها مقترباً منها ببطء وهدوء، ثم ماداً صفيحة المجداف العريضة بأناة تحت كل وريقة ما زالت طافية.

.. يرفعها برفق، ثم يقرب نهاية المجداف تلك من الوالد، ليزيحها عن السطح الخشبي البليل بحذر وخوف شديدين.

.. كانت عيناه جاحظتين، وفمه فاغراً، وشعره قد نفر.

أنامله ترتجف، كلما أوشكت واقتربت من اكشرحواف الورقة الملتصقة أماناً لنزعها.

..." آخ يا بويه!! "... تنطلق من فمه بلوعة ممضة بين الحين والآخر كلما فشل في نزع واحدة منها فتمزقت بيده.

وضع الأوراق المنتشلة على ألواح الجلوس في القارب.

.. سا حت تلك الخربشات التي كان يخطها على عجل فوق تلك الوريقات فوق بعضها البعض، وأصبح العديد منها عبارة عن بقع زرقاء شافة متلاشية.

ألقى عليها من وقفته في منتصف القارب نظرة أسف وحيرة وانتظار..كان ينتظر أن تُبعث الحروف حيةً من جديد وتبرز من أعماق الورق المبلول في حال جفافه.

.. بقينا جميعا صامتين منتظرين رحمة الشمس اللافحة.

– "إيه د نيا!!..يلله هذا هو!"... ابتسم بحسرة، ثم بدأ برفع الوريقات التي جفّت وضمها إلى تلك السليمة التي لم تتطاير إلى النهر.

– "أشكرك ابني أبو الغيرة مصطفى، شوف جم عزيز عليّ خلصته من الغرق! ".

ينحدر القارب مع التيار بهدوء

.. لا يسأل مصطاف عن مكان الرسو المطلوب. الجميع... صامتون :

– " دنيا!! "، يطلقها الجواهري بين صمت وآخر.

– َطقْ، َطقْ، َطق، َطقْ، طقطقطقططقطقط

... يحيينا اللقلق بحرارة وانفعال من على قمة مئذنة (السراي) المعرش فوقها بجلال وشموخ.

...يفتر فم الجواهري عن ابتسامة عريضة... يوجه اللقلق تحية جديدة خاصة للجواهري، بطقطقة أعلى.

***

.. الزرقة الكثيفة الشديدة العتمة تتسرب من خلال القضبان الغليظة وتغرقني.

.. أعوم إلى السطح دون عناء يذكر.

أضواء نمنمية تسبح في زرقة داكنة مشَوشة الإنارة

.. في القعر فانوس صغير يتأرجح ويقترب..

.. الزرقة ليل... الأضواء النمنمية نجيمات تتباعد... وفانوس القعر نجمة الراعي.

.. وأنا افتح عينيّ بكسل..

مع حوار النقيق، اسمع همسات منغمّة.

.. ادفع الأغطية... اجلس على حافة السرير.. أرخي ساقيّ... أنصت.

.. النقيق يتواصل...الهمس ينقطع.

.. الهمس يعود غناء... حدواً.

.. اسرح!... في البعد متاهات.

ضبابُ زرقة يشف.

.. معالم أخيلة داكنة.

.. انهض... امسح عينيّ.

على حافة سياج خشبي، أتكئ.

اسند ذقني لراحة كفي.

.. زرقة الليل حبر يسيل...

ودجلة زرقتها ذائبة،

تتلاشى الحدود بين الستارة المنسدلة المرصّعة بالماسات الصغيرة المتلامعة والجوهرة الكبيرة الساقطة إلى القعر.

أزيز جنادب يتجاوب.

صوت ضربات مجذاف يقترب

أصوات الضربات تختلط بالنقيق، بالأضواء الذابلة.

انعكاسات متكسرة، تتحرك فوق الماء..

يعود الحادي لغنائه المهموس.

أتأمل الحادي منسرحا فوق شازلونج في الشرفة شبه الدائرية الممتدة داخل النهر، ومسرحّاً بصره في الأفق اللا محدود للظلمة.

.. يتوقف الحادي عن الغناء وينصت.

.. النقيق يتواصل وحوار الجنادب وأنغام ضربات المجداف.

* * *

فأنتَ مع الصبح شدوُ الرعاة   وحلمُ العذارى إذا الليلُ جا

فلاح الجواهري – ٢٠٠٧

الأنغام تقترب من حافة الشرفة.. تدور ساحة الدار المكشوفة.. تنساب صاعدةً فسحة الدور الثاني حيث أقف.

.. وجهي يَندى بنثّ قطرات ماء المجذاف.

أزيز الجنادب يدغدغ إذني.

أتيه في الحداء...والحادي.

الحداء صوتٌ، ولونٌ، وماءْ،

ودجلةَ في زرقةٍ ذائبةْ،

وهمسُ نجومٍ...،

وصرصارُ ليلٍ...،

ونجمةُ راعٍ،

وثوبُ سماءْ.

" فأنتَ مع الصبح شدوُ الرعاة

وحلم العذارى اذا الليل جا

.. وحلللـــم العذذذارييى إذذذا الليلُ ججاً "

.. ....

......

" سلامٌ على جاعلاااات النقيق..

سلامٌ على جاعلاااات النقيققققْ..

نقيق... الهوى

...الهوييىى..

بريدَ الهوى.

.. جاعلات النقيقْقق.
.. بريد الهوياآآ..

على الشاطئييين...على الشاطئيين.
بريدَ الهوى.
... بريدَ الهوياآ
سلامُ على جاعلاااات النقيقِ .. على الشاطئييين
سلامُ على جاعلات النقيقِ على الشاطئينِ بريدَ الهوى "

يستمر الحادي في الغناء منتقلا من صورة لأخرى وتختلط أنغامه بأنغام الجنادب ونقيق الضفادع وضربات المجداف وصيحة ديك مبشر بأن " بأنْ قد مضى الليلُ إلا إنى "..

ينهض الحدّاء فينقطع الغناء.. يتوجه إلى حافة الشرفة. يقف منصتا دون حراك ومجيلا بصره من آن لآخر، بين أضواء الجسر المترائي على اليمين، و موقع الشاطئ الرملي الذي يشّف بين ستارة الليل الكثيفة وحبرالنهر الداكن، ويساراً حيث يتمايز شعر سعالي النخيل المشتبك، كتلة مكثفة من ظلمة الليل.

..اسمع أنغام الحادي تتعالى برفق من جديد..

على الجسر ما انفكَ من جانبييه..
على الجسر ما انفكَ من جانبيه..
.. على الشاطئييين..
على الجسرِ ما انفكَ من جانبيه
أأأأأأأأ الهوى ى آآ
يتاحُ الهوى..
..الهوياآآ
يتيحُ الهوى..

من عيونِ المهآآآ

على الجسرِ ما انفكَ من جانبيهْ
يتيحُ الهوى..
من عيونِ المهاِ

على النخلْ
على النخلِ
ذي السعفاتِ الطوالْ

ويستمر الغناء وأستمر في السرحان في الظلمة وفي متابعة الحادي الذي يخترق الظلمة بقامته الفارهة والذي يُنظِّم بإيقاعاته سمفونية الفجر المقترب.

* * *

انتهى الصيف وانتهت مظاهر عديدة في دجلة... فالسطح المزرّق الرائق في وسطها عند الصباح والفضي المتلامع عند الظهيرة والمرآة البنفسجية المتوردة الصقيلة عند الغروب، بدأ بالعبوس...

انطفأ تلامع الحصى وقطع الأحجار والبقع الرملية بين الحواشي الغينية عند شاطئنا القريب، وبدأت ألوانها تحول وتبهت مع زحف المياه، التي أخذت تعتدي على حقنا المشروع من الجرف الترابي - الرملي، المرصع بكتل حجرية مطمورة من بقايا السدة العصملية - العثمانية - المنهارة، الطافحة ببقع عشبية مخضوضرة، وأشتات بنية، وكهيفات كحلية السواد.

مساحتنا الصغيرة تلك، ما بين سداد البيوت السابحة في المجرى النهري، وبين كتل حجرية ضخمة، تعوم في الصيف مثلما نعوم نحن.

.. كانت كتل الأحجار تسمح بكل كرم ومودة، أن نتسلق أكتافها ونرمي أنفسنا غائصين في العمق من مياهها المحيطة. على هذه المساحة، التي بدء زحف المياه

بتقليصها، كان يُسمح لنا، أو على الأقل يغض النظر عما تقوم به عصابة "الزعران"... شلتنا الصغيرة تلك.

.. الأصغر سنا من شلتنا، لها حقوق!

.. لها حق العوم عند الجرف، والتسابق إلى مبعدة مرمى حجر عن حافة النهر... لها حق التسلق فوق الكتلة الحجرية العائمة والغوص تحتها، وحق التصارع الودّي على الجرف الترابي الرملي، والذي غالبا ما تحول إلى عراك يرتفع فيه صوت الخاسر بالنحيب العالي أو بالشتائم الأعلى.

...هنا قد يتدخل احد الكبار من البيوتات القريبة المطلة أو من قاطني زقاق الحارة فيولي الفائز بالفرار إما سباحة إلى الشريعة المجاورة، اوتسلقا عبر الكتل الحجرية إلى زقاق آخر.

أما حقوق الأكبر من شلة " الزعران " فهي تتعدى ما نملكه نحن الأصغر، إلى المقامرة الصغيرة بلعبة الحفيرة والحصى أو الطرة كتبة أو المقامرة بلعب الورق وهذه أم الكبائر، المحفوفة بكثير من مخاطر تدخل الكبار، لذا كان لها وكر خاص، بين الكتل الحجرية الأكبر والاكثر خفاءً و أمنا.

لهذه المجموعة من الشلة، حق مقدس آخر كنا نحسدهم عليه، إلا وهو حق التشاتم بالأعضاء المحرم ذكرها علينا، بل وحق التحرش بهذه الصبية أو تلك ممن يحاولن أن يسبحن، بكامل ثيابهن، في ركن من هذا الجرف أو على الأقل إسماعهن عبارات "الغزل المكشوف " أو تأكيد ذلك الغزل بالكشف عن العضو المحرم... عن بعد.

.. مع اعتداء النهر التدريجي على جرفنا، تختفي وبالتدريج كل هذه الفعاليات.

.. تختفي من الشاطئ الرملي المقابل سوابيط السباحة المسيجة بالحصران، وتأتي قطعان الجاموس النهري مع رعاتها من النسوة والصبايا القادمات من وراء السدة.

.. في الليل، تشح أصوات الموالات وترجيعات الناي الحزينة.

تقّل الفوانيس المضاءة في القوارب السابحة في عتمة ليل دجلة العذ ب.

.. يقّل عدد القوارب المزاحمة لمصطاف في نقل العبرية إلى صوب المجيدية.

يهجر طائر السنونو - ببدلته السموكنج الكحلية - وصغاره، عشهم الطيني.

... يبني السنونو عشه على الطريقة السومرية من الطين والحلفاء ومواد لاصقة... زقورة مقلوبة، في إحدى زوايا الغرفة الباردة نصف المعتمة، والتي نتخذها مكانا لقيلولتنا في الصيف.

..يهجر اللقلق الوقور عشه الضخم، المحاك من الأعواد الطويلة، والذي يشبه سلال بائعي الخضرة، المتوّج لمنارة السراي المطلة على النهر.

مع ارتفاع منسوب المياه إلى مستوى يحتل فيه ساحلنا الصغير بالكامل، يصبح لون دجلة غرينيا كابياً، وهنا تقتصر السباحة على الرجال البالغين فقط.

تنقطع التحذيرات المتكررة لنا نحن الصغار من مخاطر النهر.

.. يقل عزف فرق موسيقى الآلات النحاسية والطبل والدفوف عند شريعتنا ، لتشنيف إسماع غرقى الأعماق، الرافضين لمغادرة مواقعهم لأكثر من ثلاثة أيام، وترغيبهم بالموسيقى الصاخبة، في أن يطفوا على سطح دجلة.. يختفي نقيق الضفادع ويشح أزيز الجنادب وصرصار الليل المضيء.

.. يقل سهر الجواهري على الشرفة العائمة في النهر وتنتقل أصوات دندنته الليلية إلى غرفة مطلة.

تُبد ل الاطواف المتحدرة، المحملة بالبطيخ و الرقي والمتعرضة أبدا إلى غزواتنا في عرض النهر، بأطواف من عدة طبقات متقاطعة من جذوع أشجار القوّق.

.. نبدأ بالتراكض عند التنقل بين غرف الدار رافعين أطرافاً من ثيابنا فوق رؤوسنا بين آن وآن.

.. تظهر الأوحال في الزقاق.

تُغمر الكتل الحجرية الكبيرة التي كنا نتسلقها في النهر تماما وتدور فوقها دوامات مسرعة تلّف حولها أوراق أشجار خريفية وأعواد متيبّسة ونثار نباتات حبيبية سودا ء.

.. مصطاف يرسو بقاربه كل مساء فوق جرفنا المغمور القريب من باب الدار لنقل (عمه الجواهري). بدلا من شريعة الجعيفر التي كان علينا أن نلتف بعد عبور الزقاق، قاطعين بضع عشرات من الخطوات وصولا إليها.

.. يندر السماح لي بمرافقة والدي في عبور- النزهة النهرية - إلا بعد إلحاح وتوسل، أو باستباقه في النزول إلى قارب مصطاف والجلوس في انتظاره عند مؤخرة القارب.

الجواهري ينزل إلى القارب على السلالم الحجرية العتيقة الخربة بحذر اشد.

.. يوجه إلي نظرات غضب مفتعل بين لحظات متابعة عينيه لموطئ قدمه باتجاه القارب.

حالما يستقر آمنا داخل حوض القارب، يشدّ رأسه إلى صدره، ينظر إلي، يهز رأسه بحيرة، ثم يبتسم حال اقترابه من مكاني

..يجلس إلى جانبي.

ينحدر القارب بسرعة أكبر.

..عند المرور بعش اللقلق وسلة خضاره الفارغة الموحشة :

- أبتاه، إلى أين يغادرنا اللقلق وطائر السنونو؟

- إلى أماكن بعيدة قصية.

- وهل سيعودان؟

يصمت بذهول... يسهم ببصره ابعد بكثير من أطواق الجسر المقترب.

-أيه دنيا!!

* * *

" سلامٌ على هضباتِ العراقِ
وشَطيهِ والجُرفِ والمُنحنى
على النَخلِ ذي السَعفاتِ الطوالِ
على سَيدِ الشجرِ المُقتنى
ودجلةَ إذ فارَ آذيّها
كما حُمّ ذو حَرَدٍ فاعتلى
ودجلةَ تمشي على هَونِها

وتمشي رُخاءً عليها الصَبا
ودجلةَ لهوُ الصَبايا المِلاحْ
تخوضُ منها بماءٍ صَرى
تُريكَ العراقيَ في الحالتيـ
ـن يُسرفُ في شحهِ والـنَدى
سلامٌ على قمرٍ فوقَها
عليها هَفا واليها رَنا
على الجسرِ ما انفكّ من جانبيه
يُتيحُ الهوى من عيونِ المَها
سلامٌ على جاعلاتِ الـنَقيق
على الشاطئينِ بريدَ الهوى
تـَقافزُ كالجنِ بين الصخور
وتندسُّ تحتَ مَهيلِ النَقا "

الجواهري

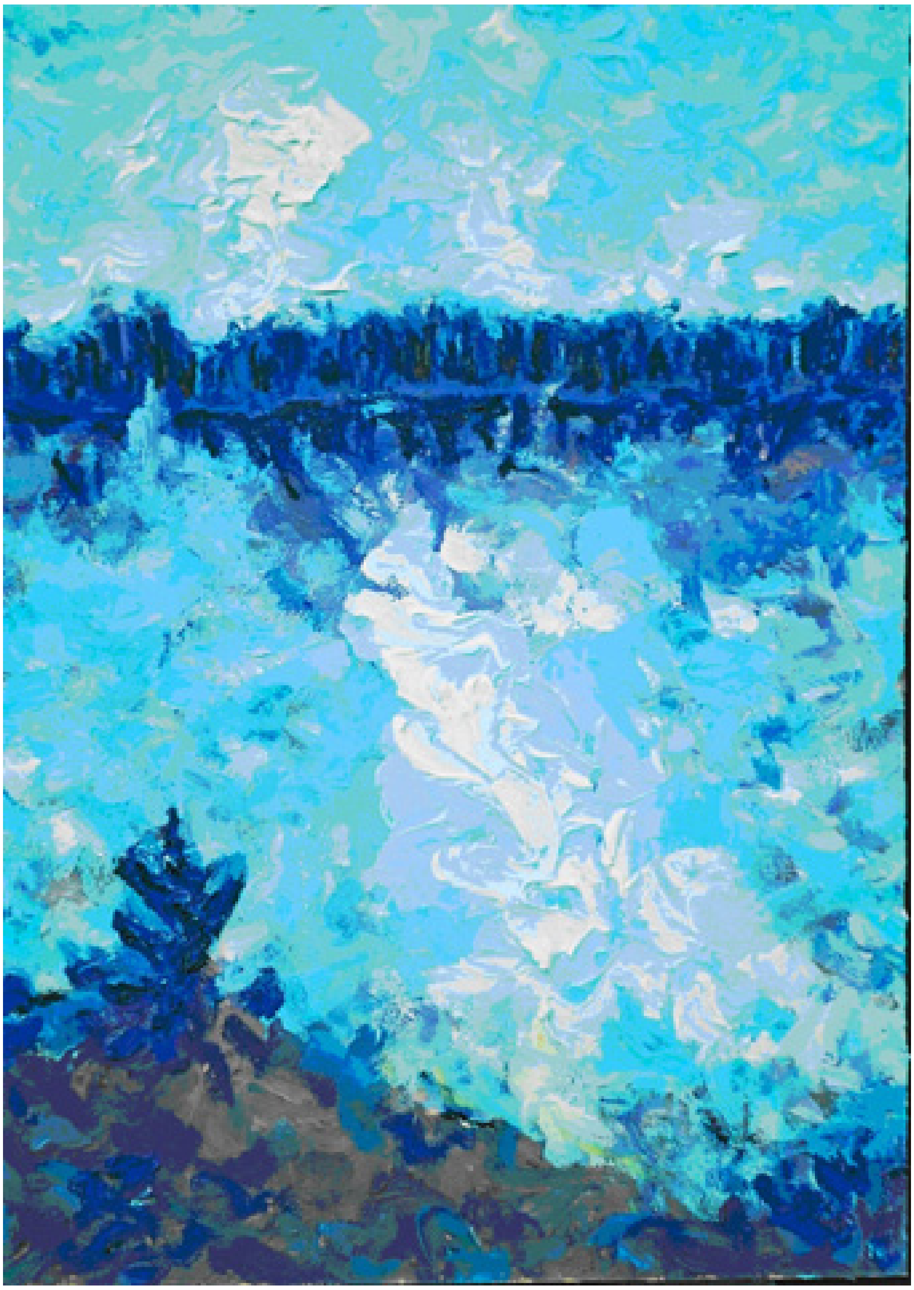

دجلة الخير ٢٠٠٢

فلاح الجواهري ...(معرض الجواهري) لندن غاليري الكوفة ٢٠٠٣

التحدي

تتزايد الأمطار وتعصف رياح الخريف بهدير أكثر صخبا... تختلط بوشوشة سعف غابات النخيل القريبة، التي يتلامح كشعور سعال خضراء مزرورقة منثورة في صخب وفوضى كلما شقّت سيوف البرق ثوب الفضاء الداجي.

.. يصبح لدجلة لغط و لغو منغّم مسموع وحوار مع الجروف الحجرية.

.. الجواهري ينزل الجرف الحجري بحذر اكبر.

... مصطاف يجذّف بشدة وبخط مائل ضد التيار كي يصل بـ(عمه) لا إلى النقطة المعتادة من الشاطئ المقابل، بل بعيدا عند شريعة البرلمان... بوجود تيار اقوي يرسو عند شريعة سوق السراي.

تعلو دجلة... تصبح طميا ذائبا.

...يبتعد السفح المقابل وتعوم بناية البرلمان.

ساحة القشلة - السراي -، شاطئ دجلة الحجري تصارع الغرق.

يقترب الجسر في سباحته الجاهدة ضد التيار.

... يقضم النهر قطعة كبيرة من زقاقنا.

ينزلق باب جارنا في الهوة.

تنحدر صرخة أمينة... تلتف مع دوامات النهر... تضيع مع هدير الانهيار.

يصبح بيتنا شبه جزيرة.

... ينحدر مصطاف بقاربه مبتعدا مع التيار الصاخب وهو يقوي العزائم بصوته المتعالي والمبتعد والمتردد كالصدى...

- " رايح لجريدة عمي الجواهري أجيب النِشدة "..." ما تخافون..ما تخـــ.. و.و.ن ".

نراقب من على شرفة جزيرتنا السابحة بسرعة مخيفة باتجاه معاكس لتيار دجلة، قارب مصطاف البعيد وهو يكافح للوصول إلى ساحة السراي.

... يأتي المدد عند المساء.

الجواهري يتقدم مجموعة من العمال تنقل من شاحنات أمانة العاصمة المتوقفة عند طرف الزقاق، على عربات، أكواماً من الحجارة والصخور.

..ترتفع الهلاهل من نسوة الزقاق.

يبدأ بردم الهوة...العمل يطول، تزحف الظلمة على زقاقنا.

تشجر غنية تنورها فضيوف الزقاق كثيرون... نسوة الزقاق الأخريات يتنادين :

- " وجيهة أنت حضّري قدر شوربة العدس ، وآني عليَّ احضّر كباب العروكَ. تنادي عمّة سنية "

- " وآني راح اطبخ قدر تبسي بيتنجان " تجيبهما أم نجاح من جانب الهوة الآخر.

يهب شباب زقاقنا والزقاق المجاور لمساعدة عمال أمانة العاصمة ويستمر العمل لعدة ساعات على ضوء

فوانيس اللوكس.

رُدمت الحفرة بالصخور والأحجار والأتربة ودكت دكا جيدا ,ووضعت فوق الحفرة المردومة ألواح خشبية سميكة. تنحى العمال وشباب المحلة جانبا ,وجلسوا متكئين بظهورهم على جدران بيوت الزقاق.

سارع صبيان مقهى الجعيفر بفرش حصران تخوت المقهى في الفضوة نصف المدورة الوسيعة من الزقاق والمطلة عل النهر ,وعلقت الفوانيس على أعمدة خشبية غرزت في أركان المكان، وبدأت صواني الأطعمة تُتناقل من الأبواب المشرعة لبيوت الزقاق, واستمر شجر تنور غنية الخبازة وتلامع السنة لهبه والشرر المتطاير عالياً يلقي وهجاً يلمظ ويخبو فوق أجزاء من الساحة والجرف القريب.

أتت صواني أطعمة إضافية من الزقاق المجاور من بيت زنوبة وحسن الحمامجي ...صينيتا بيت المدلل و(الريس) من خارج الزقاق تحملان على رأس خادميهما كما يحمل المحمل وقد غطيتا بشراشف أنيقة.

أثناء تناول العمال وشباب المحلة طعام وليمتهم يقوم صبية المقهى القريب ونحن - أولاد زقاقنا- وبضعة أفراد من شبابه بمناولة أقداح الماء ونقل صحون الأطعمة من طرف سفرة إلى آخر.

يبدأ حسون الجايجي صاحب المقهى وصبيته، حال رفع صحون الأطعمة الفارغة، بتوزيع ادوار أقداح الشاي - الاستكانات -، متناوبين بسرعة في حمل صواني الشاي من وإلى المقهى غير البعيد.

تُلف الاطعمة الكثيرة المتبقية في لفائف ورزم بعدد عمال امانة العاصمة وتوزع عليهم.

يقوم الجواهري وأبو فتاح (حسن السهيل) بتوزيع (الاكراميات) على العمال مصحوبة بكلمات الشكر منهما والدعاء بالصحة وطول العمر من الطرف الآخر.

* * *

الإعدادات جارية لا في البيت وحده، بل وحتى في الفسحة الوسيعة المشرفة على الزقاق.

كل نسوة البيت وبضع من نسوة الزقاق منهمكات في كنس وغسل غرف البيت وساحته الكبيرة والشرفة والفضوتين المطلتين عليهما من الدور الثاني... جارنا كرومي - اخو أمينة - يمد أسلاكاً كهربائية ملظومة بعشرات المصابيح الملونة فوق ساحة البيت، ومن أطراف السطح، ومن على الشرفة النهرية... يجربها فتتوهج وتنطفئ وتتوهج... يجري تجارب على السماعات المركزة في زوايا عديدة من الدار وينقر علي الميكروفون فيحدث جلبة وصفيراً

- واحد... اثنين... الو، الو... واحد اثنين ثلاثة الصفير يشتد ودجلة ترجّع صداه.

ترصف عشرات الكراسي في وسط باحة الدار، وفي الشرفة، وفي الساحتين المطلتين من الدور الثاني.

يبدأ جلب المشروبات والأقداح وقوالب الثلج وتُدخل في الغرفة نصف المعتمة - تلك التي هجرها طائر السنونو.

.. تنظف فسحة الزقاق الوسيعة وتنصب أعمدة لمصابيح اللوكس ... تنصب أثافي القدور وتهيأ أكوام الحطب

.. عند المساء تأتي القدور الضخمة وأكياس الرز وصفائح الدهن.
يتجمع الصبية.
.. تقاوم الخراف جزاريها ببسالة وهي تسحب من قرونها
.. ينتصر الجزارون فيطرحوها أرضا.
تقاوم بعنف شدّ قوائمها.
.. يطأ الجزار الجسد الذي يفشل في محاولة يائسة للنهوض.
.. يمسك بقرنيه ويسحب رأسه إلى الوراء بعنف... تجحظ عيناه... في العينين حيرة، فيهما تساؤل؟
.. يطلق أشد وآخر ثغاء.
- بسسسسم الله !!. بسم الله
بثقة يحز و بابتسامة.
.. تتفجر نافورة الدم... يصيب رشاشها أطفالاً... في الأحداق رعب ودم!!!
.. صفير يأز... هواء مشفوط عبر أنابيب زجاجية مفرّغة.
.. شخير حاد متواصل...شخير متقطع
.. يرفس بقوائمه المشدودة
.. تدور الضحية...تنتفض... مرات، تنتفض... و تهمد.
.. يمسح الجزار سكينه
بثوب الضحية...
.. يقف شامخا.
... يغادر الأطفال الساحة بانكسار.

يحل الليل ويتبهرج الزقاق بالأضوية وبأطفاله في حللهم الملونة ,وبنيران المواقد تحت القدور وبشرر وألهبة نيران تنور غنية الخبازة.. تقوم غنية أمامه لساعات... ضيوف الجواهري ضيوفها، وطهور عبودي غداً في دار صديقه الأخلص فلاح، في بيت الجواهري مع نجاح وكفاح، ومع نوري ابن الحمامجي وصبحي ابن (أم صبحي الخياطة) وثلاثة أطفال آخرين من أزقة مجاورة.

.. كان حق الجيرة يمتد ابعد من حدود زقاقنا... زقاق الجواهري.

***

تواصل دجلة تمرّدها وغضبها ويتلوى الطمي السيال في مساره السريع وتزداد سعة الدوامات قرب الجروف

ساحبة إلى أعماق النهر الصاخب أكواما من القش القريب الطافي وكسر السعف وأعواد أغصان متيبسة.

يتزايد ارتفاع أكياس الأتربة على حوافي الزقاق يوما بعد يوم.

تظهر جذوع نخل وتتزايد الأغصان العائمة ومن حين لآخر يهب الجميع متطاولين بأعناقهم فوق سياج الشرفة، متابعين قطعا من أثاث خشبي بالٍ وصناديق وحصران وسيعة من قصب البردي... على مبعدة كاروك رضيع يعوم.... لقد كسرت السدة وجرف النهر أمتعة أكواخ وصرائف سكان من ورائها.

يعود الجواهري إلى موقعه السابق للدندنة والحداء... وذرع الشرفة السابحة بانفعال تارة أو الاتكاء على سياجها في سياحة تأمل طويل صامت.

يصل مستوى سطح دجلة شبراً واحداً تحت الشرفة... نمد أقدامنا ضاربين صفحة الطمي المتحدر... نخرجها عالقة بأعواد القش المبلول.

الجو رائق وشمس نيسان الصباحية عذبة بأنسام عنفوان ربيع دجلة... الجواهري بكامل أناقته يذرع الشرفة مدندنا بتحدٍ مرِح.

.. يقف برهة متأملا بحر الطمي العريض المسرع.

فجأة يتجه إلى جانب الشرفة المطل على الشريعة المجاورة وينادي على مصطاف.

يهرع الآخر بقاربه مستجيبا.

يربط مصطاف القارب المترجرج بسياج الشرفة ويقف منتظراً في حوض قاربه.

ينحني الجواهري عليه من فوق سياج الشرفة ويحاوره متلفتا بحذر وتحد ٍ صوب ساحة البيت وغرفه.

يصمت مصطاف.. يعيد الجواهري انحناءته و حواره بإلحاح ملحوظ.

أرقب حركات التحاور الأصم من غرفتي المطلة على النهر الهائج.

... غير معقول.. ما يجري لا يمكن تصديقه حتى لي أنا.

اصرخ منبها خالتي والآخرين... أكرر النداء مستغيثا!.

لم أكمل النداء الثاني، إلا وكان الجواهري قد تخطى بساقيه الطويلتين سياج الشرفة الحديدي ليقف على حافتها من الجانب الآخر.

... يهبط إلى حوض القارب مستعينا بذراع مصطاف الممدودة.

ينحني ممسكا بحافة مصاطب الجلوس في القارب..

يجلس منتشيا ويرفع رأسه عاليا مجيلاً بصره بأبعاد النهر الطامي الصاخب.

يترك مصطاف القارب لينحدر مع التيار المندفع قبل أن يبدأ بتوجيه قيدومه بمجذافيه صوب الجهة المقصودة.

.. تهرول خالتي فزعة صارخة ويهرول معها من في البيت تجاه الشرفة المطلة على النهر.

يمسك الجميع بسياج الشرفة الحديدي ويمدّون أبصارهم صوب القارب المتباعد بسرعة كبيرة وسط تيارات النهر الغاضب المندفعة بصخب.

فلاح الجواهري – المقام ٧- ٢٠٠٧

أم عزيز

تـعــــــالى المجـــــــد ُ يا قـــــــفص َ العظام َ
وبــورك َ فــي رحــــــــــــيلــك َ والمـقــــــام َ
وبــورك ذلــك الـعَـــــش َ المـُـضـــــــــــوّي
بـوحــــــشـتـــــه . .وبـالـغـــــــصص الـدوامي
تـعــــــــــالى المــجـــــــد يـا أمَّ الـرزايــــا
تـَمــــــخّض عـن جــــبـــــابــرة ضـــــخـام َ
تملّــى القـــــــبـــــر منهــــــا أيّ ُ عطر ً
ووجــه ُ الأرض أيُ فــــــــتـيً هـُمـــــــــام َ
وهبـتِ الـشـــــــروة َ الـكـبـــــرى دمــــاءً
وروحـــــــــــاً وارتــكـنـت َ إلـى حـُـطـامِ
وأبـْت كــــمــــا يؤوب الـنســـــرُ هِيــضَتْ
قــــــوادِمـُـه بـعــــــاصـفـــــةٍ غـُـرام َ
فــــيـــا شـــمـــسـي إذا غـــامـت حــيــاتي
نـشـــــدتـك َ ضــــارعــاً ألا تـُـغـــــامي
ويـــا مـــكـــفــــوفــــةً عــن كــلِّ ضُــــر ً
نــشـــــــــــدتُـكِ أن تــكـفـّي عــن مــلامــي
فـليـسَ يُـطـيـقُ ســـــهـمـــــاً مـــــثـلَ هـذا
فـــــــــؤادي وهــو مـُــرتـكـزُ الـســـــهـامِ

تناهى الصوت مع رجعه عبر النفق الضيق الطويل والذي ينتهي بكوة من الضوء الكابي الآتي عبر الممر الاسطواني الضيق المنحوت في حجر السن والذي يربط سرداب أبي موسى الطرمّاح بسرداب أم عزيز.

- ها حميدة خير؟ تساءل صوت حبابتي المرتجف.

- أم محمد علي.. لك طولة العمر!

وكانت شهقة حزن عميقة أعقبها صمت قصير تلاه نشيج مكتوم متقطع.

نهضت أم عزيز متكئة بأناة على يديها وتلفعت بشالها وهي تكرر بهمس" لا حول ولا قوة إلا بالله..لا حول ولا قوة إلا بالله.. لك فيها إرادة يا إلهي"!

صعدت أم عزيز سلالم السرداب التحتاني المرتفعة مستعينة بكفيها وهي تلهث.

كنت أتابع حركاتها من مكاني وأنا أتخوف أن تتدحرج ويتداعى في أية لحظة ذلك الهيكل الضامر.. تنفست الصعداء حين أيقنت أنها ارتقت السلالم بأمان.

كنت وأنا ملتحف بغطائي أكاد ارتعد خوفا من الصمت الذي خلفته وراءها ومن مخايل جدث أم محمد علي المسجى أمامي الآن ومن ظلال عزرائيل الذي يسحب بشباكه باتجاه نفق البئر المؤدي إلى سرداب أم كامل..نفق وسيع داجي الظلمة، اعرف انه ينتهي بالبئر المشتركة بين سردابينا.. كنا نتنادى عبرها أنا ورشاد ونزحف لنطل عبر كوة البئر المشتركة احدنا على الأخر، وحين لا يكون هنالك رقيب علينا كنت أتسلق إلى فوهة البئر في دارهم بالاستناد على الساقين والذراعين المتباعدتين على وسعهما وكفّيهما المستندة على أحجار جدار البئر الاسطواني..

.. حين يمسك بنا والده أبو كامل أو عمه إسحاق عند إتمام اللعبة الخطرة هذه، وبعد الانتظار حتى اقفز سالماً وقفزي من فوهة البئر إلى باحة دارهم، لم أكن أنا من ينال شرف العلقة الساخنة، بل رشاد الذي لم تتعد مشاركته أكثر من المشاهدة والتشجيع .. أن يعاقب ذلك الجار الصغير القادم من بغداد، ومدلّل (الحبابة) أم عزيز فذلك له عواقبه، حتى لو كان العقاب عادلاً وضرورياً.

.. نفق البئر الحالك بدأ يمتلئ بخيالات الأشباح الوامضة وهمسها الموشوش..

.. لم استطع الصمود طويلا.. قفزت ناهبا سلالم السرداب التحتاني المرتفعة، ومن ثم وبسرعة اكبر سلالم السرداب الفوقاني لاستقبل ضوء الشمس الباهر ونارها الحارقة ولفح الجدران الحجرية بجذل وباشراقة من السعادة لا تضاهيها إلا سعادة استقبال شواطئ دجلة الرملية في هروبات الظهيرة في بغداد حين يهجع الأهل في قيلولة تموز.

.. ها قد اختفى الجدث المسجى بوجهه الذاوي المصفر والحدقتين الواسعتين الناطتين عن محجريهما.. وحتى وأنا أجيل البصر ماسحاً ببصري أركان البيت السابح في الضوء باستقصاء حذر، لا أجد أثرا لا لعزرائيل ولا لشباكه.. يبدو انه يفضل انجاز مهمته في الأقبية والأنفاق العتمة أو في ظلمة الليل حينما يهجع الجميع وتنغلق عيونهم.

..صمت ساخن في كل زوايا الحوش الحجري الواسع لم يكن يقطعه وأنا أقرفص في إحدى زواياه الظليلة، إلا أزيز ذبابة لجوج اوهديل احد أزواج الحمام المعشش فوق تيجان أعمدة الدار الخشبية الشامخة.

افترش الأرضية الحجرية فتسري حرارة الأرض الساخنة في جسدي ويسري معها خدر لذيذ مبلل بالعرق وتهب نسمة من زاوية لا مرئية فتنتعش الروح.

.. ما أحلى التحرر من أسار القبر العميق الرطب البارد المظلم.

أرقب الحاشية السفلية لضوء الشمس الساقط على الجدار. حاشية الضوء قد تجاوزت شبابيك المطبخ وغرفة الضيوف، الساعة إذا قد أوشكت على الخامسة... لم يبق إلا القليل لصعودها.

ها أنا اسمع وقع قبقابها يتصاعد مقتربا على السلالم المؤدية إلى السرداب التحتاني..

.. ها هي تقف لاقطةً أنفاسها وعلى وجهها معالم خدر ورضى.. تتوجه وتأخذ خرطوم الماء لتبدأ برش جسدها أولا بالماء، ثم أرضية الحوش المبلط بالطابوق الفرشي العريض.. تهب نسمات ساخنة مضمّخة بعبير التراب المندّى.

.. هذه الرائحة، هذا العطر الكوني.. رائحة الأرض البكر.. رائحة البادية بعد قطرات المزنة العابرة.

.. بين الحين والحين كانت ترش نفسها برشقات من الماء فيلتصق الثوب الرقيق من جديد على تفاصيل الجسد الغض الملفوف.

.. اسمع همساً ووشوشة وصريراً وضحكات متقطعة مكبوتة.

.. أزحف الدرجات العالية من سرداب السن والمؤدية إلى السرداب العلوي كالقط الحذر مستعيناً بكفيّ..

تهب نسمة دافئة وينزاح جانب من الظلمة عبر كوى النور المحزمة بالقضبان.. أنتظر.. .. جسدي يرتعش بالترقب وخشية كشفي متلصصاً وأنا قابع تحت آخر درجة، كاتما أنفاسي.

لا يطول انتظاري.. النغمات تتجاوب من جديد بوضوح أكثر..

.. ممانعة متراخية.. كركرات خفيفة.. صمت.. تأوهات .. فحيح .. أخشاب التخت القديم تصرّ.. بفوضى يتسارع مزيج الأصوات.. يتصاعد.. ينتظم.

نحيب خافت متقطّع.. لا استطيع فهم سبب بكائها!.. "

تقترب مني.

ترشّ نفسها برشقة ماء أخرى..

أتلصص من الزاوية التي امتّد عليها بتلذذ ,وأمعن النظر ملياً في خطوط وزوايا الجسد المترائي وراء الثوب الخفيف المبلول الملتصق بالجسم الملفوف الغض.

.. تسري في الأعماق هزة نشوة يرتجف لها الجسد.

كانت في السادسة عشرة من عمرها..كنت في العاشرة.

تتوقف قليلا عن الرش وتنظر بسكينة وبابتسامة حلوة إلي

- ها قد هربتَ مرة أخرى مما تسميه القبر.

عادت ترش أرضية الدار.

* * *

أصعد إلى السطح قبل أن يصعد الآخرون.. امسك بحافة سياج الطابوق.. استعين بذراعي لأرفع نفسي وأطل.. تجابهني القبة الذهبية المتلامعة.. حين استمر في التحديق أرى القبة على مقربة شديدة من مكاني.

.. أحتضن هالة الضوء الباهرة فوق هامة القبة.. هوب! ها أنا انتقل إليه من مكاني بيسر كبير.. أمد رجليّ حول قاعدة الهالة العريضة.. لاخوف علي فالإمام يحميني، ولن التصق بقبته دون فكاك، مثلما حصل مع اللص الذي تسلق القبة وحاول

أن يسرق ألواحا ذهبية من سطحها.. ألصقه الإمام على القبة مثل ذبابة على صحن دبق..

أنظر إلى أطراف النجف من هذا العلو الشاهق.. أرى بحر النجف يتلامع بالضوء القمري.... نتسابق إلى حواشيه الرملية الندية منزلقين من تلال الحويش المشرفة عليه.. ننحدر راكضين.. يتعثر احدنا.. يتدحرج ككرة من خرق ملفوفة.. مسار انحداره يثير أتربة وأحجارا رملية صغيرة.. نضحك ساخرين مهرجين حين تتكشف مؤخرته من وراء دشداشته المنسحبة لأعلى جسده..

ألتف حول العمود النيّر وأجابه وادي السلام من وراء سور النجف.

.. آلاف.. هذه ملايين القبور الصغيرة تظهر ظلالها في الضوء الفضي المنسكب من قرص السماء اللامع.. تظهر هنا وهناك العديد من قصور المقابر القرميدية الخضراء بقبابها بين حشود القبور الصغيرة.. هولاء موتى أغنياء أو كانوا يعتمرون عمائم ضخمة سوداء أو بيضاء.. تظهر أشباحهم من بين ظلال وادي الموت الوسيع.. أزيح وجهي جانباً.

.. أتمسك بهالة النور بقوة وأستدير من جديد لأواجه السوق الكبير المتلألئ بالأضواء الملونة.. حشود الناس ما زالت منشغلة في دخولها إليه أو خروجها منه، أو وقوفها أمام باعة المسابح والأدعية ودكاكين أقمشة الهند وبلاد العجم وذهب الأتراك.. سلاسل جميلة من الليرات المجيدية تعلق بين أحجار ملونة زاهية من عقيق ومرجان وشذر وفيروز في واجهات دكاكين الصاغة الصغيرة.. تبهرني النقوش في الحلي المعلقة.. أواصل سيري مرحاً لأصل إلى مبتغاي في السوق..بائع الحلاوة الهندية..

أتأمل العلب المعدنية المفتوحة مختلفة الأحجام.. الكبيرة محلاة بأحجار الفستق الكريمة.. متوسطة الحجم تسبح فوق سطحها سفن اللوز بلون الخشب الهندي.. العلب الصغيرة تنغرز فيها قباب البندق المقدسة..

اتلمظ شفتيّ بلساني قليلا قبل أن اختار علبة الحجم الأوسط.. أمد كفي إلى جيب الدشداشة الجانبي الطويل وأخرج ليرة مجيدية كاملة.. اشتري كل العلب الموجودة.. أستدير.

.. ها انذا أواجه باب القبلة الآن.. حشد من أصحاب العقالات البيضاء بعباءات الجز الرهيفة تزحف من ورائهم.. البعض يمشي بهيبة الشيوخ.. انتفاخة السلاطين في صدورهم ومسابح الكهرمان تتداور بين أصابعهم.. خلفهم تنعب نسوة بعباءات ولفائف رأس كبيرة سوداء.. بعضها ملطخ بالطين.. واحدة تتقدمهن تواجههن بحركات راقصة هازجة أنها تبزخ.. الأخريات يجبنها بلطم صدورهن.. صدورهن محمرة تكاد تدمى.

.. " يبووو يبووو.. خويه كَوم، سويلي فرد جارة، شلون تموت وأنت من أهل العمارة؟!..يبووو.. " .. نعيب ذو نبرة أعلى.

.. الكل من مشايخ ونسوة تسير وراء ثلاثة من العمائم البيضاء الضخمة.

.. العمائم البيضاء بلحاها الطويلة الفضية تهتز بوقار في مسارها وراء النعش المغطى بمفرش مطرّز إيراني أخضر.

.. النعش يتمايل طائرا فوق اكف حامليه.

.. " لا إله إلا الله.. هو الحي الباقي ..لا إله.. " يردد احد السادة من سدنة الحضرة العلوية بصوت منغّم وهو يمشي بوقار أمام النعش.

.. القي ببصري إلى الأسفل.

.. ساحة الصحن مبهرجة بآلاف الأضواء.. يمتد مئات الزوّار نائمين فوق أرضية الصحن المرمرية ملتفين بعباءاتهم بعد أن أكملوا مسيرتهم المنهكة لأيام قادمين من أهوار وقرى الجنوب.

.. ها نحن مجموعة صغيرة وراء كاظم (نني) نسير بحذر بين أجساد النائمين وأمتعتهم.. نصل إلى نقطة وسط في الساحة الوسيعة.. يطلق "نني" هرّه الضخم المربوط بسلسلة طويلة من العلب المعدنية الفارغة بعد أن يقرص ذيله قرصة لاسعة.. يموء الهرّ بأذى وغضب قبل أن ينطلق بين الحشود النائمة فزعا من لسع القرصة ومن ضجيج القرقعة المعدنية الصاخبة ورائه.. يتقافز العشرات مذعورين من إغفاءتهم، غير عارفين بمكان الزلزال الذي حلّ من تحت رؤوسهم.

.. يتقافز الهرّ ويتقافز من وراءه العشرات..المئات.. ممن كانوا قد توسدوا الأرض العارية.. يمتزج صراخ الغضب واللعنات بهدير الضحكات الجماعية من الصاحين من الزائرين... تبدأ مطاردة الهرّ المرعوب، قبل أن تبدأ مطاردتنا.

.. نضيع في أزقتنا نصف المظلمة المحاذية لصحن الإمام..

.. اضحك بصوت عالٍ من فوق هامة القبة قبل أن أستدير وأواجه مدخل سوق العمارة.

.. دكاكين صغيرة لباعة الخضروات، وأخرى لتوابل هندية.. أركان صغيرة لبيع الأعشاب والمساحيق وحبيبات مختلفة ملونة ذات آثار علاجية سحرية.. دكاكين اصغر لعقود وتمائم وأدعية.. ها هو محمد البغدادي ذو الوجه الهادئ المسالم والصوت الهامس الخافت، بائع التبغ وسجائر المزبن.. اشتري منه حزمة من المزبن لجدتي واطلب منه تسجيلها على الحساب. بضعة دكاكين وقف صغيرة يتعيش عليها كسبة جواهريون بسطاء.. يعطيني احدهم شمامة صغيرة مجانا مع تحية أوصلها لحبابتي أم عزيز.

أجد نفسي من جديد متعلقاً بحاشية السياج المشرف على الحضرة العلوية باهرة الأضواء.. ها قد عدت من سياحتي.. أرخي ذراعيّ واستقر على ارض السطح.. استلقي على فراشي الممدود قرب إفريز السطح العالي المشرف على باحة الدار وعلى شناشيل الاورسي والبراني، الأول لإقامة الضيوف من النساء والأطفال، والثاني لزيارة وإقامة الضيوف من الرجال.

.. مكاني هذا ذو موقع هام، اشرف منه على حركة أم عزيز وهي تلملم سجادتها وقرآنها ومفتاح الجنان وجنان الصالحين ومسبحتها الطويلة وتضعها جانباً من حصيرتها وتغطيها بمأزر الصلاة الأبيض - النماز، قبل أن تضع قدميها في مداسها الأسود.

.. تطفئ المصباح النفطي بعدة نفخات تعقب الأخيرة منها نوبة من سعال مكتوم.

..اسمع قرقعة المداس على درجات السلم التحتاني العالية وصوتها وهي تستعين على الصعود بجهد "..يا الله..يا أبا الحسنين.. يا أم البنين.. يا.. ".. اعد الخطوات والأدعية وأعرف أنها قد وصلت باحة الدور الأول.. مشوارها طويل قبل أن تصل إلى السطح العلوي منهكة..

أجيل النظر بين تيجان أعمدة الدار الخشبية السامقة حيث يستقر السطح فوقها.

.. بين زوايا حواشيها المقرنصة الخشبية تنام أزواج من حمام الحضرة التي تهرب إلينا لإغفاءة هادئة..

أتلمس الفراش الندي بنسمات البادية المحيطة وأستمتع ببرودته.. أمسح ببصري سياج السطح الحجري وأعد المشربيات المستقرة على السياج.

.. مشربتي الملونة هي الأصغر والأحلى.

.. وصلت حبابتي إلى السطح .. استندت على حاشية باب السلم لاهثة.. أخذت بضعة أنفاس عميقة من نسمات الليل الباردة..

- " بعدك ما غفيت؟!.. لا تظل هواية تعد النجوم إذا ردت تطلع ويايه للحضرة الفجر.. راح نطلع وياه الأذان.. نام حبابة وتغطى زين! ".

.. انظر من بين أعمدة السياج إلى الباحة الفارغة.. ما زال هنالك ضوء يرتقي من سرداب البيت.. هادي وزوجته الشابة ما زالا في ركنهما هناك.. زوجته القديمة قد سبقتهما إلى السطح الآخر.. اشرف عليه كذلك من موقعي هذا .. " لابد انه وراء كأس عرقه، ولابد أنها ممتدة إلى جانبه تضع رأسها في حضنه.."، سيطول انتظار صعودهما.. زوجة على اليمين وأخرى على الشمال.. والهمس والضحكات المكتومة.. قد يفوتني المشهد والأصوات هذه الليلة.

استلقي على ظهري لأواجه الكون الأزرق.." كيف تعد النجوم.. صفائح زجاجية منمنمة.. كل طبقة بزرقة شافة تتمايز بكثافة الزرقة المرصعة بملايين اللآليء والماس والبلور والمناشير الزجاجية وكسر الأصداف والأوشحة الضبابية المشعة.. كيف أبدأ العد ومن أين؟!.

.. خيط ضوئي منحدر بلهب بنفسجي متسارع يتلاشى ذيله المضيء.. "رجوم الشياطين!!".. هل أُسقط هذه النجيمة التي رجمت شيطانها من العد؟

.. لو إن كل نجيمة أراها الآن تحرق شيطاناً.. كم سيكون عدد الشياطين الدائرة حولنا في السماء.. عددها إذاً عد النجوم التي لا تعد.. " عدّ النجوم فأل سيء! ".. هل إن عدّها فأل سيء لأننا بذلك نعد شياطين السماء الكثيرة؟!.. ".

"..الشيطان ما مات!"، هو تحذير حبابتي الدائم كلما هممت بعمل تراه خطراً.. وهل يموت مثل هذا العدد إلا بسقوط واحتراق نجوم الكون كلها.

.. هل تعيش كل ملايين الشياطين في السماء؟.. من أين إذا يأتيني شيطان البئر في الليل وشيطان المقبرة، وشيطان غرفتي في بغداد حين تطفأ الأضواء.. لم يختفِ هنا

فوق سطح جدتي وأنا أكاد ألاحقه مع النجم الساقط.. لم لا يفزعني هنا حتى حينما اصعد وحدي قبل

الجميع مختليا مع سياحاتي الليلية حول البحر ووادي السلام وأزقة المدينة العتيقة والسماء الملضومة بالشياطين.. كل نور نجم جميل هنا له ظل شيطانه الأظلم.. لمَ اعتبرهم هنا في نسمات البادية الندية رفاقي في سياحات الكون.. أصدقاء ودودين؟!.. اصعد إليهم دون وجل، بل وبرغبة في المعاكسة والتحدي.

.. لكن الشياطين والأرواح والمردة الطناطل مرعبة تسلب الأرواح في أماكن أخرى..

لا أجسر حتى على التفكير في أن انزل إلى السرداب في الليل، ولا أن اقترب من فوهة البئر بغطائه المشبك عند مدخل السلم المفضي إليه، إنها تهيم هناك في قعر الظلمات بأعداد كبيرة تنتظر صيدها لمن يتجاسر ويقدم على محاولة النزول إليها.

فتحت عينيّ.. كانت السماء تهتز بنسيجها اللولؤي وأوشحة مجرتها المنسحبة.. ثبتت الصورة المهتزة فبدت ضبابة ضوئية تعبر سياج السطح قادمة من أعلى قبة الإمام الذهبية.

.. همس ترتيل حبابتي يختلط بوشوشة السماور، تصعد إلي وتلفني بإحساس رخي من الطمأنينة والسلام.. أحس بندى الفراش المبترد وأتلمسه قبل أن انقلب على جنبي الأيسر لأطل بخدر لذيذ على حوش الدار..

حبابتي في كامل قيافتها.. رداؤها الأسود الموشى، الهاشمي الرقيق المخرم فوقه، وشاح الرأس الحريري الرقيق.. عباءتها الهمايونية الململومة ترقد إلى جانبها.

تستمر في اهتزازات رأسها المنغمة من فوق المصحف المفتوح في حضنها.

أمامها السماور وإبريق الشاي فوقه وصينية مغطاة بشال خفيف ابيض.

.. إفطاري ينتظر نزولي

قللت من إنارة الفانوس قبل أن تلمّ عباءتها المكوّرة إلى جانبها وتنهض مستعينة بذراعها الأيمن وبهمهمة.. " يا الله.. يا أبا الحسنين!".. لفّت شيلتها حول رأسها ووضعت قدميها في مداسها الروغان الأسود اللامع وارتدت عباءتها..

- " نتوكل حبابة و نلحكَ صلاة الفجر بالحضرة.."

خطت في حوش البيت الغافي المتليء بالظلال المتراقصة وبقايا الأشباح المسالمة التي بدأت تتوارى في فتحات الأقبية ومداخل السلالم التحتانية وفتحة البئر المتربسة بالقضبان.. شبح جدي ظهر لها قبيل الفجر منذ يومين.. يلتف بأوشحة بيضاء.. يحمل إبريق وضوئه.. اقترب بهدوء وصمت من وسط باحة الدار.. توضأ ثم صلى ودعا بالخير لمن في الدار.

قبل أن أعبر خلفها إلى مجاز البيت الأظلم المفضي إلى البراني ومنه إلى بوابة البيت، التفت ورائي فتلامعت عينا شبح مطل من إحدى الفتحات الدكناء وأوشك آخر أن يمد كيانه الدخاني الرجراج من فوهة البئر.. أسرعت بخطواتي وكدت أتعثر بساق جدتي في الظلمة.

بحثتْ هي في ظلمة رواق البراني عن ترباس الباب.

..إلى يساري السلالم المؤدية إلى غرف البراني العليا.

.. تراءى لي شبح (المشتي) بشكله القميء وحدبته الكبيرة ووجهه العبوس المتغضن.. أين اختفى المشتي؟!

.. اسمع من يقول همساً ".. ليش يا ظالم رميته من أعلى السلالم ليتكسر وتزهق روحه..

..يمد ذراعه المهشمة وبأصابع متسلخة يحاول أن يتشبث بملابسي.

.. أتشبث بدوري بعباءة جدتي.

وقفت خلفها في الزقاق شبه العاتم إلا من ذبالة الضوء المتلاشي من المصباح المغبر الوحيد في أول الزقاق

أدارت مفتاح الباب الكبير.. صوت طرقعة المفتاح تختلط بأصوات غريبة تقترب في الظلمة.. تنفست الصعداء.. توضحت أصوات السعال الخافت المكتوم وتبينت رنات مداس بدأت تتنغم مقتربة من فرع زقاقنا.. لحظات وهفّت عباءة تخفق و فوقها عمة بيضاء و تجاوزت مكاننا وأضفت معلم حياة على الدرب الهامد.

.. نتجه نحو باب الطوسي، بصيص من الضوء يتراءى في الدرب المتعرج من شناشيل

البيوتات العتيقة ونغمات خافتة لتراتيل أدعية وآيات قرآنية تتلى.. تعود السكينة إليّ ببطء....أتابع طرقعة مداسها بتلذذ.. نقترب من نهاية الزقاق فتنفرج فسح مضيئة من بعيد..

على يميني شباك بقضبان نحاسية مزخرفة تطل على ظلمة مريبة لضريح خاص.. أتباطأ قليلا.. أتريث واستجمع شجاعتي واسحب نفسا عميقا قبل أن اهرع نحوه بفضول فزع.

.. امسك بالقضبان النحاسية الغليظة المبتردة.. أمد بصري في العتمة.. تصل إليّ رائحة تربة ندية عطنة.. يتلامع وشاح ضبابي متموج.. اسمع همساً مريبا.. اركض لأصف إلى جانب جدتي المنشغلة بتلهف بالنور القدسي للحزم الضوئية المنعكسة من تلامع القبة الذهبية.

- " دخيلك يا بو الحسنين!" تقف لبرهة رافعة ذراعيها فتنسدل أطراف عباءتها وصايتها

وتتدلى مسبحتها من كفها الأيمن

.. اكرر وراءها بخفوت " دخيلك يا بو الحسنين "

أمامنا باب الحضرة الخشبي الضخم المزخرف مشرعا على الصحن بإنارته الهادئة الحالمة.. على رخام الصحن تتحرك بهدوء.. عباءات جز وسيعة.. عمائم بيضاء وسوداء وكشائد خضراء.

من على يسارنا تمسح تفرعات السوق الكبير نعاسها وتظهر بعض إناراتها الكهربائية مع ذبالات ضوء لفوانيس دكاكين صغيرة للمسابح وكتب الأدعية وباعة البخور.

.. معالم السوق الكبير لا تزال تغيب في ظلمة إغفاءتها.

نقترب من عتبة الباب الكبير فيصل إلى أنفي نفح الخشب القديم المضمخ بروائح العطور وأدخنة المباخر القريبة التي أشبعت مساماته عبر مئات السنين.

على اليمين وعلى مقربة من العتبة المرصعة بالنحاس العتيق المزخرف، يقف بائع الحلاوة الهندية بطاولته المدورة المعدنية ذات المساند الطويلة وهو يرتب علب الحلوى.

.. أتباطأ قليلا لألقي نظرة سريعة على العلب المدورة الصغيرة الأنيقة بهلامها المتماسك الأصفر الرائق الشاف، المزخرف باللوز.

.. اسمع صوت جدتي وهو يتهدل " السلام عليك يا أبا الأئمة.. السلام عليكم ورحمة الله".

.. اهرع إلى جانبها عند مدخل الصحن واكرر " السلام عليك يا أبا الأئمة.. وعليكم السلام ورحمة الله ".

بدأت التمجيدات من مآذن الصحن..

تتلامع آلاف المرايا والمناشير الزجاجية الصغيرة من سقوف وأركان الرواق الرباعي الوسيع المحيط بالضريح المتلألئ بالنقوش والزخارف الذهبية.. نجف هائلة تتدلى في سلاسلها الطويلة وبلورها العاكس آلاف أقواس قزح تتلامع عبر صفائحها الشافة.. زخارف من معينات قاشانية لازوردية.. نقوش وكتابات بالخط الكوفي والفارسي تتداخل بآيات قرآنية وبالأسماء الحسنى.. عطور ومباخر.. سجاد إيراني يمتد إلى كل زاوية من زوايا الرواق الرباعي المحيط وداخل المقام حول الضريح.

تأخذ مكانها شبه المتواري في الركن النسائي خافت الضوء وتتربع.

. تخرج قرآنها وكتاب ادعيتها من محفظتها القماشية.. وتبتسم لي إيذاناً بمنحي كامل حريتي في التجوال في الرواق والضريح وصحن الحضرة الشريفة.

* * *

عادت أم عزيز عند المساء وكان يعلو وجهها المتعب المندى بالعرق تأمل وحيرة أكثر منه حزنا وتوجهت إلى طارمة الحوش المرتفعة حيث مدت فيها (هيوبة) الحصران والافرشة.

جلست أم عزيز في ركنها المعهود ونضت عنها عباءتها وشالها ومسحت العرق عن وجهها بمنديلها الصغير.

- هل تتذكر المرحومة أم محمد علي؟..لقد كانت تحبك كثيراً.

"..وكيف لا أتذكر ،وكانت تقدم إلى دارنا في بغداد إما في مراجعة طبية أو لزيارة مرقدّي الإمامين في الكاظم.. كانت التحذيرات تنصبّ عليّ ألا اقترب كثيرا منها أو أن اسمح لها بتقبيلي :

- " مريضة بهذا الما يتسمى..دير بالك هذا يِعدي! وهذا مرض قتّال! ".

لم استطع ولا لمرة واحدة أن استجيب للتحذير، فما أن تفتح ذراعيها مرحبة "هلا وليدي هلا "، حتى أجد نفسي في أحضانها وهي تضمني بقوة وتغمر وجهي بقبلاتها.. من بعيد كان وجه خالتي أم نجاح ينطق بالاشمئزاز والغضب.

.. الصحون والأدوات والمناشف التي تستعملها الزائرة تعزل على جهة.. أهل البيت يحاولون جاهدين ألا يكونوا على مقربة كبيرة منها في الوقت الذي يسعون جاهدين أن يتظاهروا بفرحهم وسعادتهم بقدومها.

كان الوالد لا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل .. عند الصباح ينزل من غرفته في الطابق العلوي في كامل قيافته ويلقي تحية الصباح ويرحب بأم محمد علي ترحيباً حاراً.. ولكن عن بعد معقول، ويسال عن القريب والبعيد من الأقارب في النجف.. يعتذر عن الإفطار لأنه على موعد هام في الصباح الباكر في الجريدة.

في كل زيارة تالية كان وجهها الذاوي يزداد شحوباً وتصبح نوبات سعالها الخانق أكثر تقارباً وكان خيط الدم على منديلها بعد السعال قد تحول إلى بقع كبيرة وخثر دموية.. هلع من في الدار يزداد اطراداً.

.. الوالد كان يختفي عن الدار حتى ترحل وحين يعود كان يتأكد بنفسه من أن الشراشف والصحون قد أبدلت قبل أن يتقدم ليتناول الطعام الذي يقدم إليه.

- "أنت تعرف زين بيت الملا نبيهة.. هي تعرفك وتحبك.. أول شي أريدك تروح دكان تقي.. تقي الجواهري.. تقي الابرش تعرفه زين.. تبلغه سلامي وتطلب منه على لساني أن يرسل احد الحمالين مع عربته محملة (مَنْ) من البطيخ و (من) آخر من الرقي، وتروح ويا العربانة إلى بيت ملا نبيهة.. اذهب وسلم، وخبرّها إن قراءة اليوم السابع للمرحومة أم محمد علي هو ليلة الجمعة في بيت أم عزيز وإنه يشرفنا أنها هي القارئة.. ملايتنا، والساعة هي تعرفها، يعني الساعة سبعة، وما ترجع إلا بجوابها.. يلا حبابة سويلك همة! ولا تتأخر.. أريدك بشغله ثانية حبابتي.. أريدك تكتب لي رسالة لعمك المتغرب عزيز، ولعمك الثاني وصاحبك جعفر.. هذا هم هجوّل نفسه بديار الغربة بالشام.. عاف وظيفته وراح يكمل دراسته بالجامعة.. وظيفة وراتب زين وخطيبة

حلوة تركض وراه، شيريد بعد؟! عاف كل شيء وراح يتهجول.. يلا حبابة لاتتأخر عليّه.. تخلص هذي الشغلات إلك علبة حلاوة الهندي بعدها!

راح عن بالي حبابة!!.. دكان محمد البغدادي صف دكان تقي، تسلم عليه وخليه يدز لي عشر لفّات سجاير مزبّن وأربع بطالة ميّ ورد".

تناهت أصوات الهلاهل قادمة من سطح بيت أم كامل، أعقبها نداء شكران لله :

- ربي وولي نعمتي أنت أدرى بحالي!..شكراً لك شكراً لله.

تبتسم الحبابة وينطلق وجهها بالانشراح.. تمد يدها لأخذ عباءتها الملقاة إلى جانبها ثم تعيدها من جديد إلى مكانها:

- من الأفضل أن تذهب أنت يا فلاح وتعرف الخبر المفرح بعد إكمالك لغدائك.

لم تتأخر معرفة الأخبار طويلا.. أم كامل هي التي حضرت فارعة الرأس، عباءتها تنسدل من على كتفيها.. هرعت إلى أم عزيز.. قبلت وجنتيها ورأسها بعد أن وضعت لفائف الخبز على طرف من الحصيرة الممدودة.

- معجزة.. رحمة ورعاية من الله يا أم عزيز.. لابد إني قد أتيت عملا خيراً، أو انه دعاؤك لي في صلاتك.

".. تصوري أم عزيز، أحسست بعقدة في جيب بنطلون أبو كامل وانأ أتهيأ لنشره على حبل الغسيل.. هل تصدقين ما الذي وجدته في هذا البنطال المبلل.. رحمتك ولطفك يا إلهي!!..

دينارين كاملين!.. كنت قد بدأت بفك لفافة الكرة المبلولة وأنا ارتعش .. معاش أبي كامل كله الذي نسي أن يسلمه لي أمس.

..معجزة " بعد عيني يا علي، يا أبو الحسنين، يا داحي باب خيبر..جيرانك إحنا ونروحلك فدوه! خلصتنا من مصيبة.. "

".. هل تصدقين!.. كنت قد غسلت الملابس ثلاثة افوام كاملة! وهات يا دعك! وهات يا عصر!.. وهات يا شطف بالماء مرات عديدة!.. ربك رحيم يا حبابة .. تصدقيني يا أم عزيز، لقد أتت يدي صدفة على العقدة الصغيرة داخل جيب البنطلون..

كتلة خضراء مكوّرة.. أوشكت أن افقد وعيي من الفزع حين عرفت ما الذي اقترفته يداي."

".. جلست على ارض السطح اللاهبة وبدأت أحاول فتح العقدة المكوّرة بأنامل مرتجفة وعينين دامعتين، امسح عينيّ بين لحظة وأخرى كيلا تخطأ أناملي ويتمزق الدينار المبلول.. كنت أتمتم بصوت تخنقه العبرة آية الكرسي، وارفع رأسي إلى القبة الذهبية المتلامعة وأناشده " دخيلك يا أبو الحسنين!! "

".. بدأت معالم المعجزة تظهر.. انفرشت الورقتان المبلولتان شيئا فشيئا في كفي بليونة ويسر وكأن هنالك قوة تسيرهما وتفتحهما على مهل.. كاملتين يا أم عزيز، كانتا كاملتين دون ثلمة أو شق.. تغضّن خفيف، سرعان ما زال تحت تمسيد كفي الأخرى وتحت أدعيتي المستمرة.. نشرتهما على أرضية السطح الحجرية الحارة وجلست إلى جوارهما انظر إليهما وأعيد قراءة آياتي وأدعيتي وقد دبّ الأمل في قلبي وخف ارتعاشي.."

" رفعتهما بعد دقائق بحذر..وقفت وأنا انظر إليهما غير مصدقة عيني.. ديناران كاملان سليمان، دون خدش أو ثلمة.. قلبت و نظرت إلى وجهيهما.. بعد عيني وجهك فيصل الأول! ابن الهواشم! إي والله ابن الهواشم الخيرين!.. كان يضحك بوجهي، وجه الخير عليه، قلبته على الوجه الآخر، دينار عراقي، بخط واضح، مثل خط القرآن بعد عيني..

لم استطع الوقوف خذلتني قدماي.. جلست على الأرض اللاهبة وانصبت دموع الفرح كالسيل.. كنت اشهق وأنا ارفع راسي إلى القبة الذهبية وأناديه " يا أبو النخوة، يابو الغيرة بعد عيني أبو الحسنين.. جيرانك وبحماك احنه" ثم ارفع رأسي إلى السماء واشهق بحشرجة

" إلهي شكرك ورضوانك ".

نزلت على الفور وأعددت خبز العباس.."

مدّت أم كامل يدها إلى الحبابة أم عزيز:

- وهذه لفّة ثانية تسلميها لبيت هادي وهيوبة، وهذه واحدة أخرى لزوجته الأولى "وفية"، اسم على مسمى، لعل خبز العباس يجيب دعاءها، المسكينة.. سنين في انتظار الخلف .. استأذن وأرفع الزحمة حبابتنا أم عزيز.. تسمحين لفلاح معي كي أوزع بقية لفات الخبز على الجيران.

- قم حبابة، قم يا فلاح مع خالتك أم كامل.. ولا تنسي أم كامل بيت السعيدي، ربنا رحيم، استجاب لدعاهم وأرجع أبنتهم وخلصها من محنتها في بلاد الأغراب.. همَّ كذلك في فرحة هذه الأيام.

".. بيت حميدي.. بيت نعيمة!"

" نعيمة!.. كانت تلاعبني لعبة المصارعة.. تجرني ضاحكة إلى سرداب بيتهم الصغير حين آتي ولا أجد منصور صديقي أجير المخبز ,وفي الوقت الذي يكون الأخ الكبير عباس غائبا عن الدار.

.. كنت دائما أجد اللعبة مثيرة جداً.. تنطلق فيّ أثناءها وبعدها أحاسيس غريبة تبعثّ فيّ النشوة والخدر.. حرارة تلهبني من إذنيّ إلى أسفل الحوض مني.. خليط لذيذ من المشاعر لم اعرفه سابقا.. شيء مختلف عن مصارعة فؤاد أو خالد أو غيرهم من شلة الزعران على ضفاف دجلة.

.. لا اعلم لمَّ كنت اسمح لها وبسهولة مقصودة أن تغلبني في اللعبة!.. أن تلقيني على ظهري ثم تلقي بجسدها فوقي وتبدأ تهزهزني لاهثة.

.. أحس بدفء أنفاسها بجسدها الغض الممتلئ الملتصق بي.. أحس بدوار وخدر لذيذين.. تتزايد حركتها عنفا.. يزداد التصاقها.. تتسارع أنفاسها ويزداد لهاثها.. تطلق آهة عميقة طويلة.. تضحك وتدمع عيناها.. ضحكتها تنقلب إلى كركرة هستيرية.. تغمر وجهي بقبلاتها وهي ترتمي مرتخية علي وتكرر بابتسامة واهنة: " ها قد غلبتك مرة أخرى..انتصرت عليك! "

كانت اللعبة تنقطع فجأة وتتوقف عن الهزهزة حين تسمع طرق باب البيت .. تنهض آنذاك عني على عجل لتسحبني إلى باحة الدار العلوية وتجلسني في احد أطرافها وتؤشر ببنانها على فمها إشارة الصمت.

.. إن كان الطارق القادم صديقي منصور، ابتسمت وقالت:

- " حسنا انك عدت مبكرا! صديقك حضر قبل قليل وهو في انتظارك."

.. إن كان من على الباب جارة تسأل عن حاجة يومية متداولة كقدر أو ملح أو مجّن.. كانت تلك الحاجة تلبى من وراء الباب، لتعود على عجل ضاحكة وتسحبني من يدي إلى السرداب لنواصل لعبتنا المفضلة.

في بعض الأحيان كانت لعبتنا تصبح ثلاثية حين تتواجد ابنة خالتها، صديقتها الحميمة .. تشتركان سوية للتغلب عليّ في لعبة الصراع نفسها.. كانت اللعبة حينئذ تطول وتصبح أكثر إثارة ومرحاً ولذة.

عدت في إحدى العطل لأجد أن ابنة الخالة قد اختفت من لعبتنا تماما..

.. تزوجت من قريب لها يسكن في مدينة أخرى.

.. تزوجت أخت صديقي نعيمة بعدها بفترة قصيرة.

.. بدأت صداقتي لمنصور تفتر.. أصبحت أجده مملاً ..

* * *

- "ها راح تروح وتخليني بوحشتك حبابة.. ما اكدر أأخرك أكثر، المدارس راح تبتدي.. أكيد اشتاقيت لاصدقاءك وجماعتك ببغداد. بس لازم آخذ خيرة أشوف يا يوم هو الأحسن حتى تروح بيه.. وبعدين أشوف ويا من تسافر.. محمد البغدادي عنده سفرة لبغداد هو وابنه.. صاحبك يوسف، بعد بغداد رايحين لسامرا للزيارة.

- راح تاخذين الخيرة حبابة بالقرآن، لو بالسبحة؟

- لا حبابة خيرة القرآن للأشياء المهمة كلش.. حرام واحد يسويها إلا بالضرورة.. خيرتك بالسبحة بعد صلاة الفجر.

- آني رايحة بعد شوية لبيت خالك شيخ عبد الرسول، صار مدة ما رحنا لهم.. تيجي وياي؟

- أجي!"

.. " هناك دندش! دندش.. أضع رأسي بحضنها في الرواق خافت الضوء.. أغرزه بحضنها بإصرار وأحس بدفء عذب.. اعبث بجدائلها الطويلة المهتزة فوق رأسي..

أداعب تلك الجدائل.. أمسح بها وجهي.. أحاول قضم شعيراتها الحريرية الملتفة.. انظر بانبهار إلى الأعلى إلى الليمونتين الصغيرتين اللتين بدأتا تظهران باستحياء من وراء ثوبها الأخضر المورد.. سعادتي لا حدود لها في هذا الحضن الدافئ وهي مندمجة في حكاياتها لي الشبيهة بأقاصيص ألف ليلة وليلة.. صوتها يخفت ويتموج بالغموض والرهبة حين تصل إلى مقطع الجني الخارج من ظلمة الكهف والمكلكل فوق هامة سعيد، ذلك التاجر المسافر الملتجئ إلى الكهف هرباً من حر القيظ.. ويرق الصوت ويتهدج وهو يروى مشاعر حنين سعيد لزوجته وأبنائه البعيدين.. يغرد الصوت ويهدل بالضحكة الممزوجة بعبرة الفرح وهي تروي لقاء الأحبة في الختام..

.. في فترة السكون التي تعقب الخاتمة الحالمة السعيدة، ودندش تعبث بشعري الكث في سهوم وسياحة تأمل بعيدة، أغرز رأسي في الحضن الدافئ بإصرار أشد وكأني أتشبث وأطيل اللحظات التي لابد وأن يعقبها نهوضها البطيء بعد أن ترفع رأسي وتنظر إلي بوجه دامع من مزيج الحزن والسهوم والغبطة.. وتضحك أخيراً ضحكتها الطفولية العابثة قبل أن تقول عبارتها المعهودة: ".. كافي اليوم سوالف.. خلي الباقي على المرة الجاية ".

.. لا تنفع توسلاتي وتشبثي بها بالتفاف ذراعيّ حول فخذيها للبقاء في حضنها ومنعاً لقيامها " بس احكي لي قصة العجّان وبنت الحايك!.. بس ها السالوفة الصغيّرة.. بس هاي دندوشة!! "..

لا فائدة تنهض دندش وتسحب بقوة لفة من شعري بتحذير ممازح.. لذيذ ألم هذه المداعبة المحذرة.. لذيذ.

.. تنطلق نصف مهرولة.. بمرح تتراقص جدائلها الشقراء على ظهرها الأخضر المورد.. تختفي قبلي في حوش دار الشيخ الوسيع.

كان أذان الظهر قد فات وانتهت أم عزيز من صلاة الظهيرة حين تحركنا بتكاسل واسترخاء في الأزقة الظليلة التي بدأت حركة السابلة فيها وأغلبهم من أصحاب العمائم، البيضاء الكبيرة والأخرى الصغيرة، والسوداء، و"الكشائد" الخضراء، تقل حركتهم هرباً من سموم الصحراء التي كثيراً ما تجد لها منفذاً في هذه الأزقة الملتوية.

.. بين الحين والآخر تسمع قرقعة مداس يمنيّ، تعلو، ثم تتخافت وهي تتجاوزنا.

.. " لا إله إلا الله!..لا إله إلا الله! " محذراً، أكثر منه ممجداً.. نتنحى جانبا ليمرق شبه راكض معيدي بجلباب مترب، يحمل فوق رأسه نعشا من خشب رخيص دون أغطية أو مفارش مزوقة بالآيات، ممسكا جانبي النعش بيدين معفرتين.. وجهه ملوح بالشمس، متعرق، تنطّ أوداجه على رقبته المفخورة المتوزمة.

.. " لا إله إلا الله "، يتباعد الصوت وتبقى رائحة الجسد الذي بدأ بالعطن ترف على أنفينا شدة وخفة وفق هبات الانسام الحارة.

.. " لا إله إلا الله.. هو الحي الباقي " أأسمع صوت جدتي الخافت المتهدج.

.. نعبر جامع الجواهري.. أتباطأ عن مسار جدتي.. أصعد العتبة الضيقة القاشانية الزرقاء أمام شباك غرفة الأضرحة الصغرى المشرع دائما.. أتعلق بقضبانها الخارجية النحاسية.. أنظر إلى صور أبناء صاحب الجواهر الأربعة بعمائمهم الكبيرة ولحاهم الطويلة البيضاء..

.. أكبرهم يواجهني بعينيه بصمت.. يحدق فيّ متسائلا.. أضيع في سكون الظهيرة.. أصحو على دقات منغّمة في الزقاق لمداس يقترب.. يتوقف.

.. عند عتبة البوابة الكبيرة للجامع، المجاورة لمحل تشعبطي، يقف أبو موسى الطرمّاح، بقامته الطرماحية السامقة وبعكازه الأطول في النجف، وبعينيه الزرقاوين المتضاحكتين المنسجمتين مع الوجه الأبيض الرائق الذي يكاد يخلو من التجاعيد، والذي تطوقه لحية شيباء قصيرة مشذبة.. عمة صغيرة وجلباب وصاية أنيقتان.. نعل من جلد البقر الثخين.. الويل لشلة الزعران من جماعتي هنا من نعله وعكازه!!

ينظر الطرمّاح إلي صامتاً مبتسماً بود لبرهة.. يأتي صوته الرخي المرح:

- ها تدخل ويانا لصلاة الظهر.. لو صبيان بغداد ما يعرفون الصلاة؟

.. لا ينتظر إجابتي، يدخل حانياً هامته عن عارضة الباب العتيق.

.. أكثر من مئة عام، وأطول شيوخ أهل النجف عمراً وقامة.

.. أعود لأواجه من جديد تساءل عيني الشيخ المعلق أمامي فوق الجدار القاشاني الازرق..

أنظر إلى وجوه وعمائم ولحى إخوته الآخرين قبل أن أقرء الفاتحة بخشوع مبالغ

فيه... أنطلق لألحق بجدتي المقتربة من زقاق أخيها الصغير، الشيخ الكبير عبد الرسول.

.. في حوش البيت الوسيع حديقة صغيرة من أشجار الحمضيات والرمان.. تحيط بالحوش طارمات فارهة تفضي إلى غرف طويلة تشرف كلها على باحة الدار.. لكل من هذه الغرف مداخل بأبواب خشبية عديدة، الأبواب تنتهي بأقواس، الأقواس تحيط بأنصاف دوائر من الزجاج الملون.. أحمر، أزرق، أصفر، أخضر.. تحت طارمات الحوش نوافذ للسراديب العليا للبيت..

بوابة جانبية كبيرة قرب نفق المدخل تفضي إلى "براني" الشيخ.. غرف "البراني" النيرة ملظومة جدرانها بالكتب.

.. حوش حبابتي أقل سعة.. طارماته أضيق!.. سراديبه العليا ونوافذها أصغر وأكثر عتمة!.. لا حديقة وسطية عندنا!..

.. بيت حبابتي أعلى!.. طابقين مديدين!..عندنا أعمدة خشبية سامقة من الخشب الهندي العتيق!!..لسطحنا امتدادات مقرنصة خشبية يهدل فيها حمام الحضرة عند المساء وقبل طلوع الشمس.. لا حمام يهدل في بيتهم!.

.. بئرنا له منافذ مفضية إلى بيوت أقاربنا وهي مسرح مخاطراتنا حين تخلو الأجواء.. بئرهم لا منافذ له!

.. وهناك حبابتي بمسبحتها الطويلة.. وبصوت ادعيتها الرخيم عند الفجر.. وهناك حلاوة الهندي في انتظاري تحت عباءتها المكومة إلى جانبها على الحصير!

تكاد جولة بصري المتفحصة تنتهي.

.. لكن دندش هنا!!.. هنا الحضن الدافئ.. هنا الجدائل الذهبية والعيون الزرقاء المرحة وقصص الملوك والجن والعشاق!!.

.. أترك جدتي وأم تقي – زوجة الشيخ – المرحبة وابدأ بحثي عن هدفي الأسمى من المجيء!.. أبحث عن دندش!

***

- "تنطيني البشارة أم عزيز؟!

- بالطبع كلك بشارة أم كامل.. بشارتك أم كامل بوجهك الحلو، كله خير وطيبة.

- ابوكامل إجا من بغداد ويكَول جعفر وصل بغداد البارحة.. أجا بعطلة نص السنة من الشام.

- صدق بنيتي أم كامل! بشّرك الله بالخير تهلل وجه أم عزيز وترقرقت دمعتان في مآقيها

.. ما اعرف أهلهل ياحبيبتي أم كامل"، واصلت المرأة العجوز تعقيبها وهي ترفع عباءتها لحظة ثم لتضعها جانبا، تضع قدمها في مداسها مرة وتعود لتخرجه منه على الفور، تستدير لتواجه مدخل الحوش لتعود للنظر إلى ضيفتها الواقفة وسط الدار.

أم كامل تطلق زغرودة طويلة منغمة تحتضن بعدها جارتها المرتبكة وتقبلها.

- "ساعديني أم كامل بتحضير لفات خبز العباس ومني إلج بدل البشارة بشارتين."

بعد أقل من ساعة كانت أم عزيز وجارتها تتوجهان إلى الحضرة العلوية وبيديهما زنبيلان غطيا بملاءات خفيفة بيضاء.

بعد أن أتمت أم عزيز توزيع لفّات الخبز المحشوة بالعروق المقلية والكراث واللبن على زوار الإمام الجالسين في جوانب وأركان وأروقة الحضرة، تركت أم كامل بزنبيليها الفارغين وتوجهت على عجل حافية القدمين لتؤدي صلاة الشكر في باحة الضريح ولتمنح القيّم على بابه هناك هبة سخية.

أزمعت على السفر إلى بغداد خلال أيام.

" يا يمه وأشوفك بعد ها الغيبة الطويلة.. أضمك وأشمك! أنت آخر العنقود.. الصغيرّون أبو النكتة والضحكة والمقالب الحلوة.. أبو الكَذلة الذهب بصغره."

".. الكل عذبوني بتربيتهم ومشاكلهم من أول أيامهم لهذا اليوم إلا أنت!.. عزيز هجْ وراح وبيني وبينه ألف فرسخ، ومن يوم ما تزوج هناك عرفت أن بعد ما إله رجعة.. ومهدي عافنا.. يوم بلاط .. ويوم سياسة ومشاكل.. يوم جريدة ومطبعة.. ويوم لا هذي ولا ذيك.. ويوم مدرس بالبصرة.. ويوم حبس وتوقيف وبهذلة، ما يجيني إلا بمناسبة مهمة، صحيح قايم بواجب المعيشة والسؤال، ومن أروحن لبغداد عيد عنده وعند

ويلاده.. يحضنّي ويطش عليّ الملبس وزنابيل الفاكهة من يرجع لبيته من شغله بالجريدة.. لكن وين وين اكَدر وأشوفه.. وقصة هادي أبو المصايب قصة.. يوم سايح ورحالة بنجد والخليج، فلوس وليلو وعقيق يماني.. ويوم يخسر اللعنده والما عنده بكعدة قمار.. ويوم عرق وسكر.. ويوم ويه أهل الانقلاب وجماعة الكيلاني ونتيجتها المعتقل.. معتقل وشلون معتقل! بعيد هناك بأرض الملح وباحورة الحر.. أوصل هناك بعظامي البايده بعد ثلاثة أيام من سفر وعطش وتراب."

".. ولولا تدخل مهدي ومساعيه جان مات واندفن بالفاو بمرض ذات الجنب.. خلصه وجابه عنده لبغداد.. كومة أطباء ومستشفيات لحد ما خلصه من الموت.. ليش يذكر هادي أخوه بالخير؟! حاط دابه وداب أخوه مهدي.. وتزوج مرة.. وتزوج مرة ثانية، والله يستر راح يجيب ثلاث نسوان سوية على راسي بالبيت."

".. بس أنت حبيبي الصغيرون جعفر - حمد - اسمك الثاني، ما شفت منك غير الضحكة وضمة الصدر والنكتة الحلوة.. وما يمر شهر إلا وانت جاي وماخذ إجازة من وظيفتك حتى تشوف أمك.. ما جيت يوم وأيدك خالية يا صغيروني."

مقاطع من أفكار وصور تدور في مخيلة أم عزيز وهي تعد بفرح حاجاتها الصغيرة في بقجة من قماش من القديفة رصاصي مخضّر اللون.. إنها لا تطيق فكرة أن تحمل حقيبة جلدية حالها حال أفندية وموديلّات ها الزمان.. تلملم كل حاجة غابت للآن عن بالها قبل ساعة..

.. هذا مئزر صوفي حاكته أم كامل ونعال كوفي من جلد البعير لجعفر!.. عباءة كشميرية قديمة في قعر صندوقها الأبنوسي الأسود الكبير، سوف يلف بها مهدي جسمه الناحل في زمهرير غرفة جريدته المعلقة فوق الزقاق!.. شال هندي من السوق الكبير لأم نجاح!..(مشكل كشاه) من السكاكر والمكسرات للصغار! مع حفنة من القطع النقدية الصغيرة المعدنية توزعها عليهم بالتساوي: كفاح الذي سيركض تجاهها ويكرر " ثوفو ثوفو حبابتي إجت.. ثوفو " سيتدحرج بسمنته ككرة نحو رواق البيت.. نجاح سيتراكض معفرا بتراب الأزقة ويداه وساقاه تملؤها الخدوش ويمد يده " حبابة! حبابة! حق السلامة حبابة! " يأخذ فلوسه وينطلق راكضاً من جديد عائداً إلى أزقته.. وبالطبع علبة حلاوة الهندي لفلاح "

.. يومان لا غير على السفر.. نوم يتقطع في لهفة الانتظار.

- يا ألله!.. يا ألله! يعقبها تنحنح و سعلة صغيرة.

يدخل أخوها الصغير الشيخ عبد الرسول باحة الدار.. يقف منتظراً وهو يطرق بحيرة واضطراب ويتشاغل بالنظر إلى طابوق الحوش الفرشي وإلى أعمدة الرواق الخشبية الضخمة

- " يا مية هلا بأخوي وحبيبي أبو تقي.. زمان والله و ما شفناك، زين تذكرت أختك.. "

.. انتبهت إلى حيرته واضطرابه .. " خير أبو تقي شومو على بعضك؟ "

- لا شيء يا أم عزيز.. قرر تقي النزول إلى بغداد بعد ساعة وارتأيت أن تكوني معه مادام انه قد أوصى على سيارة أجرة خاصة له.. سيارة خاصة ورفيق سفر يوصلك لباب البيت

- انك مرتبك يا عبد الرسول.. صارحني.. ولدي جعفر بخير

- سيكون بخير إنشاء الله.

- "يعني انه مو بخير بها اللحظة؟!" قالت ذلك بصوت مرتجف وهي تستند على عمود الرواق متحاشية الانهيار.

- شيء بسيط وعارض بإذن الله.. صمت برهة واطرق مليا قبل أن يواصل بصوت خافت،.. لا أريدك أن تفزعي فالأمر ما هو إلا عارض بسيط مفاجئ!

- "لا تضمضم عليّ.. أروح لك فدوة كَول ولاتضم أكثر، حيلي وكَع يا خوي!"

- استلمت مكالمة تليفونية قبل قليل بأنه قد تعرض لحادث عابر، نقل على أثره إلى المستـ..

قبل أن يكمل عبد الرسول عبارته، كانت صرخة الأم المرتعبة " وليدددي جعفر! " قد زلزلت كيانه وأخرجته عن توازنه وبدلاً من أن يحاول الاستمرار في تطمينها عن بساطة العارض المفاجئ تولاه صمت حزين، استفاق منه على صرخة أخرى أعلى وأعمق " وليدي حمد.. يا أمير المؤمنين! أنا بجيرتك ودخيلتك يا أبو الحسنين!.. وليدددي.."

قبل أن يستفيق الشيخ المطرق من ذهوله وحزنه، كانت أم عزيز قد مرقت إلى جانبه كالبرق حافية القدمين فارعة الشعر متلعة الزيق.

تابع في وقفته مشلولا وسط باحة الدار نداءاتها وهي تخف وتتلاشى:

"جيتك دخيلة يا أبو العباس.. يا أمير المؤمنين.. يا ابو الحسسن والحسسسسيي.."

فلاح الجواهري - لغز الحياة وحيرة الالباب
معرض الجواهري - غاليري الكوفة - ٢٠٠٣

جعفر

(... وكان للدم حرمة)

" ما نِشفْ، ما نِشفْ، دَمه يسيلْ وما نشف "

يردد حَشد من الجموع المتراصة وراء النعش الملفوف بالعلم العراقي والتي تسير على مهلها في شارع الرشيد حاملة العشرات من البيارق ولافتات الشعارات والأكاليل.

..يجيبه حشد آخر بنغمة مماثلة:

" للنَجَفْ، للنَجَفْ، هدّي يا ساعي للنَجَفْ "

ويرد الحشد الأول:

" زَفّتَكْ، زَفّتَكْ، ها اليومْ هذيَ زَفّتِكْ "

ترتفع ترجيعة مناحة مدّوية من بحر النسوة المتماوج بالعباءات السود على الرصيفين، تعقبها هلاهل أخريات بترنيمة أخرى.

" ما نشفْ، ما نشفْ دَمّك يا جعفر ما نشف "

ترنّم المجوعة الأولى، وتجيبها الثانية:

" حنّتكْ، حنّتكْ، دَمّكْ يا جعفر حنّتكْ "

* * *

أصر طلاب كلية الطب أن يستلموا جثمان الشهيد جعفر من المستشفى التعليمي المجاور وان يبيت في حمايتهم حتى الصباح، خوفا من أي خطوة من قبل السلطات لعرقلة التشييع الجماهيري المرتقب صبيحة اليوم التالي والذي كان اتحاد الطلبة والأحزاب السياسية قد تنادت لتنظيمه عشية علمهم بوفاة جعفر الجواهري متأثرا برصاصة مزّقت كبده، والتي لم تفلح كل المحاولات الجراحية على مدى خمسة أيام من أن تنقذ حياته.

تناوب على حراسة الجثمان طوال الليل وإعداده اللائق للتشييع مجموعة من الطلبة، هي التي خرجت به في الصباح إلى حشود المشيعين وحملت جثمانه أمام مسيرتهم.

كان الجواهري ورؤساء الأحزاب السياسية وممثلو الطوائف الدينية بعمائمهم وكشائدهم وعمائر القساوسة والحاخامات في الانتظار أمام مبنى المختبرات والبيلوجيا في الكلية حين خرجت ثلة الطلبة حاملة النعش، يعقبها عدد آخر يحمل أكاليل الزهور بأشرطة سوداء تحمل أسماء الكليات الممثلة في مراسم التشييع.

لم يطل الصمت المهيب الحزين الذي أعقب نزول النعش وانتظام الآلاف من الطلبة المشيعين خلفه، فما أن تحركت الجموع بضع خطوات حتى علا هتاف أحدهم :

" المجد لشهداء الوثبة "

" المجد، المجد، المجد " كررت حشود الطلبة.

" الموت للخونة أعداء الشعب .."

" الموت، الموت، الموت "

ارتفعت عشرات اللافتات من بين الصفوف وتزايدت الأصوات الغاضبة لتصبح هديرا متعاقبا

" يسقط .!." .." يعيش..!" " يسقط..! "

عند البوابة الخارجية كانت حشود أخرى تنتظر ..وكانت هنالك لافتات..وعلت هتافات أخرى.

... ظهرت مجاميع من العامة تحمل بيارق ملونة وأعلاماً.

تظاهرة نسائية بملابس حداد ولافتات سوداء وأكاليل ورود.. أصوات تهتف بصوت ارق.

.. مسيرة حزينة هادئة.

عند دوّار ساحة الباب المعظّم، كانت الحشود تسّد ثلاثة شوارع متقاطعة، منتظرة تقدم النعش والمشيعين القادمين من الشارع الرابع.

...عند بدء السير في شارع الرشيد ارتفعت ترنيمة حاملي البيارق:

" ما نشف ما نشف ، دمه يسيل وما نشف "

" للنجف، للنجف.. ...."

كان في انتظار النعش أمام بوابة جامع الحيدرخانة الضخمة المشرعة صف من أئمة الجامع العريق.

ثلاثة أئمة مصلين على النعش تختلف أرديتهم وعمائر رؤوسهم ووضع اكفهم، وتتوحد أصواتهم بكلمات آيات وأدعية ، يبدأ بلفظها أوسطهم.. في انسجام منغّم.

...متوحدين في حب الله.

...وحب الوطن.

وقف ورائهم رؤساء الديانات الأخرى كل يردد ادعيته وصلواته بخفوت على طريقته.

رُفع النعش وخرج طائرا على الأكف والأصابع وارتفع نداء واحد متراص:

" لا إله إلا الله.."

" لا إله إلا الله "

" والله اكبر ولله الحمد "

ترتيل حشود تتناغم.

مناحة أمواج النسوة تعلو

صدى الهلاهل فوق السطوح.

.." ما نِشَفْ ما نِشَف، دَمّهْ يِسيلْ وما نِشَفْ "

وصل الموكب إلى منحدر الزقاق، حيث يقيم الجواهري وحيث خرج منه جعفر قبل أن يُصرع .. توقف الركب وأنزل النعش، وحين أشار الجواهري بأن الدار خالية قد هجرها أهلوها إلى النجف، وُضع النعش برفق على الأرض.. مقدمته تواجه الزقاق.. ترك لفترة قصيرة أعطيت فيها الإشارة للجميع بالصمت. رُفع النعش من جديد... استمرت المواكب في زحفها لتتجاوز جسر الشهداء حيث سقط جعفر وعشرات من رفاقه إلى جسر الأحرار لعبوره.

كان رتل السيارات يتقدمها النعش ملفوفا بالعلم العراقي، يُجبر بين الحين والآخر على التوقف أمام مراكز العشائر في القرى والنواحي، على الطريق المؤدي إلى كربلاء حيث يهرع أفرادها، سابقين الموكب إلى أكتاف الطريق، مطلقين الأعيرة النارية في الهواء، ومرددين أهازيجهم العشائرية..

حين يستجيب الموكب أو يجبر على الاستجابة، وعند الإصرار على الاعتذار عن عدم الاستطاعة لقبول ولائم العشيرة، يسارع أفراد منها إلى توزيع القهوة والماء من عشرات الدلال والأباريق على المشيعين.

يلقي شاعر العشيرة حسجته .. يهزج فيها.. يردد الجمع أهزوحته.

يعود الجمع كل إلى مكانه في وسائط النقل - السيارات والباصات واللوريات - وتستمر المسيرة بعد أن تُودع بأهازيج أخرى وأعيرة نارية في الهواء.

* * *

عشائر من الجنوب والوسط بأعلام وبيارق وعمائم وأهازيج.. حشود نسوة بعباءات سود في مسيرة طويلة..

مسيرة لطلبة (العلم) المدارس الدينية بعمائمهم الصغيرة تمشي بوقار وصمت وراء شيوخ بعمائم أكبر.

.. تظهر مسيرة طلاب المدارس بلافتات وشعارات وهتافات:

" يسقط..! " .." يعيش..! " .." الموت لل..! ".. " المجد والخلود..! "

.. كل المحال كانت قد أغلقت أبوابها قبل وصول الركب.

النعش يطفو ويتمايل وينحرف ويسير فوق الرؤوس في السوق الكبير المسقف.

" لا إله إلا الله "

" لا إله إلا الله "

" الله اكبر، ولله الحمد "

جموع تردد قول المشايخ

يُرجّعُ سقفُ الصفيح العتيق

..يعيد الصدى :

آآآآآه اكبببببر آآآآآآآهاأأأأكببببر.

على بوابات الصحن العلوي الشريف يقف صف من سدنة الضريح..يستقبلون النعش..يخترقون جموعا يكتظ بها الصحن الوسيع.. يُنزلون النعش أمام بوابات الضريح الذهبية:

" السلام على صاحب السكينة "

" السلام على المدفون بالمدينة "

" السلام على المرسل المُمجد "

" السلام على أبي القاسم مُحمّد "

" أأدخل يا الله..أأدخل يا.. أأدخل...أدخل.."

ويدخل النعش.

* * *

أنظر من خلال القضبان المفضضة بكراتها الضخمة إلى شيوخ النجف وإمامي جامعي الحيدرخانة وأبي حنيفة يتقدمهم كبير شيوخ الجواهريين في غرفة ضريح (صاحب الجواهر) من جامعه القديم الواسع، المكتظة ساحاته ومصلاّه الكبير بالحشود الصامتة، المنصتة إلى ترجيع الأدعية والصلوات فوق قبر رخامي أخضر لصاحب الجواهر.

...اعلم انه لا يرقد تحت التربة التي تلي ذلك الرخام بل عميقا في سراديب المدافن التي يعلو بعضها البعض، تحت الرخامة الخضراء.

.. هناك حيث تبرز جديلة أمي في السرداب الأول، معفّرة فوق الهضبة الترابية الصغيرة التي تفترش الجسد البالي.. أم أنها ثلة التراب تملأ عظام هيكلها العظمي الخاوي؟!

.. تنتابني قشعريرة تعقبها موجة ساخنة.

ابتعد عن مربعات الشباك الفضية بعد أن القي نظرة أخيرة على الأكاليل فوق المرمرة وحولها وعلى صورة الشهيد جميل المحيى بابتسامته المشرقة، المعلقة بجانب شيخ بعمامة كبيرة ووجه جاد..تزداد ابتسامته إشراقا:

" أحزر هالحزورة وخذ عشرة فلوس! "، قالها من وراء الصورة واختفى.

من احد الأزقة المؤدية إلى الجامع والمتراصة بالجموع لا تزال تسمع ترنيمة وإن خفتت:

" ما نِشـَـفْ، ما نِشـَفْ..دَمّـهَ يسـِيل وما نِشـَفْ "

***

يترجل شاب بهي الطلعة أليف الوجه مشرقا بابتسامة عريضة. ويبدأ السائق في مساعدته بإنزال الحقائب والسلال والصرر من السيارة الملطخة بالأوحال الجافة والأتربة.

يبلغك الخبر على الفور، وأنت في مكتبك بجريدة الرأي العام.

.. تهرع وعلائم الفزع تعلو وجهك..عيناك نصف زائغتين.

.. بقلق تقطع الامتارالقليلة المعدودة بخطواتك الواسعة، وكأنك تريد عبور مفازة محرقة على عجل.

أراقب من مكاني تبدل ابتسامة القادم من السفر وذبولها..

ذهول وحيرة.. ثم خيبة أمل.

...يقف نصف مشلول عند العتبات القليلة المتحدرة إلى الزقاق وأنت تتقدم تجاهه بغضب مدمدما بعبارات يتعسّر علي فهمها.

قبل لحظات كنتُ قرب المسافر المترجل بضجيجي وقفزاتي وبالفرحة الطفولية الباهرة أحاول المساعدة في إنزال الحقائب والأمتعة التي أنوء بها لأشبار.

كانت لحظات النشوة تشغلني عن فهم الموقف الغريب واستيعاب المفردات إلا عبارة واحدة كانت تتردد " شكو عندك؟"... غير أني بدأت أدرك عدم الرضا، بل وحتى الغضب العارم الذي كان بديلا عن الاحتضان وقُبل الترحيب وفرحة اللقاء..."لمَ قدومك الآن "؟!..." لمَ الآن؟ ".

لم يكن القادم من سفره إلا عمي في إجازة جامعة دمشق لنصف السنة الدراسية، ولم يكن ذلك الثائر الغضوب إلا والدي الذي لم تخفف المسافة المقطوعة من شدة هياجه.

الاثنان يواجه احدهما الآخر، ولا يزال العتاب شديداً والغضب عارماً.

وها أنا، وقد تحول ضجيجي وضحكي إلى نصف فزع، أرى الشاب الطويل البهي المرح قبل قليل، ينفجر بزوبعة بكاء هستيري، ومستديراً على عقبيه بحرقة وأذى واحتجاج، محاولاً الإمساك بمقبض باب السيارة التي لا تزال واقفة، و هاماً بالصعود والعودة.

وهنا تندفع أنت نحوه محتضناً إياه بشدة، وهو يقاوم بإصرار محاولاً الإفلات من كماشة ذراعيك والصعود إلى السيارة مكرراً " الآن أعود! "..." أعود! ".

تظل أنت ممسكاً به بشدة، ثم ضامّاً إياه إلى صدرك. رأسك يعلو هامة رأسه الغائص في صدرك العريض وهو يختض ببكاء عنيف مصحوب بحسرات عميقة وهو يكرر " أعود!... نعم أعود! ".

أخذت تقبل رأسه، تطلقه لحظة من إسارك لتعود محتضنا إياه، وها أنتما صامتان برهة،

يقف أحدكما بمواجهة الآخر، الأول بابتسامة دامعة والثاني بمعالم ممازحة ومراضاة، وكان هنالك من يشاهد عن قرب من أهل الزقاق وآخرون ممن يمرون على رصيف شارع الرشيد الذي تقفان عليه، متطلعين بفضول إلى الموقف الغريب. كانت يمينك تحتضن هذا الشاب المتراخي الآن وأنتما تنزلان سلالم الزقاق وكأنك تخشى أن ينزلق طفلك الصغير فيؤذي نفسه، في حين راحت يدك اليسرى تنفّض بين لحظة وأخرى عنه غبار السفر العالق على ملابسه.

* * *

حدث هذا بعد يومين فقط، على زخات الرصاص، ولعلعة صوتها المفزع، والذي كان مدير مدرستنا الابتدائية يمر خلالها على الصفوف مهدئا ومحذرا وناصحا في الوقت ذاته، ثم ليقف قرب باب المدرسة مراقبا ومنظما لخروجنا بمجاميع صغيرة، موصيّا إيانا بأخذ الأزقة دون الشوارع مساراً إلى بيوتنا.

لكن فضول الخوف أقوى من أي نصيحة وتوجيه... وها أنا عند رصيف شارع كبير مشرف على ساحة حافظ القاضي أرى ما لم استوعبه كاملا.

... بخوف التصق بحائط مجاور، متحاشيا تقافز وتراكض مجاميع من الشباب ما بين الشوارع والأرصفة... البعض لايزال حاملا لوحة قماش مكتوبة ومرفوعة على عودين، صارخا بصوت عالٍ " يسقط.. "..'' يعيش.. ".. " الموت لـ.."، في حين قفز آخرون على الرصيف والتفتوا مترقبين ما يحدث خلفهم، على حين ركضت مجاميع أخرى تحمل لوحات قماش نصف مطوية إلى زقاق قريب... وها هي موجات تتراكض بشكل أسرع مارة على مقربة من موقعي من الجدار، وهي توجّه بعضها البعض إلى الممرات والأزقة القريبة، تتبعها مجاميع وأفراد من الشرطة ببنادقها ومسدساتها، عابسة الملامح مطلقة كل أنواع عبارات السباب المقذع وهي تجري وراء هذه المجموعة أو تلك. وبين حين وآخر كانت تسمع أصوات أعيرة نارية من قريب وبعيد.

لا اعرف ما السبب في إنني، وفي وضعي المفزع هذا، كانت أحاسيس التعاطف هي مع هؤلاء المتراكضين من الشباب المحمرة وجوههم بالانفعال، والذين كانوا يصرخون " يسقط.." "يعيش.." بل إنني حضرت تشييع احدهم بعد أن سقط برصاص الشرطة، وكنت أقف إلى جانب أبي على حافة القبر حين كان الجسد الملفوف بالكفن الأبيض يُنزل إلى الحفرة الرهيبة، وكانت هناك أصوات تعلو مرددة يسقط .. يعيش.

لم افهم رهبة الموت والقبر والكفن في ضوء الظهيرة داخل المقبرة، ولكن الفزع الليلي عند محاولة الإخلاد إلى النوم، بعد رقاد جميع من في البيت كان أسطوريا.

.. كانت حكايات الجن السابقة التي سمعتها تحرك كل "الطناطل" والعماليق والأشباح، وكان عزرائيل يدور في ظلمات الغرفة..عيناه مدورتان، جامدتان، ضبابيتان كعيون الأسماك، حاملا شباكه السوداء بيمينه وشوكة ضخمة مدماة بيساره.

... يبرز ملء العين والسمع في الظلمة منكر ونكير بهراوتيهما وأقلامهما احدهما يعدد الذنوب ويسجلها، على حين يقوم الآخر بتهشيم الجماجم والأضلاع ويتبادلان مهمتيهما بين الحين والآخر منعا للتعب.

قفزت من سريري وأنرت الغرفة واندسست بحذر إلى جانب أخي الصغير.

* * *

مارش عسكري يليه المذيع الجهوري منبهاً عن قرب إعلان نبأ هام...الموسيقى المعزوفة تثير الحماس تماما كتلك التي كنا نسير على أنغامها منتفخي الصدور في ساحة الكشافة مزهوين بملابسنا الكاكية بقياطينها وأشرطتها اللماعة. كنت ادورعلى أنغام المارش، في رواق البيت الشرقي المفتوح ذي الأعمدة مردداً اللحن ذاته بصوت عالٍ وماشياً مشية العساكر متعالياً متباهياً..حقا إنه لشيء جميل ومثير وبطولي.

كان اللحن يتكرر بعد كل إعلان مجدد للمذيع "بعد قليل نذيع عليكم نبأً هاماً!!".

وحانت لحظة " النبأ الهام " وصمت البيت. وصمتت الحارة. وكأن الكون كله قد صمت.

كان كل من في البيت يجلس بتوتر وترقب وتحفز.

... وبدأت التفاصيل تعدد الكثير من الأشياء الجميلة حقاً والفخمة. وها هو الصوت الجهوري الدفيء يتحدث عن القوة والمنعة والدفاع ضد العدوان المرتقب، وعن حماية الوطن المقدس، وعن طائرات طالما حلمتُ بقيادتها، وعن مطارات وجيوش كنت أتخيل قادتها ومارشالاتها بأوسمتهم الذهبية اللماعة... عن صديقتنا بريطانيا العظمى، التي كانت أميرتها ولية عهد التاج الملكي الجميلة إليزابيث والتي كنت أراها على شاشات السينما بثيابها المزركشة البيضاء المحلاة بالجواهر، حينما كان الكبار يصطحبونني على مضض بعد إصرار وبكاء، والتي كنت على يقين - أثناء مشاهدتها في الأخبار السينمائية -من أنها ستكون زوجة المستقبل دون أي منازع.

.. حزنت لاحقا حين علمت أنها خانتني ولم تنتظرني واختارت شخصا آخر اسمه دوق وندسور

رغم كل ما كان يسرده المذيع من كل هذه الأشياء الجميلة ،وكان غريبا جدا أن الحظ أن الوجوم ومعالم الألم والرهبة هي التي كانت تعلو وجوه أهل البيت.

وينتهي السرد المفصل ويعزف الراديو المارش العسكري المثير فانطلق إلى الرواق لأواصل استعراضي الصاخب عبره، وكلما اجتزت باب غرفة الجلوس لاح لي منظر الجميع بوجومهم وصمتهم.

...تخف خطواتي... أجد نفسي في النهاية " سخيفا " فأتوقف.

كنت على يقين مسبق، من أنهم لا بد سيطربون لتلك النبرات والعبارات القوية الثابتة وهي تتحدث عن كل ما يثير ويبعث على الزهو... طائرات، طيارين... مارشالات، دروع... صداقة بريطانيا العظمى...العظمى.

.. لابد أن هنالك شيئا على غير ما يرام... تعبير ذو وقع غريب يتردد على أفواه الجالسين... تسمية يبدو أنها تستثيرهم... شيء جديد عليّ كان اسمه " معاهدة بورتسموث "

لا اعلم لماذا لم تغمض لي عين إلى ساعة متأخرة في تلك الليلة.

الجو في البيت مشحون بأشياء لم أعهدها فيه سابقا.

فرات وجعفر يعودان متأخرين، ومن غرفتنا التي أنام فيها مع إخوتي الصغار واختنا الكبرى، اسمع وبرهبة صوت أبي يتصاعد وهو يحذر، ويتوعد أخي وعمي جعفر إن هما خرجا غدا من البيت... يحاول أن يأخذ عهدا خاصاً من جعفر... يجيبه عمي مازحاً " آني وين وها القضايا التعبانة وين؟! "... حين يستمر الوالد في ثورته، اسمع جعفر بنبرة مازحة من جديد " يا خويّ لا تسويها جديات... د جيب فد بوسه... بوسة لآخوك الصغيرون وروح نام... لا تقلق روح نام! " ثم يعطيه وعداً إضافياً بأنه هو نفسه من سيمنع فرات من الخروج لو حاول ذلك.

كل ذلك المشهد أراه واسمعه من الشباك ذي القضبان الحديدية المطل على الرواق والغرف المقابلة.

يتصاعد بعدها لغط وهمس وحركة متزايدة بين غرف الوالد وجعفر وفرات.

... تستمر تفاصيل هذا المشهد لفترة غير قليلة من ليلة السابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٨.

يهدأ البيت بعدها هدوءاً يبعث فيّ نوعا آخر من الخوف غير خوف "الطناطل" والأشباح والجن الذي يهاجمني في الليالي حين ارقد في سريري انتظاراً لإغفاءة مرتقبة.

كم هي جميلة عطل المدارس الفجائية وتناول طعام الإفطار مع الجميع دون إجبار على الاغتسال بالماء البارد واللبس على عجل وحمل "عليجة" الأثقال بكتبها ودفاترها على الظهر والتي كانت عندي عنوان إذلال وعبودية.

.. ها قد حلت تلك المناسبة الجميلة غير المتوقعة... لقد عُطلت المدارس... آه حبذا لو كان هنالك في كل شهر معاهدة!!

جو البيت كان مشحونا بالصمت على غير العادة... الخالة أم نجاح تجلس في ركن غرفة الجلوس المزودة ببعض التخوت والبسط الممدودة.

تجلس متربعة وأمامها السماور وصينية أقداح الشاي... لا تستطيع ملامحها إخفاء زوبعة القلق حتى ولا عليّ...

صمت حزين. جعفر يجلس على التخت المجاور مرتديا كامل ملابسه استعدادا للخروج... الوالد على غير عادته قد غادر عند الإبكار.

آخذ مكاني واجلس بهدوء حذر... لا أجسر على أي حديث حتى ولا على طلب الإفطار.

- الله يخليك!... الله يخليك تكف الشر ولا تطلع اليوم!... لخاطر الله اسمع كلامي!

- والله للحمّام... يحاول إقناعها، بأنه لم يغتسل منذ قدومه... يعرض عليها صرّة ملفوفة.

- إي نعم... والصرة معباية مناشير!، تجيبه ساخرة.

تتوسل إليه مرة أخرى أن يتكفى شر ال" الشيطان اللي ما مات "، ويبقى مع فرات في البيت.

... يغير الحديث ملطفا الجو بمزحه ونكته، ورواية أحداث طريفة مرت عليه قبل حين.

كان قدوم جعفر إلينا بين الحين والآخر مصدر مرح وضجيج وتنظيم العاب جماعية وبالطبع يصحب ذلك فوضى مثيرة صاخبة. وكنا نحن - اصغر من في البيت - نجد،

وبشكل دائم، السبيل إلى أن " يتحفنا " ببضع آنات أو حتى عشرة فلوس كاملة، متظاهرا بأنه خسر هذه اللعبة أو تلك المباراة أمامنا.. فلوس كان تكفي لشراء أشياء، وأشياء، وأشياء.

فجأة وبعد عبارتين لبقتين أو ثلاث مع أم نجاح خرج وكأن الأمر طبيعي تماما.

- ياربي مررهذا اليوم على خير .. يا رب!! ... يا سميع، يا مجيب!

كان دعاء الخالة أم نجاح يعلو بصوت متحشرج رافعة كفيها صوب السماء.

عبود، حارس المطبعة العجوز يلقي تحية الصباح ويسأل عن جعفر وفرات، فهو مرسل من قبل " الأستاذ " للجلوس عند عتبة باب الدار لمنع خروجهما.

بعد التحايا والاستفسار المتبادل عن صحة الأهل والأولاد وسير الدنيا العجيبة، يسحب عبود احد الكراسي ليجلس عند مدخل الدار بثقة، مخرجا علبة تبغه المعدنية المسودة، لافّا سيجارته بهدوء واطمئنان عميقين.

أرى فرات يتسلل كالقط الحذر عبر سلالم السطح... اتبعه، فيشير إلي بسبابته على فمه علامة الصمت، فألتزمه.

يتسلق بمهارة ستارة السطح الفاصلة بيننا وبين جيراننا ويختفي وراءها.

أعود بحذر وسكون إلى رواق الدار فرحا بلعبة الاستغماية المثيرة تلك... ها أنا الآن مؤتمن على أسرار هذه اللعبة الجديدة.

ينكشف السر بعد فترة قليلة، ويرتفع صوت الخالة بالبكاء والشكوى إلى الله عاليا يعقبه دعاء مؤثر حار... " ربي عديها على خير هذا اليوم... يا رب!".

يخيم صمت ثقيل على البيت.

يمر الوقت متباطئا.. تنفجر أصوات رصاصات قريبة مدوية مرعبة... اقفز دون وعيّ مني، لانبطح تحت طاولة الطعام في غرفة الاستقبال... يتواصل رعيد زخات الرصاص... ينقطع فترة ليعود من جديد مقتربا آنا ومبتعدا آنا آخر... أحس بالخجل من خوفي اللعين هذا ومن مكان الجرذ هذا تحت طاولة الطعام... اخرج وابحث عمن يتواجد في الدار... تأخذني الرهبة حين أجد البيت خاويا... أو هكذا كان يخيل لي.

تدب حركة قلقة في الدار، يكثر اضطرابها مع ازدياد زخات الرصاص وتزايد نعيب صفارات سيارات الإسعاف المقتربة حينا والمبتعدة في حين آخر.

... لا غداء هذا اليوم... الغريب أن لا جوع أيضا.

يخلو البيت من الجميع... الكل يتراكض عبر الزقاق صوب مدخله على شارع الرشيد لمشاهدة حشود المتظاهرين، وحين يلعلع الرصاص تندفع موجة من النسوة الهاربات إلى أعماق الزقاق على حين تعلو زغاريد الأخريات ممن بقين عند مدخل الزقاق، لبث الحماس في قلوب الشباب المتظاهر غير العابئ بالرصاص.

تخف أصوات الطلقات وتتباعد عند المساء. ويعود الوالد منفعلا محمر الوجه ويبدأ وصفه بانفعال وإثارة لمشاهد أحداث اليوم مما سمعه ومما رآه بعينيه، وكيف انه وبعضاً من النواب كانوا يرقبون من مبنى البرلمان المطل على الجسر العتيق سقوط الضحايا وكيف كانت ردة الفعل الغاضبة لدى هذه المجموعة من أعضاء المجلس النيابي والبالغة واحداً وعشرين عضواً، والتي سارعت إلى تثبيت استقالتها من المجلس وإدانتها للمعاهدة والجريمة المرتكبة بحق المتظاهرين بوثيقة مكتوبة، وكيف انه كان أول اسم أدرج في قائمة وثيقة الاحتجاج والاستقالة تلك.

كان في حديثه نبرة من الزهو والتفاخر بملاحم وبطولات الشباب الغاضب، ويقينه من انتصار الشارع الثائر في نهاية المطاف.

...فجأة ينبري للسؤال عن جعفر وفرات، وحين يعلم بغيابهما عن المنزل يبدأ بإنزال غضبه على الجميع دون استثناء.

... يظل يتردد بين مكتب الجريدة على بضع خطوات، وبين البيت :

- "ها ماكو خبر من جعفر؟..ماكو خبر من فرات؟"

ويتكرر السؤال مرة هنا ، ومرة هناك.

حمدا لله لقد حضر فرات أخيرا عند المساء.

... لكن ليس هنالك خبر عن جعفر.

* * *

- تلفون أبو فرات!

يهرع إلى مكتب الجريدة، ليعود " جاسم " مراسل الجريدة منفعلا ويخبر من في البيت بان الجواهري قد توجه إلى " المستشفى المجيدي "، لإصابة جعفر إصابة بسيطة، كان من المفضل نقله إثرها إلى المستشفى.

يهرع الجميع باتجاهات مختلفة، إلى غرف متفرقة من الدار..تُرتدى العباءات، ورغم تكرار جاسم في وسط الدار " الإصابة بسيطة يا أم نجاح!... والله الإصابة بسيطة يا أميرة! " لكن الجميع يتسابق في الخروج.

تخلو الدار مرة أخرى إلا من الخالة " طليعة "، التي كانت تجلس ممسكة مسبحة طويلة سوداء، متمتمة بالأدعية ومن آن لآخر كان الصوت يعلو ..." يا الله!"... "يا حسيب! "..." يا مجيب "..." يا رحيم "..." ياعظيم ".

* * *

أمس كنت في رواق المستشفى النظيف اللامع انتظر مع الآخرين خروج الطبيب من نوبة الفحص المسائية. وخرج ملتمع الوجه والملابس البيضاء يبتسم قائلا : " كل شيء على ما يرام...إنشاء الله هنالك تحسن اليوم ".

بدأ الجميع بالدخول وتبعتهم بحذر ورهبة... وعند عتبة الباب المفتوح توقفت.

بعد لحظات من قيام الجميع بتقبيلهم له واحدا إثر واحد، وبعد ترتيب الأوراد في أوعيتها، انتبه إلى وقوفي بعيدا فأشار إلي برأسه، ثم بصوت ضعيف واهن وابتسامة متعبة " تعال يمي أبو حسن ...تعال هنا! "

كان شحوبه شمعياً، لكن وجهه ظل يحمل تلك الوسامة والوداعة اللتين عهدتهما فيه على الدوام... كان قد طلب صبيحة ذلك اليوم أن يُحلق له وجهه وان تبدل ملابسه. وكان قد سُمح له لأول مرة بتناول كمية قليلة من الأغذية السائلة بعد عدة أيام.

اقتربت بحذر ورهبة. ابتسمَ مشجعاً وحاول أن يمد إلي يده... أمسكت بها، فشد بأصابع حاول جهده أن يضع فيها كل قوته، كعادته كل مرة حين كان يعطيني كفه

للمصافحة، أيامها كان يهصر كفي الصغيرة بشدة تثير ألمي وإعجابي في الآن ذاته، ولتمتد بعدها يده إلى جيوبه لأمنح عشرة فلوس كاملة.

لم يكن الاهتصار هذه المرة وللأسف مثيرا للألم ولا للإعجاب، كان الاهتصار ضعيفا للحد الذي أثار فيّ موجة من الحزن غمرتني بشكل مفاجئ... غالبت نفسي إلا انطلق في موجة من البكاء.

...لإعادة البسمة، أشار إلى جدتي أن أُمنح عشرين فلسا..." قرانا كاملا ".

...لم أحس بأية فرحة لهذه المكافأة الضخمة.

...لا اعلم لماذا غمرني حزن ووحشة شديدان عند استلامها من يد "حبابتي" المرتجفة.

كان الجميع يتظاهر بالمرح وبالتشجيع إلا " الحبابة " جدتي، التي كانت كل حركاتها دالة على القلق الظاهر، الذي تحاول جاهدة إخفاءه بالتشاغل بترتيب مفرش الطاولة أو إبدال مواضع أقداح الماء فوقها أو فتح وغلق خزانة الملابس الصغيرة في ركن الغرفة... كان فمها وهي تتنقل بإعياء وبطء هنا وهناك لايفتر عن ترديد الدعاء والانتحاء بأسماء كل الأئمة والصالحين.

* * *

حين اجتزنا بوابة المستشفى إلى الشارع، وقفت جدتي لحظة صامتة، مطأطئة الرأس... وقف الجميع بجانبها بصمت خاشع.

... تركت مداسيها الأسودين البسيطين على رصيف الشارع... نزعت عن ساقيها جوربيها... تركت " شالها " الأسود يسقط على كتفيها وعباءتها إلى الأرض... فكت أزرار قميصها عند الصدر وأمسكت بحاشيتيه المفتوحتين ثم رفعت رأسها إلى السماء " يا ربي..يا سميع، يارحيم، يا مجيب

...غوثك وعونك يا إلهي...غوثك وعونك يا الله، بجاه الحبيب المصطفى...بجاه أئمتك الصالحين!"

" بجاهك يا موسى بن جعفر...بجاهك يا بو الجوادين "... ثم انطلقت بلهفة المنكوب للفرج القريب، حافية، حاسرة الرأس، عارية عن عباءتها، مفتوحة الصدر... " جيتك يا بو الجوادين..!"، "جيتك يا موسى بن جعفر!"

الساعة الثامنة مساءً.

نداء تلفوني إلى مكتب الجريدة يُبلّغ مضمونه إلى من في البيت على عجل...يبدأ تخاطف العباءات ويهرع جميع من في الدار من الكبار إلى المستشفى...البيت يخلو من جديد.

...حزن ووحشة يهصران القلب...لا مكان لخوف الأشباح هذه المرة رغم الظلام ورغم خلو الدار.

لا إغفاءة مرتقبة ولا نوم. الوقت يقارب منتصف الليل وأنا امتد في فراشي منذ ساعتين مترقبا.

...تتصاعد صرخة الم رهيبة ممزقة سكون الليل يتبعها نداء استغاثة حاد... صوت يطلب الغوث، يناشد الرحمة، يستنجد، وهو من دون كل الأصوات المتداخلة المتعددة يصل إلى سمعي واضحا نافذا إلى أعمق أعماقي.

" يا يمّه...يا حْبْيّبْي يا يمّه!"

قفزتُ... هل قفزت من السرير أم إني قفزت من الطابق الثاني؟، لا اعلم!... غير أني ومع هذا النداء الممزق كنت أقف عند نهاية الرواق القصير.

كان الباب مشرعا وحشد من النسوة بين متربعة ومتكئة وواقفة ومن تنود، ومن تلطم وجهها.

لم يسترع انتباهي من بين هذا الحشد إلا تلك الكتلة السوداء المتموجة المتلوية، والتي كانت تمتد منها ذراعان نحيفتان تمسحان الأرض الحجرية بحركة نصف دائرية.

... تعود هذه الحركة مرة وأخرى ومرة ثالثة بصمت... فجأة ينطلق من تحت هذه الكتلة المتلوية السوداء صوت مفزوع يشبه الحشرجة " يا يمّه...يا ولْيدي...يا حبيبي يا يمّه " ثم يرتفع وجه شمعي المعالم، جاف الحدقتين، وسيعهما، ويلف الجمع بنظرة زائغة يميناً وشمالاً دون أن يلحظ شيئا مما حوله. يعود الرأس لينتكس وينزل متحدراً ومتلمساً وماسحاً الحجر البارد، وتعود الذراعان إلى الحركة نصف الدائرية ذاتها وكأنهما تبحثان عن تراب يحثى على الرأس.

... حين لا تُجدي هذه الحركة الباحثة، يرتفع نصف الجسد وتتحرك الذراعان لتطرقا بمجامع كفيهما بقوة وعنف على الصدر الضامر الحاسر الذي نطت أضلاعه. كان صدى تلك الطرقات يعلو على نحيب النائحات الأخريات.

لقد كانت الكفان المعروقتان تمتدان هذه المرة، باحثتين بإصرار عن شيء ضائع تحت أعلى الرداء الممزوع... تبحثان عن ذلك النابض بعنف بين الأضلع النحيفة تريدان اقتلاعه.

* * *

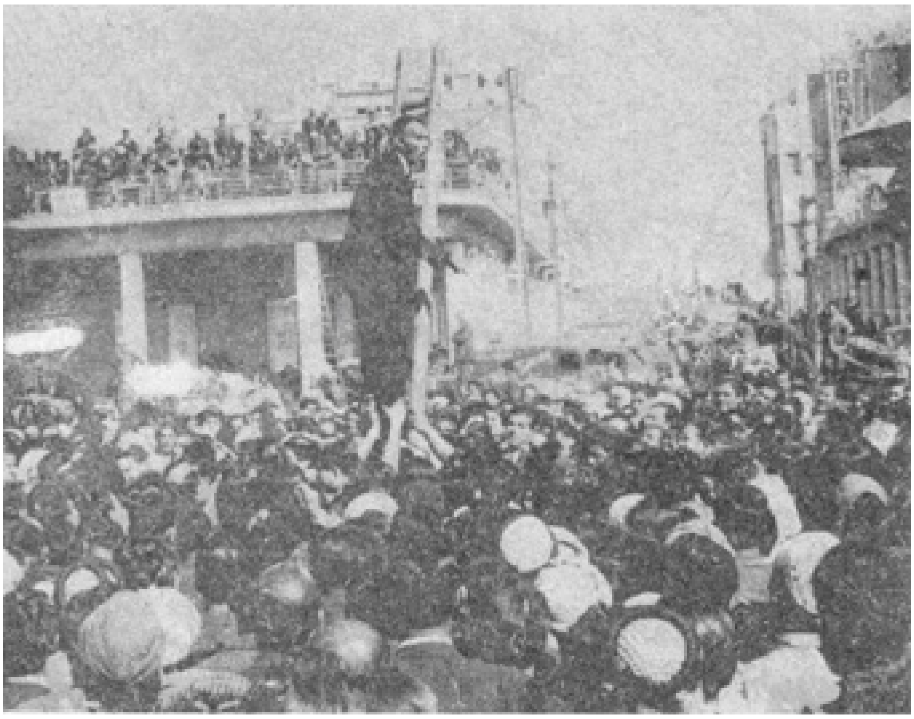

الجواهري محمولاً يلقي " أتعلم أم أنت لا تعلم .." - الوثبة ١٩٤٨

" وجاءت معاهدة بورتسموث الجائرة بحق العراق والتي تنال من هيبة الوطن العراقي لتكون الشرارة التي نزعت صاعق الفتيل وصعدت غضبة الجماهير لتحتشد في الشوارع بمظاهرات صاخبة اكتسحت بها كل قوة الحاكمين وأسلحتهم وسلطاتهم العاتية...

لقد ثار طلاب كلية الحقوق ضد المعاهدة وبنودها ومشبوهية القائمين على توقيعها وهاجمت الشرطة هؤلاء الطلاب وأوقعت عددا من الجرحى في صفوفهم...

وما لبث الحماس الثوري وردود الفعل الطائشة من الحكومة أن جعلا من شوارع بغداد بركاناً مهيأً للانفجار في كل لحظة، حيث انتشر الطلاب ومعهم جموع غفيرة من المواطنين في كل حي وشارع وهتافاتهم تشق عنان السماء.

وكنت قد أصدرت جريدتي(الرأي العام) المسائية في نفس اليوم وهي تحمل مقالا افتتاحيا خطيرا ومثيرا، احمل فيه على تجاوز رجال الشرطة للقانون واقتحامهم مقر الكلية وسقوط الجرحى في ساحتها.

قبل هذا الموقف كنت احد المعارضين في إحدى جلسات مجلس النواب لبنود هذه المعاهدة الظالمة الجائرة التي تكبل العراق لمدة خمسة وعشرين عاما بقواعد عسكرية وارتباطات تخدم بريطانيا طيلة هذه المدة، ولا يحق لأحد الطرفين - بريطانيا والعراق - الإخلال ببنودها دون موافقة الطرف الآخر، ومعنى ذلك أن يبقى العراق مكبلا مدى الأبد ما لم يفرج عنه الطرف الأقوى...أي بريطانيا نفسها.

المهم إن الجماهير المنتظرة شرارة الانفجار اكتسحت الشوارع والساحات واشتد غضبها في الليل وتمردت على كل أشكال القمع وتحدّت أزيز الرصاص والطلقات الحية القاتلة ودفعت أمامها رجال الشرطة هاربين ليختبئوا في الجوامع والمدارس.

لقد كنت في المجلس النيابي صبيحة ذلك اليوم المشهود، حين ابتدأت معركة الجسر . ومازلت أتذكر حتى هذه اللحظة، المهزلة التي كانت تتم فصولها في جلسته الأخيرة حيث كان عبد العزيز القصاب -

رئيس المجلس - فرحا مرة وساخرا مرة، ومتشفيا ثالثة، وكان لسان حاله يقول : سأكون البديل المنتظر، أو انه كان يؤمل نفسه بمنصب جديد في المرحلة الجديدة، وهي الحالة التي كانت الطبقات الانتهازية تتصيد خلالها الفرص، غير عابئة بدم الشباب ولا بتضحيات المخلصين واندفاعاتهم ولا حتى بمستقبل الوطن نفسه. "

" وفي ذلك اليوم أيضا كان ابني فرات، وهو ابن الثامنة عشرة مندفعا متهورا شأنه شأن كل من عاش في بيت الجواهري، كذلك كان أخي جعفر الذي جاء بصورة مفاجئة إلى العراق من دمشق لمجرد أن يموت. لقد كانا يشكلان لدي قلق المحبين وخوفهم والرعب الداخلي من الآتي.

وحين اشتد صوت الرصاص في الشوارع، وكنا ما نزال في المجلس النيابي، وجدت نفسي مندفعا خارج المجلس لأصل إلى الشارع برغم منع الحراس لي ّ ورغم التماسهم بعدم الخروج وبرغم تحذيرهم من الرصاص المتساقط على الجدران.

واخترقت الشوارع والرصاص يتساقط حولي يمينا ويسارا بكل جرأة لأصل البيت، وبكل لهفة وريبة

سالت زوجتي وكأنها المعنية بكل شيء : " هل جاء جعفر؟ "...

قالت : لا

قلت باللهجة الدارجة : " هسه يجيبوه "، إي الآن سيأتون به.

ولم تمض فترة طويلة على توجسي وقلقي وترقبي، حتى سمعت نبأ يقول :

لقد وقع جعفر صريعا على الجسر... وصدقت نبوءة الشاعر، ويا لمرارة نبوءات الشعراء.

بعد فترة قصيرة جدا كنت على باب المستشفى الملكي لأرى جعفر محمولاً وهو غارق بالدماء وكان ما يزال على قيد الحياة... رأيته وليت صورته هذه تستطيع أن تغادر ذاكرتي.

وقتها تذكرت جعفرا وأنا أقول له على الفطور بعد احتضان وتقبيل وقبيل مغادرتي البيت :" لك الحق يا أخي جعفر أن تشارك فيما يشارك الآخرون وان تعبّر عن عواطفك ومشاعرك الوطنية وأن تكون مع من تقع على أكتافهم مهمات الثورة ضد الخيانات والتخاذل والتآمر. ولكن ليس لك الحق في أن تدفع بنفسك إلى الموت

كالمنتحرين... وليس لك أن تواجه الرصاص بصدرك الأعزل فالحياة لأمثالك أجدى... والبقاء لشبابك أمضى "... غير أن ضراعتي هذه لم تجد، ورجائي هذا لم يثمر... وتعقلي هذا لم يستطع أن يطفئ النار التي تشتعل ثورية في داخله أو تقلل من الحماس الذي كان يجري في عروقه... وابتدأ جعفر مرحلة الصراع مع الموت... صارعه بكل ما كان يملك من وعي، صارعه بكل ما كان يحمل من إرادة، صارعه بكل ما يملك من شجاعة.

وكان طبيعياً والجرح قتال أن يعجز الأطباء الكثيرون وفي مقدمتهم شيخ الأطباء الوتري والجراح الشهير نجيب اليعقوبي عن إنقاذ حياته.

وما زلت أتذكر أنه قال لي وهو مؤمن بأنه سيفارق الحياة : كل ما أريده منك يا أخي ثلاثة أبيات في رثائي... ومات جعفر...

قضى جعفر نحبه... كانت آخر كلمة يلفظها وأنا اقبله قبلة الوداع " أمي ". ناديت على التعيسة أمه التي كانت تسهر وأخته الوحيدة معها طيلة ليل ونهار الأيام السبعة الذي قضاها في المشفى، وقلت لها جعفر يريدك.

جاءت وقبلته وأظنه قبلها وكانت آخر ومضة من حياة هذا الشاب.

أذيع النبأ لتزحف الجماهير صبيحة اليوم التالي وعقب إذاعة النبأ وتوزيع الملصقات، تزحف بعد أن نظمت الأحزاب الصفوف المواكبة للتشييع. واحتشدت الجماهير الغاضبة والجماهير الموالية للأحزاب وجماهير كل المؤمنين بالقضية الوطنية ودماء الشهداء، لتشهد بغداد ما لم تشهده إلا يوم انتحار السعدون حين قلت :

نِصفانِ بغدادُ فنصف مَحشَرٌ
ساحاتُهُ اكتظَّتْ ونصفٌ بلقعُ
احذرْ لسانيَ أن تكونَ مقالةً
ليستْ تليقُ بهِ فَإنكَ تُقطعُ

فمن الجانب الغربي منها من الكرخ حتى الكاظمية وعبر الأعظمية زحفت المواكب ووصلت الجانب الشرقي من نهر دجلة لتصب جميعها في جانب الرصافة عابرة جسر

الأحرار الواصل بين الجانبين إلى حي الصالحية حيث تحرك موكب التشييع لجنازة الشهيد إلى مقره الأخير بجانب آبائه وأجداده في مقبرة آل الجواهري بالنجف. وكانت الجنازة تكبر وتكبر والنعش يمر وتنضم إلى المشيعين وفود المستقبلين في المحمودية والمسيب والحلة وكربلاء...

واصل الموكب طريقه إلى النجف وفيه كل الطلائع الثورية للشباب، وفيه نماذج من الكهول والشيوخ وكان يوماً مشهوداً في كل تاريخ النجف، حيث أغلقت الأسواق وعطلت المدارس وغصت الشوارع بالجماهير المستقبلة وتناثرت أكاليل الورود من كل حدب وصوب وعلت هتافات الجماهير وبكل العاطفة المتوثبة وصدق المشاعر تراكضت الجموع إلى المقر الأخير للشهيد جعفر

ومن مفارقات الأحداث أيضا إن والدة الشهيد جعفر، وهي المتعبدة المؤمنة بالله والقدر، المحبة كثيرا لابنها المدلل المجتهد الطموح، المقاتل، البائس، اكتفت بضربة أو ضربتين على ركبتيها ليس إلا، حين عرفت أن جعفر قد فارق الحياة، ومن يومها وحتى يومها الأخير وهذه الوالدة الطاهرة ظلت تفترش الأرض وتنام على سجادة الصلاة وكأنها تريد أن ينطبق واقع حالها على الأمر الواقع، أي تنام على الأرض التي يرقد قريبا من سطحها جعفر مهما يكن من أمر. "

الجواهري " ذكرياتي "

أتعلم أم أنت لا تعلمُ
بأنَ جِراح الضحايا فمُ
فمٌ ليسَ كالمُدعي قولةً
وليسَ كآخرَ يسترحمُ
يصيحُ على المدقَعينَ الجياع
أريقوا دماءَكمُ تُطعموا
فقلْ للمقيم َعلى ذلهِ
هجيناً يُسخَّرُ أو يُلجمُ
تفحمْ لُعنتَ أزيز الرصاص
وجربْ من الحظِ ما يُقسمُ
فإما إلى حيثُ تبدوا الحياة
لعينيكَ مكرمةً تُكرَمُ
وإما إلى جدثٍ لم يكنْ
ليفضلهُ بيتكَ المظلمُ

***

أخي جعفرا يا رواء الربيع
إلى عفنٍ باردٍ يُسلمُ
لثمتُ جراحكَ في " فتحةٍ "
هي المصحفُ الطهرُ إذ يلثمُ
وقبلتُ صدركَ حيثُ الصميم
من الصدرِ منخرقاً يُخرمُ
وحيث تلوذُ طيورُ المنى
بهِ ، فهي مُفزَعةٌ ، حُوَمُ
أخي جعفراً لا أقول الخيال
وذو الثأرِ يقظانَ لا يحلمُ

أرى أفـــــقــــــاً بـنجــــيع َ الـدمــــــاء

تَــنـوَّر واخــــــــــتـــــــــــفـت الأنجُـمُ

١٩٤٨

* * *

دَبــّــتْ عــلــيــكَ زواحــــفُ الأعـــــــــــوام َ

وبَـرئـتَ مـن جُـــــــرح ً وجُـــــــرحـيَ دامـي

وبرئـتَ من هزء الحـــيـــاةِ ببـــعـــضـــهـــا

وتـــضــــــــــــــاحُـك الأيــام بـــالأيـــام َ

عـــشــــرون!! طالتْ حــيثُ مـــرّت قـــبلَـهـــا

خـــمــــســـون وهي قـــصـــيـــرةُ الأرقـــام َ

شـــوهاء غــــصّـتْ بالـفظائع َ كـــأسُــــهـــا

وأمَــــــرهُـنَ فـظــــاعــــــــة ُ الأوهـام

١٩٦٨

الحسناء والشاعر

فلاح الجواهري - ٢٠٠٧

الحسناء والمعري

يصل الهمس الموسوس إلى أسماع أم نجاح فتضحك

- أنت تمزحين معي يا أم علي..هذه إحدى نكاتك.

تصمت أم علي بوجوم لفترة

- كان من الواجب أن أخبرك كقريبة وصديقة، أحسن من أن يصلك الخبر من غيري وربما بشماتة

- تعنين انه وصل إلى بغداد وانشغل عنا ليوم أو يومين؟

- انه هنا منذ أسبوعين..لقد استأجر بيتا قرب الجريدة.

تنصت أم نجاح هذه المرة بجدية وبوجه بدت عليه معالم القلق والارتباك.

- مهما تكن مزاجاته وظروفه لا يعقل أن لا يمر على البيت حين عودته من الشام ليطمئن على البيت والأطفال..خبريني الحقيقة أنت تخفين شيئا أهم..تكلمي لقد أوقعت قلبي وهددتِ حيلي.

تكتئب أم عليٍ..يتعرق وجهها المفرط السمنة..تلقي بعباءتها التي لا تزال تتهدل من على كتفيها..تخرج منديلا مجعّدا من احد جيوب ثوبها الأسود، وقبل أن تمسح وجهها المتعرق تخاطبني

- يرحم روح أمك الطاهرة..قدح ماء!

أتحرك عنهما ببطء شديد لأتسمع بقية ما يقال.

- قولي ما عندك!..أم علي، لا تعذبيني أكثر!

تتنحنح المرأة السمينة المتربعة أمام خالتي :

- انه في هذا البيت المؤجر مع زوجته السورية.

- ما هذا الخلط الذي تقولينه، أنت تنقلين أكاذيب وتقوّلات أناس مغرضين يريدون الشماتة بابي فرات و بي أنا..حسد وغيرة، قاتلهم الله هم لا يتركوننا بحالنا..وأنتِ كيف تصغين وتنقلين هذه الأكاذيب...واستمرت خالتي بالدمدمة ثم اخذ صوتها يرتفع بغضب وكأنها ستقدم على ضرب المرأة المفرطة الطيبة كسمنتها.

تصمت أم علي بسهو مطأطئة رأسها للزوبعة التي كانت قد توقعتها.

حين تجابه أم نجاح الصمت الطويل المفزع ذاك ، تسأل بصوت متكسّر بالعبرة المختنقة :

- كلامك أكيد؟!..من مصدر موثوق؟!

- ليس هنالك أكثر ثقة من أبي علي وأنت تعرفينه..لقد طلبه أبو فرات وأوصاه أن ينقل كمية من النقود وهدايا للأطفال جلبها لهم من سورية.. أبو علي ارتأى أن أفاتحك أنا بالأمر وانقل الأمانة المرسلة.

نكّست أم نجاح رأسها وبدأت دموعها تسيل بصمت، أعقبتها شهقات مسموعة تحولت بسرعة إلى نشيج بدأ يتعالى باطراد مع ازدياد انحناءة الجسد المختّض.

البيت كئيب..جميع من في البيت يتنقل دون صوت مسموع يتحركون في مهماتهم واحتياجاتهم كالظلال وما يجب قوله كان يدور همسا.

أراقب بقلب كسير المرأة التي عصّبت رأسها بمنديل تخفيفا للهم والصداع وهي تهيم دون قرار في إرجاء البيت تبحث عن زاوية جديدة لم تسّح فيها دموعها بعد، مرة بصمت، ومرات بنشيج يتصاعد ليصل إلى غرفة نومنا في الزاوية العليا من البيت المكشوف على دجلة والسماء.

مرت أيام وأضحت كآبة البيت شيئا ثقيلا أثّر حتى على اهتماماتي الطفولية داخله ، بل وحتى مع صحبة الزقاق خارجه، تلك التي كنت أراها قبل ذلك سعادة لا تضاهى، أصبحت مجرد ملاذ اهرب فيه من الجو الخانق الكئيب.

.. زوبعة البكاء وهستيريا الغضب تلتهب وتستمر لأيام، بعد كل محاولة من الوالد لدخول البيت، إذ أن هذه المحاولات المعدودة كانت تجابه بمتاريس من الصراخ والنحيب وقذائف من الكلمات القاسية تجعل اجتياز ممر مدخل الدار الذي لا يتجاوز أربعة أمتار شيئا خطرا إن لم يكن مستحيلا، مما يجبر الأب الدخيل على التراجع أسيفا غاضبا.

كانت محاولاتي اللحاق به شوقا لا تفلح ، إما لاحتضانه لي فترة قصيرة في

الزقاق، يجد فيها نفسه مضطرا بعدها وعلى عجل، أن يقنعني بالعودة قبل أن يصبح المشهد مثار فضول الجيران المتعاطفين قاطبة مع الجارة الطيبة المنكوبة ، أو إنني كنت أمنع من قبل خالتي التي تحول ذراعيها الممسكة بي بشدة عن اللحاق به حين خروجه.

بدأت الأمور تهدأ قليلا في البيت بعد نصائح الجارات المتقاطرات بانتظام ..بدأت الخطط تحاك لتخطي مرحلة هزيمة المعركة الأولى والانتقال إلى العمل الجاد للهجوم واسترداد المواقع.

ضمن التمائم و الرقى والتعاويذ وأنواع العمل المجرب لدى النخبة من المهجورات والطليقات السابقات، وزيارات مراقد الأئمة والشيوخ المعصومين وأصحاب الطريقة، كنت أنا محورا رئيسيا وسلاحا في الخطة المرسومة. ففي الوقت الذي كان فيه فرات وأميرة شقيقتي الكبرى يريانه خلسة وعيانا ، كنت احرم من زيارته، لا في مكتبه في الجريدة - وبالطبع - ولا في البيت الجديد " الملعون " للجواهري، كان جاسم عريبي ساعي الجريدة بل وحتى مصطفى البلام يعودان خائبين حين يرسلهما الوالد ليرافقاني إليه لساعات، أو للمبيت معه في عش غرامه الجديد وكنت أعلن بعد أمثال ذلك المنع ثورتي وعصياني، وكانت حجج إقناعي : أن هذه المرأة الجديدة إن هي إلا غولة بشعة.. سعلاة شرسة قد تفترس الأطفال الصغار.

لم اصدق ذلك تماما ولم أكن استسلم لهذا التحريم .. كنت أجابهه بالزعيق والبكاء، بل وحتى بالشتائم، وبالتهديد بالهرب من البيت و الالتحاق بالزوجة الدخيلة والبيت الجديد.

..بدأت هدايا الخالة أم نجاح تزداد وتحولت معاملتها إلى شكل ارق بكثير مما سبق وأخذت المعاملة الجديدة تفعل فعلها في تهدئتي.

..واتى اليوم السعيد ويبدو انه كان ضمن خطط و نصائح الحلفاء، حائكي خطط الهجوم المضاد من الجيران والأقارب ..سمح لي بالذهاب، ولكن بعد أشكال عديدة من الاستمالة وأخذ العهد عليّ بالتعاطف مع الطرف المحب والحريص و" المظلوم " قي آن واحد، وذلك بالاستماع إلى التوصيات قبل مغادرتي.

..أخذت أؤكّد محبتي وتعاطفي بصوت ضاحك سعيد وشفعتُ تأكيدي ذاك بقبلات عديدة على وجه خالتي الدامع.

لا أتذكر من الذي أوصلني إلى ذلك الزقاق في منطقة باب المعظم ، والذي يواجه مدخل وزارة الدفاع.

كنت في حالة سيئة من الرهبة والاضطراب لدخولي بيت السعلاة المحرم، ولم يخفف من هلعي وغربتي من المكان الذي دخلته استقبال والدي المرحّب المرح، ولا شوقي الشديد لرؤيته بعد انقطاع طويل.

بعث البيت الشرقي الكبير ذو الدورين الكآبة والعتمة الموحشة في أعماقي عند دخوله، رغم انفتاح باحته لصفحة السماء والنور.

..أجيل النظر باستغراب في الغرف العديدة الفارغة، بأبوابها الخشبية العتمة.. بشبابيكها الطويلة العديدة المحزّمة بقضبان معدنية سوداء، والتي تطل جميعها في الدورين على ساحة الدار المربعة...أتوق في الحال إلى النهر الوسيع والنخيل المترائي على الضفتين والشرفة الرحبة المفتوحة عليهما ، إلى الزقاق المنحدرة جوانبه على الشاطئ الرملي، إلى الكتل الحجرية القديمة السابحة في الماء، إلى تقافزنا من فوقها إلى عمق دجلة.

".ها قد وقعت في المصيدة! ..لا عبودي ولا برهم ولا عمر!..راحت عليك لعبة الكعاب والدعبل ، ومقايضات الزنابير والنحل تلك التي كانت تتم في الزقاق عند الظهيرة بين رفقتنا شلة الزعران كما تسميها الخالة."

" أريد أن أعود الآن!!..كيف والوالد يحتضنني بلا فكاك؟!..كيف وقد أغلق الباب الضخم بالترباس خلفي.."

- تعالي.. تعالي هنا..فلاح أتانا

"..ورطة جديدة.. كيف سأواجه هذه التي تخيفني خالتي بها.. السعلاة..سارقة الرجال؟!

"اثبت!.. تشجّع! أنت في حماية أبيك! "

اسمع صوت أقدام تنزل السلم وتقترب.

..أحاول استجماع شجاعتي(كرجل) لمواجهة الموقف .

..أشم رائحة عطر خفيف

..يحتضنني جسد لين ناعم برداء حريري تنتشر فيه حديقة من الأوراد الوردية والحمراء والصفراء..العطر ينبعث بشكل أشد من حديقة الأوراد.

أهدأُ قليلا.

..اهدأُ كثيرا.

بركبة مثنية وأخرى نصف مثنية تقف إمامي واضعة كفين رقيقتين على كتفيّ

..ترفع وجهي المرتبك الخجل المتجه إلى الأرض

..أراها تنظر إلي بحنان مفرط قبل أن تضمني من جديد وتغمر وجهي بالقبلات

..يعبق عطر البستان من جديد.

انظر بخجل وخوف إلى وجه السعلاة

..تتسع حدقتاي وأجمد في مكاني من الدهشة.

تنطلق تنهيدة الرهبة التي انحسرت

..الوجه الذي احدّق فيه لا يثير الفزع .

أحس بفرح غامر.. ها قد تجاوزت الخطر المخيف!

..أرى ابتسامة ودودة يعقبها صوت ناعم :

- يا دلّي يا دلّي شو محبوب هالعفريت الصْغير..

أتملى في الوجه الذي أمامي بشجاعة.

..الابتسامة لا تزال تنثر الفرحة في الوجه الجميل.

ابيض كالحليب.. يتهدل على جانبيه شعر اسود ناعم كالحرير.. خصل تتدلى بمرح فوق جبهة عالية..عينان وسيعتان سوداوان .. خدان متوردان وفم برقوقي صغير

..إنها أجمل حتى من جارتنا سنية حسناء زقاقنا .

قبلت سنية قبل أسابيع ..وعدتها إنني سأتزوجها بعد عشر سنوات حين الحق بها ونصبح أنا وهي في عمر واحد.

..أعيد النظر من جديد.

.. سحر السعالي لا يدوم طويلا..سيختفي..ستظهر على حقيقتها المخيفة بعد لحظات..

..لاشيء يتبدل!!

..تظل هي هي!!، أجمل من سنية.
تسحبني ممسكة برفق بذراعي إلى غرفتها في الدور العلوي
..الغرفة واسعة جميلة الترتيب..معطرة بعطر البستان الذي فاح من أوراد ثوبها
..تخرج من أدراج طاولة زينتها العريضة ذات المرآة الواسعة أشياء ملفوفة بأوراق ملونة.
..تجلسني في حضنها وتفتح اللفائف.
..لعب صغيرة وحلوى على شكل فاكهة مختلفة..
تقبلني من جديد.
..نُفذت التوصية الأولى .. " معرفة السعلاة ".

* * *

لم أر والدي ولا في أي يوم في بيتنا بمثل هذا المرح والانطلاق، فوجهه إما ضاحك أو مبتسم أو على الأقل ينضح بالرضى..مليء بالحيوية والنشاط ..يعبث كثيرا مداعبا أو ممازحا الصبية التي لا تكبر جارتنا سنية – ابنة السابعة عشرة – كثيرا.. يتبعها إلى أماكن لم أكن أراه يتواجد فيها في بيتنا.
.. لم يكن يتركها وحدها إلا ما ندر.
بدا لي والدي في عمر ونضارة وعبث عمي جعفر..أصغر أعمامي.
..حديثه ومزاحه معي قد زادا أيضا عما في بيتنا.
.. أوشكت وحشتي أن تزول.
هي!!.. يا لها من " سعلاة " تبعث المسرة؟!
..لم أرَ وجها بتلك الانطلاقة والسعادة والرضى في كل الوجوه التي كانت تحيط بي في بيتنا أو حتى في غيره.
..تم تنفيذ التوصية الثانية.." مراقبة تصرف الاثنين ".

* * *

حان وقت مغادرة والدي إلى الجريدة عند العصر. نزلتْ لتوصله إلى باب البيت وبقيت أنا في غرفتها في الدور العلوي.

كنت أراقبها من سياج الممر المشرف على باحة البيت وهي منهمكة إما برش أرضيتها، أو ترتيب فرش التخوت الشرقية الأنيق

..دخلتْ إلى المطبخ واختفت..من أصوات القدور والصحون أدركت أنها تعد طعام العشاء كي يكون جاهزا عند عودة الوالد.

..ها قد حانت اللحظة المناسبة لإثبات ولائي .

أسرعت عائدا إلى غرفتها ولم يطل بحثي، فأمامي وعلى منضدة التواليت العريضة بمرآتها الكبيرة ، تصطف مجموعة من قناني العطور، وقناني أصباغ، وعلب دهان، ومساحيق بأشكال وألوان مختلفة جميلة .

..أفرغت قناني العطور برشها على اقرب مكان من المنضدة..سكبت قناني الأصباغ والدهون وبعثرتها ..نثرت كل المساحيق الطحينية البيضاء والوردية فوق أرضية الغرفة.

ما أن أتممت مهمة الإزعاج ,والإيذاء في التوصية الأخيرة حتى زال عني فوراً هوس اللحظة المجنونة .

.. ألقيت نظرة على المنضدة وأرضية الغرفة الصاخبة بفوضى الألوان والروائح.

ها قد أتممت التوصية الثالثة.." الإيذاء "

* * *

..تملكني هلع لم أحسه مع أية " مكسورة " سبق وان قمت بها.

..لا استطيع الهرب!!..لم يهدني تفكيري إلى أي خلاص .

أتيت أجرجر قدميّ بخذلان إلى سياج الممر.. وضعت ذراعي فوقه ووسّدت رأسي..

تاه بصري المشتت في ساحة الدار الفارغة.

- شو بك حبيبي؟!..ليش هيك الحلو زعلان؟!..مستوحش حبيبي؟! ..تعا معي!.. تعا! بدي فرجيك شي كتير حلو!

سحبتني برفق من ذراعي باتجاه غرفتها.. تبعتها كخرقة عالقة برأس مطأطأ.

.. أسقطت ذراعي فجأة عند الباب.

– شو هاي ده؟!..شو لي صار؟!..صرختْ بفزع وألم.

تحركتْ بخطى وجلة مخذولة..وقفت عند حواشي المساحة المبعثرة من الغرفة منكّسة الرأس. جلستْ على حافة السرير محنية بكامل جسدها تجاه الأرض..

ساد سكون مرعب، أعقبه صوت نشيج..الصوت المختنق بدأ يتعالى..اخذ جسدها النحيف يختّض مع نوبات البكاء المتصاعد.

..أحسست بألم يخنقني..خجل لم يسبق أن شعرت به بعد أية " مكسورة " سابقة مهما كانت شنيعة ..بدأتُ ببكاء صامت.. تحول الصمت الدامع إلى نحيب فاق نحيبها.

..غامت الغرفة وكل ما حواليّ بسيل من عينيّ وانفي وفمي.

.. لم أحس بالطريقة التي جرتني بها إلى جانبها من حافة السرير.

..أخذنا نبكي سوية.

مسحت عني دموعي برفق بكفيها، ثم بمنديلها الصغير.

– ليش هيك؟.. ليش عملت هيك حبيبي؟!

..عاد الخزي يستثير بكائي من جديد.

– يالله اووم، ولا يهمك!.. ما اولنَهْ بيكفّي!..انشالله تؤبرني، بيكفّي حبيبي!.. اووم! اووم بنلّم الحاجات اللي وعو من دياتك..اوم حاجة بئا!!

احتضنتني بصمت فترة غير قصيرة.

..بدأ عطر ورد البستان يفوح من جديد.

– وشو يعني؟! أنا كمان كنت بكبْ حاجاتْ في البيتْ متما بزعل.. يا لله نلمْ أنا وياك الحاجات اللي نكبو.

حين عاد الوالد في الليل، كانت قد أزالت كل ذلك الخراب تقريبا، وعلى المائدة المزينة بصحون الأكلات اللبنانية اللذيذة كان حديثهما مرحا مثل ما كان في الظهيرة.

بقيتُ رغم اهتمامها بي في الحديث والطعام ارقب اللحظة التي ستخبره بها بـ"مكسورتي الشنيعة ".

..لا اعرف والى يومنا هذا هل أخبرته، أم لا!

.. تشارف الآن على ثمانينها..تحية محبة للحورية الجميلة أينما وجدت!!

* * *

" قبل أن اخرج من بغداد كانت تتوالى أنباء مهرجان الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة أبي العلاء المعري والتمهيدات لعقد المهرجان في سوريا، وكنت شخصيا أوالي نشر أخبار هذا المهرجان يوما بيوم من خلال جريدتي الرأي العام .

كذلك كانت الصحف والمجلات العراقية تنشر أخباره وأسماء المشاركين فيه، ولم أكن من بينهم.

وكانت جريدة القبس بين أيدي الباعة فنادى الأديب المعروف سعيد الجزائري على احدهم ليأتي بها، ووجدت في محل بارز فيها خبرا عن انتدابي لأكون ممثلا للعراق في مهرجان أبي العلاء المعري.

..ونحن في هذا الحديث دخل صاحب شركة النقل، وأعلمني أن السفارة العراقية بدمشق تطلبني على الهاتف، فذهبت معه فإذا بالسفير العراقي بدمشق يعلمني أن المسؤولين في بغداد طلبوا منه بإلحاح شديد أن يحملني على المشاركة في المهرجان..فقلت " الم يكن بوسع من أبلغوك أن يبلغوني قبل هذا وأنا بينهم ببغداد وعلى اقرب مسافة منهم؟ ".

فأجاب " اقبل يدك! هذا الفخر يعود إليّ في موافقتك، لأنني المكلف ليس فقط بإبلاغك وإنما بإقناعك "

وقد أخجلني الرجل في الواقع فقلت له " إكراما لعينيك سأحاول. ومبدئيا سأقبل التكليف ".

سهرت ليلتي الأولى حتى الصباح وألحقتها بأخرى، وكانت حصيلة الليلة الثالثة من هذه النهارات والليالي الثلاث، قصيدة دالّية ، لا تقل عن السبعين بيتا.

كنت أراجعها وافحصها وأتمعن بها فلا أجد المعري فيها، فغضبت عليها ومزقتها قطعا متناثرة.

..صادفت صديقي الشاعر الأصيل عمر أبو ريشة و ذهبنا سوية إلى مغنى الطاحونة الحمراء وهناك انطلق ليقول " اقتربت الأيام...ماذا عندك؟ "

ضحكت وقلت " يا أبا الخطاب الليلة قبل البارحة تلقيت النبأ وأنا هنا، وحاولت ليلتين ساهرتين فلم استطع شيئا مما أريد ". بعد الليلة الثالثة، كما قال الحكيم الإغريقي " وجدتها! "..بيتا واحدا فقط :

قفْ بالمعـــــرةَ وامــــسحْ خـــــدَها التـَرِبا
واســـتـــوحَ مـن طوّقَ الدنيــــا بما وهبـــا

في اليوم التالي، سألني : ماذا بعد؟ قلت : ولا بيت! قال : " عصر اليوم سيكون موعدنا معا في وادي العرائش بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة صهري، فعسى أن تأتي السماء أو يأتي الإله، أو شيطانك أنت بالذات، ليوحي لك بشيء! ".

ذهبنا سوية إلى لبنان، إلى بيته في زحلة، وهو ما يشبه القصر الفخم ، ثم توجهنا إلى وادي العرائش الساحر، وهناك أقيم الحفل وأقول حفل ، لأنه لم يكن عزاء. إذ جرت العادة عندهم حين يفقدون عزيزا ألا يزيدوا الجو الحزين نحيبا ولطما للخدود وشقا للجيوب وإنما يعقدون جلسة مسلية معزية في آ ن واحد، ومعها كؤوس عرق على موائد كريمة. وكان هذا من التقاليد الحضارية الجميلة، التي أعجبتني.

قال لي عمر : تعال وجرب شيئا جديدا!، سأنتقل بك إلى عش آخر...عش جميل، وطائر جميل..جرب نصيبك واستوح منه ومنها.

فقبلت ذلك ممتنا، وصحبني إلى ذلك العش، على ربوة خضراء في زحلة وكان أصحابه من صغار المزارعين.

استقبلتنا بالباب، تلك الصورة الماثلة أمام عيني حتى الآن : الفارعة، البديعة، الفاتنة.

لم يطل عمر الحديث معها بأكثر من جملة واحدة : إنني أضع بين يديك اعز من عندي.. وأريد أن يستوحي عندكم وحيا وإلهاما.

جلست، وجاءت الفاتنة، الساقية، وكنت أنا في مثل هذا الحلم الجميل، تائها، شاردا، لقد كان مزاجي وما يزال عجيبا، فالكائنات ومن فيها، وما فيها لاتهمني بقدر ما يهمني أن التقط بيتا ثانيا أو ثالثا. والفتاة تتفرس بهذا الطائر الجديد، الغريب، العجيب.

ولم ألمس، بطرف من أناملي تلك السيدة الجميلة، ولم الثم الوجه الساحر الذي يقتحم عيني ونفسي وضميري، واكتفيت من الجلسة الملهمة باحتساء كأس من الشراب، وتمددت على الفرشة المهيأة لي.

في الغبش،انسللت وأصحاب المنزل في سبات، وأظن أن أحاديثهم في الصباح دارت عن هذا المتطفل الطارئ الفريد من نوعه. "

الجواهري " ذكرياتي"

* * *

" الجواهري ضيف على عائلة بيضون اللبنانية – السورية العريقة .

..تتقدم ابنة المضيف بأقداح المرطبات،.. صبية في الثامنة عشرة من عمرها ، رشيقة القوام، أنيقة في ملبسها المتواضع ..الوجه صبوح رائق البياض متناسق التقاطيع..العينان وسيعتان سوداوان، والشعر منسدل فاحم.

..تتقدم بخفر وحياء تجاه ضيف العائلة الذي سبقته شهرته إلى البيت، ذلك الرجل الفارع الطول الأنيق الذي يتحدث بصخب ومرح غزلا وشعرا .

..تلتقي عينا الشاعر بعيني غادة الجبل..تسري هزة بارقة بين القطبين.

.. ظلَّ الوجه الفاتن باشراقة ابتسامته الخجولة يؤرق ليل الشاعر..يضنيه..يوقد فيه أنواراً وعطوراً ملائكية.. تبد ل الصور مواقعها آنا وآخر مع شياطين شعره..الهمس لم يتحول بعد إلى كلمات شعرية.. فيلسوف المعرة لا يزال بعيدا.

..لا سبيل إلى الملائكة..لا مدخل للشياطين..لا وسيلة للنوم.

..في الغبش ينسل الشاعر وأصحاب المنزل في سبات.

..حديثهم في الصباح دار عن هذا الطائر الغرد الفريد. "

متابعُ حدث

* * *

" خرجت، على نية الاتجاه إلى دمشق، كان ذلك يوم السبت، ولم يبق على موعد افتتاح المهرجان إلا ما يزيد عن يومين أو ثلاثة بقليل، فوجدت الناس قادمة على العكس، من دمشق إلى زحلة، قلت لنفسي : " لماذا أنا ذاهب إليها ومن وادي العرائش نفسه؟! وفي هذا اليوم الموعود بخاصة؟! "..ففضلت البقاء في زحلة. "

الجواهري " ذكرياتي"

* * *

" الجواهري قادم من زحلة. يجلس سارحا في المقهى العربي الذي يتردد عليه كلما كان في دمشق.."

" تلك الصبية الرقيقة الخجولة.. ذلك الوجه الساحر ..يا لرنة موسيقى صوتها الساحر.. وجهها خيال شاعر صوتها نغمة الشعر ..أنت يا من تبحث عن الشعر..إنها الشعر صورة وصوتاً."

" أنت لا تستطيع فكاكا من قدرك..قدرك ليس في المعري وحده..قدرك في ملاك الشعر الذي يطير بك إلى أجوائه..هذا هو يومك الخاص الموعود! "

" يترك الجواهري فجأة مكانه وصحبه في المقهى الدمشقي ويعود "

"..تفتح هي الباب."

" – كنتُ متأكدة من انك لابد عائد. "

".. يتقدم الشاعر العاشق إلى أهلها طالبا يدها. "

متابع حدث

* * *

" تصرمت الظهيرة الطويلة في صيف زحلة ووادي العرائش، انتبذ ت زاوية، وعلى صورة أسطورية، وجهي إلى الجبل، وظهري إلى الناس، عسى أن يكون ذلك أكثر من إشارة إلى من يراني بالتعطف علي وتركي وشأني. وانتصب أمامي كأس عرق، لفائف تبغ، ونرجيلة معاً.

..ما أزال مؤمنا وموقنا أن الإنسان كائن ، مخلوق من هذا العالم، غير أن قضية الفن والفنان وامتزاج المرء بعوالم أخرى عن هذا الطريق فهي شيء آخر!

..وأنا على مثل هذا الحال من الضياع، كنت اسمع همسا آخر خارجا عن نفسي، فأسرعت بإمساك القلم لضبط الحروف والكلمات لكي لا يفوتني شي ء، وإذا بهذا الهمس يتحول إلى أبيات ثلاثة :

أعدت النظر وأنا أكاد لا اصدق هذا الهمس في الحروف التي أمامي، فضربت الطاولة بجمع يدي وبدون توقف ركبت أول سيارة عائدة إلى دمشق ليلا.. القضية انتهت وتوقف الهمس، وصمتت النفس عن حديثها، وأصبحت القصيدة كلها في جيبي. "

* * *

"..وبينما كنت القي القصيدة كانت يدي اليمنى تمتد عفو الخاطر، إلى الكتف اليسرى للدكتور طه حسين الذي كان يجلس إلى جانبي:

سَلَ َالمقــــــاديرَ ، هـل لا زلـتَ َســــــادرةً
أمْ انتَ َخـــجلى لما أرهقـــتـــــه َنـَصَبــــا ؟
وهـل تـعـــــمّـَـدتَ َأن أعطيتَ َســــائِبـةً
هـذا الذي مِن عـظيمً مــــــثلـَه َ سُــلِبــــا
هـذا الضـــــيــــاءَ َالذي يَـهـــــدي لمكمنـِه
لِـصاً ويرشــدُ افــــعىً تـنـفـثُ العَطَـبــــا "

الجواهري " ذكرياتي "

* * *

قفْ بالمعــــرّة َ وامـــــسحْ خـــدّها التـــــرِبا
وأســــتـــوح َمن طوّقَ الـدنيــــا بما وَهبــــا
واســـتـــوح َمنْ طَبّبَ َالدنيـــا بحكمـــتــــهِ
ومنْ عـلى جُــــرحـــهـــــا مـن روحــــه َسَكبــــا

على الحصير وكوزالماء يَرفده
وذهنه ورفوفٌ تحملُ الكُتبا
أقامَ بالضجة الكبرى واقعَدها
شيخٌ أطلّ عليها مُشفِقاً حدَبا
بكى لاوجاع مَاضيها وحاضرها
وشَامَ مُستقبلاً منها ومُرتَقَبا
سَل المقاديرَ هل لا زلت سَادرةً
أمْ انتَ خَجلى لما أرهقتهَ نَصَبا
وهل تعمّدتَ أن اعطيت سَائبةً
هذا الذي من عظيمٍ مثلهَ سُلِبا
هذا الضياءَ الذي يَهدي لمكمنهَ
لِصاً ويُرشِد افعىً تنفثُ العَطَبا
لثورةِ الفكرِ تأريخٌ يحدّثنا
بأنَ ألفَ مسيحٍ دونَها صُلِبا
آمنتُ بالله والنورِ الذي رَسَمتْ
به الشرائعُ غُرّاً مَنهجاً لَحِبا
لكنَ بي جَنَفاً عن وعيَ فلسفةً
تَقضي بأن البرايا صُنفتْ رُتَبا
وأنّ منْ حِكمةٍ أنْ يَجتني الرُطبا
فردٌ بجُهدَ ألوفٍ تَعلكُ الكَرَبا

الجواهري ١٩٤٤

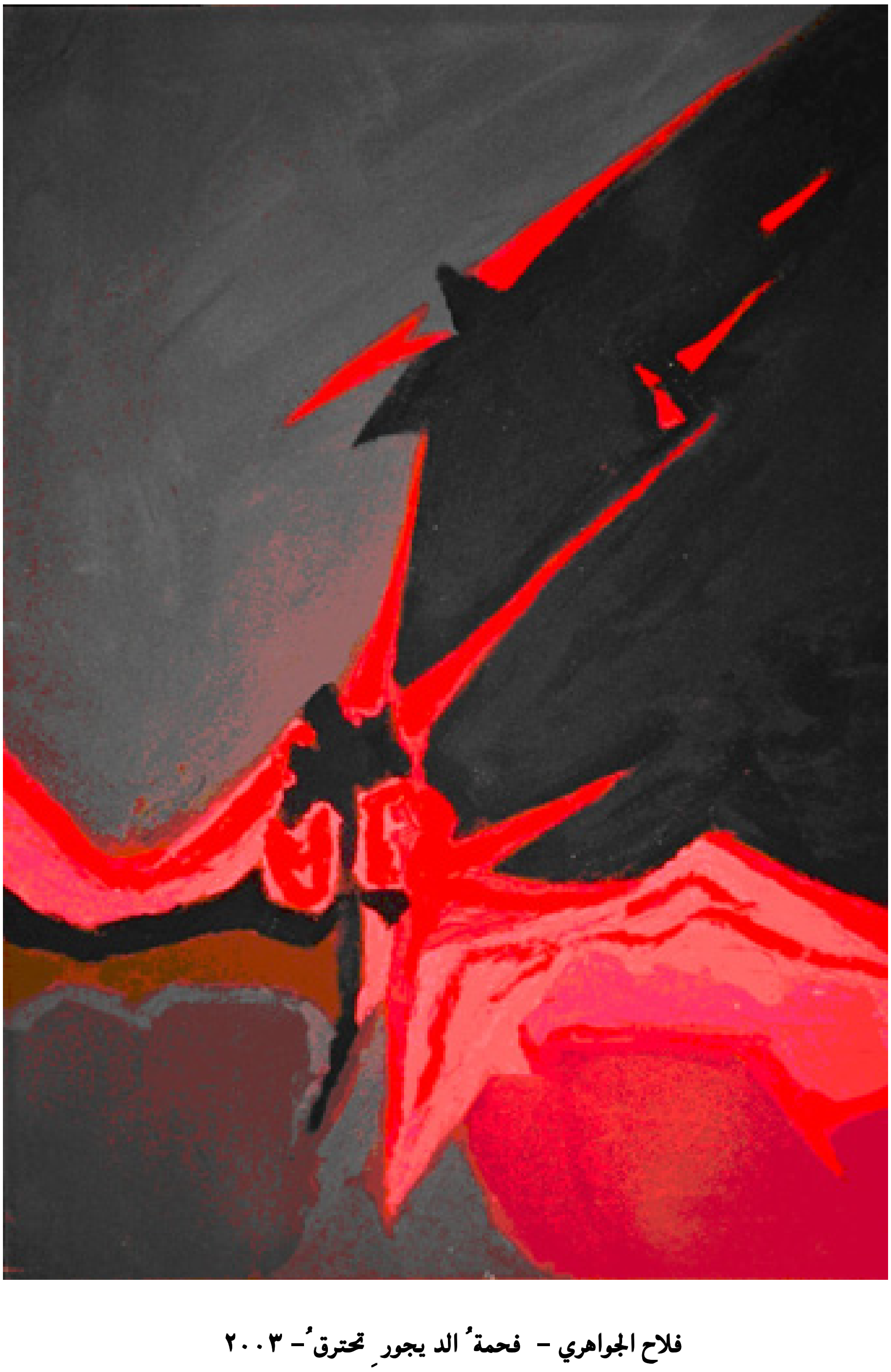

فلاح الجواهري - فحمةُ الد يجورِ تحترقُ- ٢٠٠٣

القاهرة - أحمر..أسود !!
أسود.. أحمر!!

- هل تعرفين سبب ثورة الجواهري في المطار؟ سأل فرات
- عدم تنظيم خالتي - أم نجاح - لمعدات وملابس ووثائق سفرنا. أجابت أميرة
- انك مخطئة تماماً.
- ما هو برأيك إذاً؟..اهو وصولنا إلى المطار غير مبكرين؟
- ولا هذا أيضاً..انك تجهلين الجواهري. لقد كان ذلك حججاً مفتعلة لينفجر بالهياج المصوغ على هيئة غضب، لا لشيء إلا ليغطي ضعفه في أن يودّع أبناءه الثلاثة..أن يشهد سفرهم أمامه..أن يطيروا وهو حاضر إلى ارض بعيدة

أن يشهد فراقهم لأمد طويل..القاهرة بعيدة يا عزيزتي!..انفجر بالغضب والنقمة على الجميع لأسباب واهية، والحقيقة دون إي سبب، وصبّ شتائمه على الخالة، وغادر المطار حتى دون أن يعانقنا هروبا من ضعف لا يريد أن يراه احد فيه .. إنه يكره الوداع!..

اذكري لي مرة واحدة في مطار أو محطة كان فيها مودعاً حتى لأقرب الناس إليه؟

- والله صحيح - قالتها بعد لحظة سهوم وتفكير - لا اذكر مرة واحدة.
- لقد أشفقت عليه بشدة في تلك اللحظات..انه لا يطيق أن يشهد أحد لحظات ضعفه وانفعالات تأثره في حزن أو وداع، بل حتى في فرحة لقاء شخص عزيز.. مِرجل من المشاعر المغيّبة.

كنت استمع إلى ذلك الحوار وأنا اجلس جوارهما على مقعدي المحاذي لنافذة الطائرة وأنا أداري خليطا من الحزن والإثارة والحلم، ملقيا ببصري إلى الغيوم وبقع الضوء والظل المتسابقة على مربعات الأرض المتباعدة في الأعماق.

" الأصدقاء..الصخب واللعب على ضفاف دجلة..مسابقات العوم، معارك القوة والنخوة والغيرة الصبيانية.. الطناطل المردة، حكايات الجن وعنترة وأبو زيد الهلالي في أقاصيص الليل على شطئانها..كل ذلك أصبح بعيدا الآن.."

" المدينة العريقة الضخمة آتية، تلك التي كنت تحلم بان تراها كلما شاهدت فيلما مصريا..أزقتها العتيقة، مقاهيها الحافلة بالنور والصخب.." واحد كركاديل.. واحد قهوة على الريحة يا عم حنفي وصلّحو!!..اسم فخم يشبه الكركدن..لكن ما هو شكل وطعم الكركديل؟!..كيف تكون القهوة عل الريحة؟!..وكيف يصلّح عم حنفي هذه الطلبات!..القلعة..الهرم..النيل..الترام.. " ايوه كده..أ ُمال..يا جدع..هل ستستطيع أن تقلدهم في نطقها هناك..

لمّ َ لم يثر غضب أبيك في المطار فزعك؟.. أثار عطفك وشفقتك وحزنك..من سينقل الآن " سفرطاس" غدائه إلى الجريدة.." تفضل أستاذ فلاح فد لقمة وياي.." كم كنت اشعر بعطف كبير تجاهه وهو يفترس طعامه كنمر جائع

..ما هي الغربة التي تتحدث عنها جدتي بمرارة، " شلون إلك صبر يا مهدي إ تيّهم ببلاد الغربة.."..

" الرجاء شد الأحزمة استعدادا للهبوط في مطار بيروت " ، يرتفع صوت قائد الطائرة.

وشوشة البحر عجيبة، غامضة كالفضاء المترامي الأبعاد.. نثار النجوم في بحر السماء.. الجوف الأظلم يبتلع كل ما حوله أضوية الرصيف الكابية ، هفيف النسمات، صدى الموج المتهامس، يبتلع جوف الظلام كل ما حولي، حتى حواشي الساحل الرملي حتى أجزاء من الجروف الصخرية..يكاد يسحب مبتلعاً الرصيف العريض المقفر الذي أقف عليه وأعمدة الضوء الكابية..أشباح الفنادق القليلة المنحدرة تزحف بسكون صوب الهوة العميقة..ازحف معها كلها صوب الغور..

..أجهد في تثبيت قدمي على أرضية الرصيف .

.. إذا هو ذا البحر العجيب..!!

الزرقة المخضرة..اللازورد..تتخطى زجاج النافذة..تنساب في الغرفة الأنيقة الواسعة..تعلو.. ترتفع..أجدني طافيا وأنا في سرير الفندق الوثير وسط البحر الممتدة أبعاده إلى حواشي الزرقة الأرجوانية الخفيفة المنسدلة كالوشاح عن صفحة السماء المنثنية برقة فوقها.. .. .. ، ..، ..

اهرب على عجل وقبل إكمال إفطارنا نحن الثلاثة في شرفة الفندق الواسعة إلى الرصيف الخالي إلا من أفراد قلائل من مارة متأنقين.

استمر في السير اسيح في الزرقة المخضرة في عوالم البحار السندبادية السبعة..معارك السفن (القرصان القرمزي) (القرصان الدموي)..(كابتن هوك).. تتباعد وتتشابك الصواري في البحار الهائجة وسط العواصف المزمجرة..تشتد معارك القراصنة..

يرتفع صوت احد المارة.. أصحو إلى الزرقة الشافة الهادئة أمامي..ها قد وصلت إلى مشارف المدينة المكتظة.

يقترب شاب بملابس قروية.

- أحمر أسود!..أحمر أسود!..أسود أحمر!

..يعرض أمامي وعلى إفريز الرصيف العريض ورقتي لعب سوداوين وثالثة حمراء.

- بص واربح..شوف واربح..هدا يوم حظك بص وشوف.. أحمر أسود..هادي حمرا ، هادي سوده، وهادي هي الحمرة ..

.. أرى الورقة الحمراء تستقر بوضوح في الوسط .

- ياللا بنلعب.. بدك تكسب نص ليرا ؟! ياله، ياله..فين الحمرا.. فرجيني فين الحمرا

أعاد رمي الأوراق بسرعة..ها هي الورقة الحمراء تعود من جديد وتتوسط بوضوح الورقتين السوداوين

أضع إصبعي على ظهر الورقة الوسطى وأقول بتأكيد احمر!

يقلب الورقة..ياللجذل، أكاد اقفز نشوة.

- غلبتني يا ملعون..!! ..يدفع نصف الليرة بأريحية.

نواصل اللعب..أشير بإصبعي بثقة إلى موقع الورقة الحمراء من جديد

- اسود!

..اخسر الجولة.

.." زلة بسيطة " أخاطب نفسي.." ما عليك لم تخسر شيئاً لحد الآن! ".

أشير مرة أخرى..ضاعت نصف ليرة أخرى

" لا تهتم، مرة تصيب ومرة تخيب..لكن الأمور هذه المرة واضحة كالشمس، أرى الحمراء من جديد في الوسط..ركّز فقط!! "..

أشير!.. واخسر!!

..أشير واخسر!.الخمسة.ر!.. واخسر! ..ضاعت الليرات الخمس.

..اكفهر البحر وعبست وجوه المارة..ضاع حلم التجوال المرفّه في المدينة ، اختفت الحلوى اللبنانية المجففة ، والشاورمة الشهيرة ونزهتنا البحرية نحن الثلاثة التي كلفت بشراء تذاكرها.

***

"..كنت في عـمـرك تقـريبـا آنذاك..آه لو تعلم مـا هي الآمـال التي راودتني والطموحات التي لم أتمكن من وضع حدود لأبعادها المترامية، الشاهقة، بل حتى الخطرة منها. ألوان منها راودتني وأنا أضع رأسي على الوسادة الندية في السطح الأعلى من البيت، اخترق أفلاك السماوات وأسبح بين كواكبها المنثورة في الفضاءات المتسامية عاتمة الزرقة. ركبت سفينة (درب التبانة) كي أصل أسرع إلى ما أريد، مرة إلى هذا النجم المشع وأخرى إلى الآخر الأبعد الأقل لمعاناً.. إلى ذلك النجيم الذي يُطل بحياء ويتلاشى وراء وشاح الدرب المشع..يخفق الوشاح كشعاع تائه في اليم الداكن ويغيب النجيم ويتراءى من جديد وراء الذيل السائب..غدا عيد الأعياد ومطلع المنى وبدء المسيرة الكبرى.

أصحو قبل الجميع وأنسى صلاة شكراني الموعودة في الفجر رغم طربي لأجمل أذان رن في أذني من منارة الصحن الحيدرى التي يشرف تماما على سطح دارنا اللصيق.. كنت هائما في خيالاتي التي وجدتها تنتظرني حالما أفقت من سويعات رقادي القلق.

.. أخذت اذرع السطح طولا وعرضا مدمدماً بكلمات مبهمة لما يدور في رأسي. لم اعرف بالتحديد ما هي الخطوات التي علي إتباعها حتى مجيء اللحظة المنتظرة.

..كان صوت أبي يصل إلي بوضوح من السطح الأدنى قبل الركعات.."اللـلـاـــــهُ أكبر.." و" ربنا ولك الحمد " بعدها.

كانت الشمس قد أرسلت خيوطها الأولى على سياج السطح حين بدأت أضع قدمي على السلم وأنا ارتجف من الانفعال...توقفت قليلا عن الهبوط لأتماسك و انتظر حتى تنتظم أنفاسي قبل أن أصل إلى باحة البيت حيث والدي وأخي الأكبر وبقية الأهل يتربعون الحُصر، تتوسطهم الوالدة وراء سماور الشاي الموشوش بخفوت.

لابد وان منظري كان مضحكا لتلك الهيبة الزائفة التي كنت أضع لبوسها علي وأنا أتقدم لألثم يد والدي ورأس والدتي واسلم بوقار على أخي الكبير عزيز، متمنيا للجميع بصوت مضخّم عيدا سعيدا..

أشار والدي بيده دون أن ينطق بكلمة إلى صالة البيت الكبيرة، متمالكا نفسه من قهقهة مكبوتة.

..عزيز لم يتمالك نفسه في أن تتعدى ابتسامته إلى ضحكة خفيفة - منعها التأدب بحضور والدي - من أن تكون عالية ساخرة.

..أحمرت وجنتاي واحترقت أذناي.

كنت اعرف ما الذي ينتظرني في الصالة..فقد غششت بان نزلت متلصصا في الليلة السابقة ..رغم حلفي، بأني لن ادخل الصالة حتى الصباح.

..الله أوسع قلبا ورحمة من أن يعاقبني ليمين لم أكن مخلصا في حلفه.

.. تجاوزتهم ودخلت الصالة بوجل.

..ها هي هناك بيضاء زاهية ملتفة على بعضها بأناقة ورفعة ملكية.

.. يخفق قلبي فرحا وشوقا وأنا أتقدم واقترب بخطاي منها.

.. ينسدل من تحتها بجلال رداء اسود من الجوخ..

.ستكون لي ابد الدهر.

.. أخلع جلابيتي الطويلة..

..أتقدم واقترب منها وقلبي يكاد ينخلع من الخفقان.

..أمد ذراعي وارفعها بهيبة.. نعم ارفع العمة الأنيقة الزاهية الملتفة.

..أضع العمة على رأسي.

..نعم عمتي أنا!.. فوق رأسي أنا!، اعتمرها شبه عاري، قبل أن ارتدي الصاية الفخمة السوداء.

أسرح في خيالاتي وأنا أتأمل نفسي في المرآة.

..لا اعلم كم طال تهويمي في أحلامي قبل أن اخرج بهيبة واطل على الحشد الجالس..كانوا قد بدئوا إفطارهم.

أتقدم إلى والدي وانحني مقبلا رأسه بفرح..

- مبروك عليك ولدي..مبروك عليك شيخ مهدي قالتها والدتي بفرح وحماس

- مبروك شيخنا ..إنشاء الله تكون كفأً لها..هذا أول الدرب الصحيح ابني ..لن أوصيك احتراما لنفسك، بل احتراما لها وللرمز الذي ترتديه الآن وسترتديه العمر كله.." هذي مو هزوة شيخ مهدي ، أريدك تصير قدوة شيخنا!! "

بعد الإفطار نهض الشيخ الكبير وقفز وراءه الشيخ الصغير..نعم، أنا الشيخ مهدي !.

..لم انس أن استعرض نفسيً أمام أختي واخويّ الأصغرين مبتسماً، وبالطبع مناكدا.

- اسمع شيخنا! سأكلفك بمهمة تليق بمناسبتك هذه،..سيأتينا ضيوف في الغد..وأنت الآن احد رجالات البيت، وهذه أول مرة اعهد إليك بالسفر إلى الكوفة للتسوق هناك - ومع مبلغ لا يستهان به -، فلن تجد البضاعة الجيدة هنا في النجف مثلما تجدها في أسواق الكوفة..خصوصا السمك.

..دسّ في يدي قائمة بالمشتريات وأعقبها بحفنة ثقيلة من الروبيات وعقّب :

- " ما أوصيك هذي عشر روبيات مبلغ مو قليل شيخنا ، وشوف أحسن الموجود بالسوكَ "

"يا للمغامرة العجيبة، هذه الرحلة إلى الكوفة، ووحدي.. مغامرة بالطبع سبق وان حققتها بمعية أبي ، ومرات قلائل أخرى مع أخي الأكبر، رجل البيت في غياب أبي

.. أنا وجِل؟.. بالطبع وجِل !..ومع هذه المهمة الموكلة بالمبلغ الضخم، لابد أنها خطوة أولى لأكون رجل البيت الآخر بعد عزيز!..ستكون ولاشك مغامرة أن أطوف وحدي في بلدة كبيرة كالكوفة ! "

"..ها أنذا على شواطئ نهرها الكبير، في الفيء من نخيلها الملتف حوله بحنان، أرنو إلى السيل الجارف بطميه الذائب الهادر..لفائف القش والأعواد الراقصة تدور مقتربة حول الثغرات اللولبية الملتفّة بسرعة يتيه فيها البصر المنجذب إلى متاهات أعماق هذه الدوّارات النهرية..أحدق بإصرار، دون وعي وبإرادة مسلوبة، إلى ذلك المجهول المغيّب في أعماق النهر الغاضب.. ها هي حزم القش والأعواد المتراقصة بمرح

ووجل تُشفط في ومضة خاطفة يعقبها صفير واضح وقصير قادم من هذا البوق المائي الملتف..تُبتلَع وتغيب، وتنغلق فوهة البوق دون اثر لما كان حيا متراقصا فوق مويجات الماء. "

"..تظهر فجوة صغيرة أخرى في مكان آخر، تتوسع الفجوة، تدور فوهة البوق الحلزوني المتراقص، تتسع تسحب موسيقاها لفائف قش طافية أخرى .. تلتحق بها أعواد وكسر أغصان خضراء.. ترقص الحلقة الملتئمة بمرح حول فوهة البوق اللولبي المتسارع ..يختتم المشهد الراقص كسابقه بصفير ابتلاع حاد .

..لحظة صمت جليلة.

..هكذا نظهر..هكذا نعوم.. يسحبنا التيار.. نلتئم راقصين بمرح ووجل حول فوهة الأعماق المجهولة المظلمة.. نُبتلع دون اثر باق فوق سطح اللجة..يستمر نهر الحياة الصاخب في جريانه..

..اتكئ على جذع نخلة قريبة خوف الانزلاق.

اسمع هديل حمامة ورفيف أجنحة وتهب نسمة ندية يوشوش لها سعف النخل..

..انظر عاليا وتعلو وجهي ابتسامة.. ألف طرف عباءتي حول ذراعي كما يفعل أخي الأكبر حين يهم بسير عجل...اجعل وجهتي وسط المدينة.

..قبل وصولي إلى أطرافها، أقف برهة ريثما أعدل وضع عمتي التي ألقيتها إلى الخلف أثناء سيري على الضفاف

..أسدل عباءة الجز الجديدة، تاركا مجالا واسعا لإظهار لمعة الصاية الجديدة السوداء الأنيقة..

..أضع على وجهي قناع وجاهة الشيخ الجليل.. يغمرني الجذل.

امشي بخيلاء وجدية..لا التفت يمينا أو شمالا خوف أن يتبدل الهندام الذي جهدت على ترتيبه..أنا على يقين من أن الأنظار ترمقني بإعجاب..أكيد أن عددا من صبايا الكوفة الحسان يتهامسن ويتغامزن بمروري..لن التفت ولن أبين اهتمامي بهن.

..ها هو مدخل السوق يظهر و تصل أصوات بعض الباعة الجوالة الواقفين على جانبي المدخل.

.. أرى الألوان الزاهية لبضائع تزدحم بها دكاكين السوق المسقف.

.. عباءات وعمائم ،..عمرات ملتفة،..عقالات سوداء وبنية وبيضاء مذهبّة مختلفة الطول والسُمك،..صايات ،..جُبب ،.. دشاديش ملونة تتزاحم من بعيد داخل السوق،..أناس يخرجون فرحين بأحمالهم ومشترياتهم.

..يزداد الضجيج وتعلو أصوات الباعة المنادين على بضائعهم..

يرتفع صوت منغّم عن قرب :

"..احمر!!..أسود!!..اسود..احمر!!، جر ب حظك!! أحمر اسود. "

"..هذا الملعب!.. العب تغلب!!، أحمر أسود..أسود أحمر والروبية بروبيتين"

"ا لروبية بروبيتين..الروبية بروبيتين!

تفضل شيخنا.. ربح حلال !"

أتمهل قليلا وانظر بحذر..انحرف عن مسار الداخلين والخارجين من السوق..

أقف على مبعدة خطوات من الطاولة الصغيرة التي يقف وراءها المنادي.

..أراقب بحذر حركة يديه السريعة وهو يعرض ً الأوراق بوضوح.

..ورقتان بعلامات سوداء، وثالثة بعلامات مشابهة حمراء.

..يلقي بالأوراق الثلاث الواحدة تلو الأخرى.

أرى بوضوح جازم الورقة بالعلامات الحمراء تتوسط السوداوين .

اثنان من اللاعبين يتقدمان إلى جوار الطاولة.. يشيران بإصبعيهما إلى ظهر الورقة الوسطى..

يظهر الورقة المشار إليها..

يقفزان فرحا.." احمر! أجمر "

يخرج صاحب الأوراق أربع روبيات وينقدهما.

روبية! بروبيتين! يعلو صوته أثناء منحهما مكسبهما.

يشيران من جديد..يا للحظ الجميل، يكسبان أربع روبيات أخرى.

يعد الشيخ الصغير مكسبهما الإجمالي بعد بضع دقائق..لقد كسب كل منهما عشر روبيات

يغادران فيلتفت إليه صاحب الورقات الثلاث.

" هذي هيـه الدنيـا..يوم غلب ويوم خسـارة..الحمـد لله ربنا كـريم ..ألنه رب كريم..تفضل شيخنا!..تعال مولانا!..حتى الخسارة وياك بركة..إيه والله بركة! "

يحمرّ وجه الشيخ الصبي..يتلفّت يمينا..يتلفّت يسارا، الكل منشغل بتحفز بالدخول إلى السوق أو بالخروج منه محمّلا بالبضائع والمشتريات.. لا احد يلتفت صوبه."

" يتقدم بأناة وحذر..يقف أمام الطاولة..يعيد النظر بوجل يمينا ويسارا من جديد.. يضع يده في جيب (الصاية) العميق..تصل أصابعه فتلمس القطع المعدنية..يتلمس أصغرها..يمسك بها..يخرج يده ممسكا بنصف (الروبية) بإحكام..يرفع بصره إلى وجه الرجل أمامه دون هدف..يستمر في التحديق..الساحر يرمي بأوراقه العجيبة الثلاث على الطاولة..يجمعها..تطير من جديد وتحط في نفس الموقع.. الحمراء دائما في الوسط .

في المرة الثالثة يضع نصف (الروبية) بيد مرتجفة فوق ظهر الورقة الوسطى الحمراء.

.. يتسمر بصره بظهر الورقة والقطعة المعدنية البرونزية فوقها.. تمتد يد الرجل أمامه بهدوء وتكشف وجه الورقة !!

يختض من نشوة الانفعال ويصرخ مكرراً بتلذذ حمراء! حمراء!

- حظك قوي مثل إيمانك شيخنا!.

يقولها الرجل أمامه مستسلما وهو يضع قطعة مشابهة لقطعته المعدنية غلى الطاولة.

..يتسمّر بصره من جديد بالأوراق السحرية الثلاث.. يستمر تحديقه..تختفي معالم العوالم من حوله..لا تبقى من معالم صاحب اللعبة إلا أصابع نحيفة طويلة سمراء ترقّص الورقات الملوّنة.. تحط و تستقر الوريقات.

يضع نصف روبية فوق ظهر الورقة الوسطى..

- حمراء، حمراء !!

يحس ّ بالدم يرتفع نافرا من أذنيه.. لاشيء في الدنيا مثل لذة الكسب هذه..لا شيء

" سأعود بثروة إلى البيت..سأزهو بغناي! "

- لاحظٌ عندي هذا اليوم مولانا. يصله صوت الرجل المتأسي وهو يمد يده مانحاً نصف روبية أخرى.

..يتلاشى ضجيج السوق..صدى الباعة..وشوشة أحاديث المارة..صدى عجلات العربات وحوافر خيولها..لا يبقى إلا رنين منغّم غريب :

..أحمر!..أسود!..أحمر أسود!..أسود أحمر ..أحمر!

يتناهى الصوت إليه منزّلا من أعالي سماوية بعيدة. يتردد صدى الكلمتين من وراء الغيب في أذنيه.. يستمر تحديقه بالوريقات المتبدلة مواقعها.. ألوان جميلة تتطاير وتتبدل في الفضاء أمامه..تحطّ وتستقر بمرح أمامه.

.. يضع نصفي الروبية فوق ظهر الورقة .. " روبية كاملة..سيكون ربحي روبيتين "

- اسود! مو كل مرة إلك شيخنا..فد مرة واحدة على الأقل اغلب آني

" لاعليك، سأعيد ربحي..يبدو أنني لم أركز جيدا هذه المرة..سأضع روبيتين "

- اسود!

..مرة أخرى

- أسود!

يزيح الشيخ الصبي عمامته جانبا ويمسح العرق المتصبب على جبهته.

- اسود!.. هاي شنو مولانا! ركز شيخنا، ركز! ورجّع خسارتك..هيّه كُلَهَ تركيز..شوف! شوف! هاي الحمرة..باوع زين..هاي الحمرة..هاي الحمرة!

تتطاير الأوراق وتستقر ، وتختلط ألوانها أمام البصر، الأحمر يستقر دائما وبوضوح أوسط الأسودين .

يعلو من جديد صوت الرجل بتأسٍ :

- اسود شيخنا..أسود!

ضاع نصف المبلغ..كلا لن أعود إلا ومعي كل البضائع المطلوبة..على الأقل معظمها.. الذريعة : ارتفاع الأسعار هذا اليوم في الكوفة لكثرة الزوار..لا احد يستطيع نفي يوم مضى ولم يشهده احد غيري "

يرفع الصبي عمامته بحركة ذاهلة ويضعها على الطاولة الصغيرة إلى جانب الوريقات..يمسح وجهه المتعرق ورأسه ويأخذ نفساً عميقا " يا ربي خلصني..دخيلك يا بو الحسنين، حتى وإن نصف المبلغ.. دخيلكم! "

- ثلاث روبيات على الورقة الجانبية هذه المرة!

- أسود..أسود شيخنا ! وبعد فترة صمت.. لا تكَلي خلصت فليساتي..شيخنا ما معقول كلك خير وبركة مولانا!

يطأطئ الصبي رأسه بذهول..يمسك نفسه عن أن ينخرط في موجة بكاء اختنق بها حلقه..تتضبب رؤاه، تغيب كل المعالم..يستدير كالمأخوذ عن الطاولة الصغيرة ويجرجر خطاه..

- نسيت عمامتك شيخنا.. !

يرفع الشاب وراء المنضدة العمامة عن الطاولة وقدمها له.. يضع فيها بضع عملات نحاسية صغيرة :

- هذي أجرة الطريق مولانا، ما أريدك تروح تدعي علينا عند أبو الحسنين.. الدنيا حظوظ شيخنا، يا أسود، يا أبيض .. ويا أحمر!

مع خفوت ضجيج السوق - الذي لم تطأه قدماه - خلفه، يتباعد ويخفت صوت الوحي البعيد

" أحمر، أسود..أسود أحمر..أحمر.."

يقف مطأطئ الرأس أمام والده الذي يواجهه في باحة الدار وعن بعيد تتربع والدته بمسبحتها الطويلة السوداء وهي تضرب فخذها وتنود ..وتلمع في الزاوية البعيدة عينا أخيه الكبير بمكر وسخرية.

يحار في تفجير غضبه بالشتائم ، أو إمساك قهقهة ساخرة يداريها بإشفاق.

- طيب آمنت بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.. لقد سُرقت منك النقود في زحمة السوق..الأصح صرفتها والعلم عند الله أين!..الروبيات واختفت!؟ لكن كيف تطاوعك نفسك يا لئيم بقص جيب بدلتك الثمينة الجديدة!؟

..قصوا لك جيبك في زحام السوق!! يرتفع الصوت ساخراً. "

وافـــــتـــــرقنا نُـريد " مَـهــــران َ" نـبــــغي
ورطـــةً فــي لـــذاذةٍ و ارتـــكـــاســــــــهْ
تـارةً صــــاحــــبي يُصــــفــّق ُكـأسـي
وأنـا تـــارةً أ ُصـــفـــّقُ ُ كــــــــاســـــهْ
لا" الحــــــــسينُ الخـليـعُ" يبـلـغُ شـــأوينـا
ولا" مُـــــــــسلمٌ " ولا " ذو الـنـؤاســـــــــهْ "
قـــــالَ لـي صـــاحـــبي الظريفْ وفي الكــفِّ َ
ارتـعـــــا شٌ وفي اللســـــانِ َ انحـبــــاســــهْ
أينَ غــــادرتَ " عِـمـّةً " واحـــتـــفــــاظاً
قلتُ : إني رمــــيـــتــهـــا في الكـُنـاسـهْ

الشيخ مهدي الجواهري

* * *

كان في انتظارنا عند سلم الطائرة شاب سمح الوجه حنطي اللون بعينين عسليتين ضاحكتين يرتدي بدلة سبورت ذات ياقة مفتوحة ، يقف إلى جانبه رجل مهيب الطلعة ممتلئ الوجه مائل إلى السمرة برأس مرفوع يعلوه طربوش قاني الحمرة يبتسم ابتسامة بها رزانة وكبرياء ببدلة عاتمة اللون ورباط عنق ووردة صغيرة تتثبت فوق ياقته اليسرى.

قفز الشاب بوجه متهلل وعانق فرات بحرارة ثم مد يده مصافحا لأميرة لينحني بعدها علي محتضنا

- أكيد أن الطيران من بغداد لبيروت ومن ثم إلى القاهرة كان مريحا..يا هلا يا هلا..أنا عدنان من السفارة العراقية مرحبا بكم في القاهرة أم الدنيا .. وملتفتا بمرح إلى الرجل الوقور، أقدم لكم محمد سعيد بيه العريان.

تقدم ذو الطربوش الأحمر فمد يده مصافحا بوجاهة لأخي وأختي ثم انحنى بلطف ومودة عليّ محتضنا

- ده الشيطان الصغير هو فلاح وأنت فرات ودي الست الأميرة أميرة..يا مرحبا بكم بمصر، زي ما آل عدنان أم الدنيا

أنا من طرف الباشا..الباشا طه حسين الله يطول عمره يبعث ليكو كل تمنياته.. إقامة سعيدة في ضيافة بلدكو مصر..دراستكو هنه مش حنسيبكو حته تخلصوا وتاخدو الشهادة الكبيرة - من الجامعة هنا

لم افهم كل ما كان يقوله في حينه إلا انه مع الحديث بدأت تختفي من على وجهه علائم الرسمية والبهوية وليحل محلها علائم مرحة - بتحفظ - ، واسترسل مع الجميع في حديث شائق كان يوزعه بعدالة بيننا نحن الثلاثة مع التفاتات ودودة إلى الشاب الوسيم عدنان

وبعد جلسة لنصف ساعة في مقهى أنيق داخل المطار دعانا فيه إلى تناول الشاي، مع قطعة كَاتوه -خصوصي لي

-" دنت جيه من عند شهرزاد مش كده يا واد..دنته آخر حلاوه والله "

لم يطل مقامه بيننا ونهض فجأة بابتسامة اعتذار:

- " دانا مقدرش على فراء الباشا اكتر من كده..ويمكن هو كمان..أشوف وشكو بخير. " ثم التفت إلى عدنان "..مش حاوصيك دول أمانة لحد متوصلهم مدرستهم وسكنهم "، ثم مستدركا "..الله ده انه كنت حانسه !! " ثم اخرج من جيب سترته الداخلي أربعة ظروف.

سلم أول ظرف لفرات :

- " دول هدية سلامة الوصول بعتها والدكو الباشا الدكتور..ده في مقام والدكو ولاّ إيه؟! "- ومحتضنا إياي "..بتقول إيه يا شيطان يا صغّير؟! " ثم توجه بالحديث إلى عدنان " ودول توصلهم لناظر ثانوية الخديوي توفيق في حلوان والأبلة منيرة ناظرة إعدادية حلوان للبنات..دا أبله منيرة سكّر معسّل حاتحبيها يا ستي والله. "

كان الجميع نائمين وأنا اطل من شرفة شقة عدنان الأنيقة في حي الزمالك،..مقهى الزمالك يفتح أبوابه وفتى اسمر بمريلة بيضاء يتحرك بسرعة مرتبا كراسي وموائد الخيزران على الرصيف إمام المقهى الوسيع، في الداخل تتلامع من بعيد أباريق الشاي المعدنية والخزفية وراء منصة كبيرة مع ألوان وأحجام مختلفة من الأقداح والصحون.

مطعم صغير يجلس بعض رواده يتناولون إفطارهم على بضعة موائد منثورة

أمامهم..واجهة مخزن لمواد استهلاكية مرتب بعضها في واجهة أنيقة..بعض السابلة..بضعة سيارات صغيرة تمرق في اتجاهين..احدهم يرفع صوته من داخل المقهى

– يا واد ما تخلي عندك دم وتتحرك شوية..وشوف عندك الزباين الجايين..ما تتحرك يا رزل

حديقة صغيرة عامة تحت الشرفة خالية إلا من كلب راقد في إحدى زواياها وبضعة عصافير تتنطط جذلة من شجرة لأخرى.

اسمع مفتاح الشقة يتك، التفت إلى الصالة، يفتح الباب بحذر وتدخل صبية دون العشرينات من العمر بملبس أنيق متواضع ووجه جميل التقاطيع

– "صباح الخير..د نتو وصلتو أمبارح مش كده؟ تتقدم مني على مهلها..عدنان لسه نايم دا ما يحبش حد يصحيه بكير يوم الجمعة..أنت اسمك إيه يا صاحبي؟ " بعد حوار قصير توجهت هي إلى المطبخ وتبعتها وتناهى إلي عطر شفيف، تأملتها من الخلف..رشيقة، معتدلة الطول بشعر كستنائي معقوف إلى الأعلى..بدأت تجمع في الصحون والأقداح المتروكة من الليلة الفائتة لتضعها في حوض (السينك)..

– سأخرج قليلا للتنزه..نصف ساعة أو بعض.

– "حاسب ما تتاخرش على الفطار، دنا حاعملك حتت فطار مخصوص..أوعه تتوه، متروحش بعيد، ده مصر بتضيّع".

لم يكن شاطئ النيل بعيداً..يا إلهي يا للجمال والأناقة التي لا تضاهى..يا لرقة الهواء المعطر بخضرة الجزيرة القريبة

..أنا في جنان السندباد..مسكين السندباد أقرأ عنه في رحلاته انه عاش في القاهرة..أنت مسكين يا صديقي أنا أكثر حظا منك.. هيه.. انطلقت صارخا وأنا ارفع صوتي وذراعيّ على علوهما " أنا سندباد جديد..أنا فلاح..أنا سعيد.. أنا سندباد جديد سعيد ..هيييييي هووو هيييي!!"

فتحت الباب بابتسامة

- " كويس..دانت راجل بصحيح ياسيدي وما توهتش! "

وعادت على عجل إلى المطبخ..توجهت أنا إلى الشرفة

لم يكن هنالك صوت يسمع في المطبخ قبل أن يرتفع همس " حاسب دا الواد مش صغير وفاهم كل حاجة.."..

صمت جديد ".." وبعدين معاك.. "

".. ويا بهية وخبريني يا بوي عليِّ كَتل ياسين.."

ارتفع صوت رجولي مرح يغني من المطبخ

" أنا عطشان؟!.. طبعا عطشان وأريد قدح ماء.. والماء والقدح في المطبخ..نعم طبعا عطشان بعد جولة الصباح المثيرة على النيل ".. توجهت بحذر إلى المطبخ.

..كانت هي وراء حوض (السنك) تمسك باسترخاء بصحن يكاد يتهاوى من يدها وعيناها مغمضتان وكان عدنان يلتصق وراءها محتضنا وبوجه مبتسم يتشمم عطر شعرها الذي انسدل..غزل مرح؟!..مرحٌ على هيئة غزل !؟..مرح ومرح؟!

يبدو انه أحس بوجودي عن قرب..التفت بهدوء وهو يكاد لا يغير وضعه..

- صباح الخير..هذه بهية ! " وابتعد عنها مغنيا بصوت أعلى " ويا بهية وخبريني يا بوي عن لي كَتل ياسين "..صمت جديد " كتلته السود عينيها من فوق ظهر الهجين.. "

..كم جميلة هي مصر..كم سعيد أنا بأم الدنيا!!

***

..محطة بولاق..اخرج من مقصورة في عربة الدرجة الأولى إلى رواق العربة.. المَقطّم.. طُره.. بورتلاند.. رافعات عملاقة..عربات محملة بالاسمنت تسبح في الأعالي عبر أسلاك تصلها بالجبل..سكك وعربات نقل دائبة الحركة..مبانٍ لمصانع أخرى..لوحة إعلان جميلة ضخمة تكاد تسد الأفق بقنينة ضخمة وقدح بسائل ذهبي لامع ذي رغوة "ستيلا..بيرتك المفضلة!! ".. ريف هادئ ينبسط عبر ألواح التلغراف

المتسارعة إلى الوراء بانتظام وبلحن عذب تر طورق ترطو رق ترطورق..طورق طورق ترق طورق..خضرة ترف وتتموج مع الألحان نخيل يعبرمتراكضا راقصا كالحلم في زرقة ضبابية شفافة..طرق ن طرق..طرق ن ن طرق طرق نننن..أعود إلى المقصورة.. نحن نتوقف عند شبين الكوم.

..تستمر تلال المقطم بالمرور المضبب تقطعها أعمدة الكهرباء المنطبعة فوقها والمارة أمامها بسرعة اكبر.. ضفاف دجلة..صخب " شلة الزعران " على شواطئها الرملية في عز الظهيرة..أشباح النخيل المتماوج ..ملامح وحركات الوالد القلقة المتعبة ثم الثائرة وهو يدور في قاعة المغادرة..شبح " الحبابة " العجوز الضامرمتلفعا بـ الصاية والشيلة والعيون الكليلة المغرورقة بالدموع : " شلون ينطيك كَلبك تشمرهم بديار الغربة "..تعبر طلال المقطم المضببة بالدمع..تقطّعها أعمدة الكهرباء المنطبعة فوقها والمارة بسرعة اكبر..تصر العجلات طويلا..تنقطع تراكبات الصور..

محطة.. حلوان العين قطعة كبيرة تخفي وراءها كل الصور..رمال تزحف..تتسارع إلى الخلف..أعمدة الكهرباء تقطعها وتمرق بسرعة اكبر فوق صفحتها.. نتسابق سباحة سريعة في مياه دجلة الرائقة..نقفز على الشاطئ الرملي عند الجانب الآخر..نملأ سراويلنا المشدودة من أسفلها على أفخاذنا، بالقثاء المنطرح بين خضرة الأوراق والعروق الزاحفة.." ولكم يا أولاد الق.." يتكررالصوت المزمجر ويقترب..نفرّ ضاحكين ونومىء مناكدين بأذرعنا صوب الفلاح المقترب..نقفز إلى مياه دجلة ونسبح باتجاه ضفتنا..تنتفخ سراويلنا وتطفو على أعجازنا وتتلاطم فوقها القثاءات المسروقة

..تصر عجلات القطار من جديد..شاشة البصر تمتلئ بتراكيب الأبنية المارة بتباطؤ..

– حلوان..ها قد وصلنا..تعال وساعدني في إنزال الحقائب !!.

الانتفاضة

١

تفرق المتظاهرون أمام طلقات البنادق ولجأ كل جمع منهم إلى الشوارع الفرعية والأزقة الضيقة على جانبي شارع الكفاح. كان الرصاص ينطلق من نوافذ مركز الشرطة الكائن في ركن الزقاق المقابل لمقبرة الشيخ عمر وهو عبارة عن بيت قديم بطابقين و بنوافذ وأعمدة خشبية قد حالت ألوانها.

..أقفرت الأزقة وجانبا الشارع القريبة من المركز..

..عادت همهمة وأضحت ضجيجا حين سكتت لفترة الاطلاقات النارية..

..تعالى هتاف واضح الكلمات على الضجيج وخرجت لافتة يحملها متظاهران وهما يكرران الهتاف..

..خرجت مجاميع صغيرة بحذر وراء اللافتة ، وقفزت تجمعات صغيرة أخرى باقتحام وعنفوان.

...تكرر الهتاف ورددته المجموعة التي بدأت تكبر، بالتحاق جموع راكضة خرجت من الأزقة منادية على الآخرين ومشجعة إياهم على الخروج إلى الشارع.

..تكاثرت اللافتات وازداد من ورائها الحشد..

انتظم الهتاف من المقدمة وتصاعد مزمجرا وبدأت المسيرة من جديد بخطوات بطيئة ..ازداد عزم السير وعاد معظم المتظاهرين المتوارين إلى الشارع.

انطلقت من جديد رصاصة من إحدى نوافذ المركز..

..هرع البعض من جديد لاجئين إلى الفروع والأزقة الجانبية، على حين تنادى الباقون مناشدين على الثبات واستمرار سير التظاهرة.

..دوت عدة اطلاقات دمدم بعضها بعنف على حين رنّ البعض الآخر وتوالى رجع صداه.

..طويت لافتات وسحبت أخرى كانت قد سقطت على أرضية الشارع..

خلا الشارع من جديد إلا من جسد بدأ يتلوى على الأرض و بدأ بمدّ يده بضعف مستجيرا بمن يراه من أولئك المتزاحمين في الأزقة المواجهة له على طرفي الشارع.

..ركض احدهم باتجاهه محاولا نجدته فدوّت اطلاقتان سمعتهما تصفران عن قرب.

..رجع المتقدمون هلعا كلُ إلى ركن زقاقه على حين تواصلت طلقات مفردة دون فواصل كبيرة.

..زحف الجريح المتلوّي وسط الشارع إلى الرصيف المقابل لمكان وقوفي..وصل بزحفه إلى حافة الرصيف..تسلقه بصعوبة، تاركا خلفه على الإسفلت وحافة الرصيف بركا صغيرة من الدماء وبقعا عاتمة..حاول رفع ستارة معدنية لأحد المخازن المغلقة.. لم يفلح..زحف من جديد تجاه اقرب زقاق..خرج اثنان من الزقاق مسرعين وبرأسين منخفضين..سحباه من ذراعيه..عادت الاطلاقات ترن من جديد..أفلحا في جرّه إلى الزقاق المقابل لزاويتي التي ارتكن إليها، جدار مقبرة الشيخ عمر.

..ألتم حول الجريح جمع من الناس وركع بعضهم محاولا دسّ اقمصتهم المنزوعة المكوّرة فوق مكان الجرح النازف.

خف وتباعد تردد الطلقات..من جديد وبعزم اكبر، خرجت اللافتة الأولى من الموقع الأقرب إلى مركز الشرطة وعاد التجمع بشكل متسارع.

..ارتفعت لافتات أخرى بحذر وأخرى بعجلة وتحدٍ.

..علت أصوات الهتافات و أضحت واضحة مدوّية وازدادت من جديد أعداد المنظمين الحذرين و المندفعين..علت أصوات طلقات جديدة.

..تفرق البعض وواصل البعض الآخر سيرهم الحذر..

علت همهمة غريبة بين الجموع وتوقف الهتاف.

..انظرُ حيث ينظر الجميع.. يرتفع بصري.. هنالك من يظهر على السطح المجاور المشرف على مركز الشرطة..يدلق صفيحة من النفط..يدلق صفيحة أخرى..يرمي بخرقة كبيرة ملتهبة على سطح المركز..يرتفع اللهب.

..بعد لحظات يسمع أزيز الخشب المحترق.

يهلل ويموج حشد المتظاهرين..يتقدمون بعزم تجاه مركز الشرطة.

..تنطلق أصوات أطلاقات مدمدمة منفردة ومتواصلة..يسقط اثنان، أحدهم هامد، والآخر متلوٍ على الأرض.

.. يظهر شرطي بملابس الميدان، عدة كاملة بأحزمة رصاص تغطي الصدر والخصر، خوذة عسكرية حديدية، وبسطالين ضخمين.

.. يجلس ركبة ونصف على أرضية الشارع، على مبعدة عشرين مترا عن بقايا صفوف المتظاهرين المفككة..يواصل أطلاقاته.

..يهرع من تبقى إلى الأزقة الفرعية.

.. مركز الشرطة يمور باللهب والأدخنة المتصاعدة.

..يخرج من المركز احد الشرطة مختنقا ساعلا ويركض فزعا إلى زقاق مجاور ويختفي في احد البيوت. يتبعه آخرون، يصل عددهم إلى ثمانية.

..يختفون في بيوت الأزقة المجاورة.

..يواصل الشرطي بملابس الميدان نزوله على إحدى ركبتيه واطلاقاته المنفردة المتواترة.

..اسمع دوّي أطلاقة يأ ّز إلى جانبي.. قرقعة لصندوق فارغ يتكسّر.. أرى جسدا مدمى الرأس هامداً غير بعيد عني في زاوية الزقاق.

..يسارع البعض إلى سحب الجثة.

..يتطفل احدهم يسحب دراجته بالنظر إلى ما يجري في الشارع الرئيسي..تأزّ أطلاقة قريبة..يولي المتطفل هاربا.

..أرى آثار عجلات الدراجة منطبعاً على بقايا مخ ّ مندلق على أرضية الزقاق، حزوز متلوّية سوداء وأخرى ترسم خطوطا متراكبة عاتمة على خلفية القطعة الهلامية البيضاء المحززة، المتراخية بكتلتها على الإسفلت الأسود.

..يهرب آخر شرطي من لهب البناية المحترقة فيبدأ تململ في التجمعات المطلّة من الأزقة

...تخرج مجموعة بحماس وتهرول باتجاه الشرطي الوحيد المتبقي، البارك ببندقيته وملابس الميدان وسط الشارع..

..يطلق عدة أطلاقات متتالية..فيسقط اثنان، احدهما قرب الزقاق الذي أقف عنده تحت سياج المقبرة الحجري والمنتهي بسياج من القضبان الحديدية السوداء.

..من الزقاق يتسلق بضعة أنفار سياج المقبرة.

..تترامى أحجار منتزعة من القبور الخربة فيصيب احدها خوذة الشرطي.

.يفقد الشرطي توازنه، وتسقط بندقيته إلى جانبه.

..يندفع كثيرون من الأزقة وهم يصرخون ويهللون مشجعين بقية الحشد.

..يتحامل الشرطي على نفسه..وينهض، ثم يركض متلفتاً بهلع صوب التجمعات المتراكضة تجاهه.

..يدخل احد الأبواب الضيقة المشرعة والمطلة على الشارع.

..يرتقي السلالم الخربة.. يتعثر وينزلق.. يعود ليرتقيها بارتباك.

.. يختفي وراء باب صفيحي داخل البناية نصف المتهالكة والمغّلفة بعض نوافذها المهشمة بصفائح صدئة..يتدافع الحشد محاولا الانحشار في المجال المؤدي إلى السلالم الضيقة.

..تفلح مجموعة منهم في الارتقاء وسط صخب الأصوات المشجعة والفرحة.

-" صيدوه ها ال ابن القحبة !

- كَتلوه هاالخايس!

- اجاك الموت وين توّلي؟!

- يالله أخوتي! يالله كَطعوه واشمروه للجلاب!!"

وتواصلَ الصراخ والضجيج والتنادي والقهقهات والشتائم.

.. رُميت إلى الشارع الخوذة الحديدية، تلاها الحذاء العسكري الضخم.

..خرج احدهم يلوّح ببندقية الشرطي عاليا فوق رأسه.

لم يستمر التلويح بأدوات الشرطي المرمية إلى الشارع طويلا.

.. يرمى بالجسد المهشم الرأس بملابسه العسكرية المدماة إلى ارض الرصيف. سقط ككيس لم يحكم حشوه..دمية قماش قديمة كبيرة..

- الله أكبر..الله أكبر !

وبدأت أقدام المتراكضين المتزاحمين على حيازة السبق في دهس وركل الجثة..

– حبل..حبل! يالله أخوتي دبروا حبل !!

أخذ بسحل الجسد الذي أصبح شبع عارٍ.. ارتدى احدهم سترته الصوفية الخضراء الدامية..ارتدى آخر فرحاً بنطاله..ثالث دبك ببسطاله الضخم القديم.

..واصلت الحشود مسيرتها الصاخبة بالهتاف وتكررت كلمات الهتافات بأصوات ورجع مختلف النبرة

.. " يسقط.."... "يعيش نضال الـ.".. " الموت للـ..".. " وطن حرٌ و.. ".. " تسقط حكومة الـ.. " "..الدكتاتورية البغيضة..".. ".. الديمقراطية والـ.."..

..بدأ ضوء النهار ينسحب رويدا.. ما زالت الأصوات تهدر والمسيرة تتواصل والجسد المهشم يترك سوائل وردية متسخة وراءه على أرضية الشارع.."

.بدأت مناوشات كلامية بين متظاهرين في الصفوف الأمامية .. تباطأت المسيرة ثم توقفت.. تحولت المناوشات إلى تماسك بالأيدي وشتائم.

..توقفت المسيرة والتأمت مجموعة حول المشادين تحاول فض النزاع.

لمن تعود ملكية بندقية الشرطي المسحول؟!

احدهم، ضخم بدشداشة وشماغ، يمسك بها مدعيا بأنها أحقيته ..انه أول من وجهّ الضربة القاتلة بهراوته!..قدم رجل متقدم في السن من الأمام، كان يحمل غالبا للهتاف فوق أكتاف المتظاهرين..أمسك بالبندقية بهدوء و بابتسامة من اليد الشادّة عليها بإحكام..تراخت القبضة لتسلمها أخيرا له..امسك بالبندقية من سبطانتها بكفيه.. رفعها عالياً وأهوى بعقبها على إسفلت الشارع.. أعقبها بضربة أخرى..تحطمت أجزاؤها..رفع أجزاءها المعدنية والخشبية المتناثرة والقي بها واحداً تلو الآخر بعيداً على الأرصفة المقابلة.

..واصلت المسيرة سيرها.

تعالت أصوات نقاش حاد..ارتفعت أصوات مطالبة بحرق الجثة.

.. لُفّتْ الجثة المشوهة بحصيرة مأخوذة من أحد تخوت المقاهي الفارغة.

..صبت كمية وافرة من الكيروسين فوق الحصيرة الملفوفة.

..تعالى اللهب وانتشرت رائحة اللحم المحترق..

٢

تحولت هتافات المتظاهرين من شكلها الناقم و العدائي إلى ضجيج وصخب ومسيرة فرح لا نظام لها وتبدلت الهتافات إلى " عاشت وحدة الجيش والشعب.."، "الجيش سند الجماهير.."، " الكادح والجندي في صف واحد.." ..

كانت الدبابات قد نزلت إلى الشوارع الرئيسية، بعد أن أُعلن عبر بيانات الإذاعة عن سقوط الوزارة وإعلان الأحكام العرفية وتشكيل حكومة عسكرية برئاسة نور الدين محمود .

.. المظاهرة الرئيسية قد وصلت إلى الباب الشرقي.. أطفئت فجأة جميع أنوار الشوارع.

سكتت الهتافات للحظات و ارتفعت مكانها همهمة عالية، لتعود النداءات الداعية إلى انتظام المسيرة والحث على تواصلها.

.. عادت الهتافات خليطا من تلك التي تحفز جنود وضباط قطاعات الدبابات، التي أخذت أماكنها عند نهاية شارع الملك غازي المؤدي إلى ساحة الباب الشرقي، تحفزهم وتدعوهم للانضمام إلى صفوف الشعب، مع هتافات سابقة أخرى.. "..الحكم الرجعي..".. "..سقوط الديكتاتورية.. ".. " الموت للخونة.."، و...."

تسلق بعض المتظاهرين ظهور الدبابات معانقين الضباط البارزة أنصاف أجسادهم من بوابات الدبابات المشرعة، بملابس الميدان والثابتين في مواضعهم بهدوء وصمت.

..أخرج احد الضباط منهم برتبة رئيس جسده كاملا، ليقف فوق ظهر إحدى الدبابات الأمامية.

.. رفع صوته فضاع بين هتافات المتظاهرين.

.. خرج جنديه المساعد ليقف معه، وليطلق صوت صفارته عدّة مرات مع استمرار مناشدة صوت الرئيس المتعالي الداعي إلى الهدوء والإنصات.

..هدأت الأصوات أخيرا.

- إخواني تفرقوا وعودوا إلى بيوتكم .. دعونا نقوم نحن بما انتم تطالبون به..هيا يا إخوان تفرقوا على مهل واسلكوا الأزقة الجانبية المؤدية إلى بيوتكم..بالله يا شباب تحركوا!.

علت همهمة من الحشد الملتف حول الدبابة..وتردد هتاف من احدهم..

- عاشت وحدة الجيش والشعب!

..ردد حشد كبير الهتاف.

..عادت صفارة الجندي ترتفع ويعود معها هدوء الحشد من جديد.

- تفرقوا يا شباب..تفرقوا دون أن تلجئونا إلى المجابهة..تفرقوا حالاً..إنها الأحكام العرفية!..تفرقوا!

ازدادت لهجة الضابط جدية لتتحول إلى نبرة عالية متوعّدة.

..بدأت همهمة المتظاهرين تعلو وبحذر من جديد وعاد احدهم ليهتف..

مع ترجيع المتظاهرين للهتاف لمعت عاليا فوق الرؤوس خطوط نارية وامضة حمراء بذيول صفراء متلاشية أعقبها هدير متقطع لأصوات طلقات رشاش الدبابة تاركة بعدها دمدمات و أصداء ذات رنين معدني صافر عالٍ.

..أحسست أن صدى الرنين هذا، ظلّ ولثوانٍ طويلة يدور في أذنيّ، قبل أن يكمل دورته الفوضوية داخل تجاويف جمجمتي.

وجدت نفسي مع الكثرة ممن حولي جالساً ومنحنياً بجسدي إلى الأمام.

نهضت وأنا أحس بأن صدى الرنين ينتشر و يهز كل أعضائي..

..نهض آخرون.

..أجيل النظر فأرى شتات الجموع متفرقة في مساحات من الشارع وعلى الأرصفة.. قسم غير قليل قد وجد نفسه قافزاً إلى الزقاق الملتوي المجاور لسينما ديانا .

..صوت هتاف مرتجف يتردد في الصمت.

يعود قسم غير قليل إلى التجمع على حين يبقى قسم كبير آخر على الأرصفة وعند طرف الزقاق منتظرا بخوف متحفزا لخطوة التالية.

.. يتكرر صوت الهتاف من نفس الصوت بنبرة اعلي وأكثر ثباتا.

يردد البعض الهتاف في غير انتظام فتختلط الكلمات ويطول نغم الهتاف ويخبو على أصوات منفردة.

قبل أن يضيع آخر صوت في العتمة تبرق فوق الرؤوس من جديد خيوط النار الحمراء بذيولها المصفرة المتلاشية بأعداد أكثر من سابقتها، يعقبها دفق ناري فتختلط الأصوات المدمدمة و الصفير الحاد المتواصل بخيوط النار المتلامعة.

.. أجد نفسي وآخرين نتراكض دون إدراك عبر الزقاق الملتوي الأظلم.

أصل إلى أزقة المربّعة ..اعبر إلى أزقة خاوية أخرى.. أتجاوز أسواق الشورجة المقفرة.

.أواصل سيري في دروب ضيقة ليست غريبة علي.. يزداد عطن رائحة الجدران المشبعة بالبول، اعرف إني أسير بالطريق الصحيح.

.. هذه هي دروب الحيدرخانة .

.. أسرع بحذر واعبر ساحة الميدان المقفرة ، خوف أن يكتشف مساري أفراد شرطة الشعبة الخاصة القريبة .

.. "رأسه ينحدر إلى الخلف من على نقالة - سدية - شعبة الطب العدلي القذرة.. عيناه جاحظتان ووجهه رمادي ضارب إلى الصفرة.

..كنا قد أفلحنا بزخم الجمع الهائل وزعيقنا الفوضوي وهتافاتنا العدائية في تسلّم جثة واحدة من قتلى تظاهرات اليوم الأول.."

" عرفنا من مضمد الطب العدلي الذي سلمنا الجثة أن اسم القتيل هو كمال عبد اللطيف.. عامل من عمال ورش إصلاح السيارات في شارع الشيخ عمر.

.. وضعنا عليه أكاليل كانت قد أعدت سلفاً من أولئك الذي كانوا يخططون وينسقون لتظاهرات اليوم الثاني.

.. رُفعت لافتات تحمل حروفا َحمراء.. المجد والخلود لشهداء الانتفاضة .. المجد لأرواح الشهداء والموت للمجرمين الطغاة.. أتعلم أم أنت لا تعلم.. بأن جراح الضحايا فمُ .. (....).. (.. ..).

.. مشى الحشد في نفس طريق اليوم الأول السابق.

.. تزايد عدد المتظاهرين بشكل ملحوظ في منطقة الفضل .."

"..أغلقت بقية المحلات والمقاهي المشرفة على الشارع على عجل.

..تكاثر عدد النسوة النائحات المولولات من وراء عباءاتهن..

.." اويلي على كَلب أمك "..، "شوفوو المسكين بعزْ شبابهْ.."..، "يبوووه على كَلب اللي خَلفَتكْ "

.. هلهلتْ إحدى النسوة..فترددت زغاريد الأخريات..أعقبها صيحة "يبوووووووه" طويلة مكررة.

ازداد حماس الحشد السائر وتأرجحت عينا الرأس المتهدل الجاحظة وجابهتني بنظرات متسائلة كسيرة..

.. تباطأتُ في السير.

خفّت حملقة الحدقتين المرعوبتين فيّ ".

" عند الفرع المؤدي إلى ساحة الرصافي ، دوّت أصوات أعيرة نارية واضطرب سيل الحشد المزمجر.

.. سقطت الأكاليل عن الجثة المحمولة..تهاوى الجسد نفسه من فوق الحاملة.

.. سحب الجسد من بين التجمعات المتضاربة الاتجاه.

أودع الجسد داخل مقهى فارغ نصف مغلق ".

"..كان هنالك شخص بملابس العمال يتلوى ويتخبط بدمائه وسط الشارع الذي أصبح لا يحوي إلا فلولا تائهة.

بتوقف الاطلاقات عادت التجمعات تنتظم مسيرتها في الشارع، ورُفعت اللافتات أمامها وعلت الهتافات من جديد..

.. أصبح الجسد المتلوي النازف ممددا الآن فوق أحد تخوت المقاهي وهو مرفوع فوق أكتاف الحشد الصاخب.

يحوّل الحشد مسيرته باتجاه ساحة الرصافي ليلتقي بالتظاهرة الأخرى السائرة في شارع الرشيد.

.. أسعلُ متنحنحا محاولا بذلك إعادة النشاط إلى صوتي المبحوح.. ارفع بصري لأرى تمثال الرصافي منتصبا. .. أرى تحت قاعدة التمثال تخت المقهى المرفوع .

.. بدأت تنسكب من التخت دفقات دموية.

.. الجريح يمد يده إلى الجمع الصاخب تحته.. يفتح فمه.. يضيع صوته الواهن.. أتخيل إني أسمع صوته الضائع :

- ياهلـلْ الرَحَم نـَزِ لوني..وقـفـوا نزيفي.أسـعـفـوني!.. راحْ أمـوتْ من العطشْ!..قطرةْ مُيّ يا هلـلْ الـرَحَم "

أصوات أطلاقات صادرة من شارع الرشيد و تسمع من بعيد معها أصوات سيارات الإسعاف الناعبة.

..تقترب سيارة إسعاف أمام الركب السائر.. يحاول ممرضو الإسعاف تسلم الجريح من المسيرة العابرة صوب شارع الرشيد..

يحاول حاملو التخت الدامي ان يتحاشوهم وقد زاد حماسهم في الهتاف.

..يمد الجريح الواهن يده صوب سيارة الاسعاف القريبة و..يفتح فمه..يضيع الصوت..يحاول ان يرمي بجسده المنقوع بالدماء الى الارض ..

يقف ثلاثة رجال بمعية احد مضمدي سيارة الإسعاف متصدين بحزم لحاملي التخت المرفوع و يجبرونهم على إنزاله ووضعه على الأرض.

يرفع الرجال الثلاثة الجسد المتراخي ويبدو أن الجريح قد فقد وعيه.. يدخلونه أخيراً سيارة الإسعاف..أتنفس الصعداء ".

يتوقف لفترة شريط أحداث اليوم السابق .

..أواصل السير الآن، و بهدوء أكثر، في أزقة محلة الطوبجي ..البيوت هنا أكبر وأكثر نظافة وهيبة..أبواب كثيرة مشرعة يقف أمامها مجاميع من الشباب وبعض الصغار..البعض منهم يحمل خبزاً والآخر يحمل دوارق ماءٍ أو أقداح لبن..أشرب شاكراً قدحاً.

يعرض علي احدهم المبيت في احد الدور حتى الصباح تحسبا لوقوعي في يد

السلطات العرفية ..اعتذر شاكرا وأواصل سيرى.. " لو حثثت سيري المتخفي، فقد أصل بعد ساعتين إلى بيتنا في الأعظمية ".

..أفاجأ أمام بوابة أحد البيوت المشرعة بأصدقاء ثلاثة، باسل وجاسم تصنيف، ذلك اللقب الذي ألصق به ظلما لأنه مغرم بالغناء وينتهز أية فرصة ضئيلة ليرفع صوته الجميل وفي أي مكان وأية مناسبة، غير مبال بقفشات من معه من أصحابه المناكدين..

يقف إلى جانبهما، صديقنا الهادئ إبراهيم ابن الهايشه الحلوب ..كانت أمه سمينة كبيرة الثديين.

لباسل غرفة خاصة مؤثثة بسرير عريض، ودولاب ملابس واسع، وكنبة فخمة ، وعدة مقاعد لضيوفه.

..على طاولته الخشبية الدائرية الأنيقة مجلات رياضية، وأخرى لمغامرات الوطواط، والرجل الخفي، ونساء الأمازون المحاربات..

هنالك ألبومات عديدة بألوان مختلفة، لمجاميع طوابعه التي كان يكلف شراؤها مبالغ تكفي لسنين من مصروفاتي الجيبية الأسبوعية المقننة باعتدال.

..انه الابن الوحيد لأبيه الشخص المرموق الميسور الأحوال.

- ".. مصطفى على ثروة ! رجل علم وادب ومرب فاضل ونزيه "، كان ذلك هو تعقيب والدي على التحية المرسلة معي من صديقه القديم اثناء احدى زياراتي لباسل في دارهم القديمة في الطوبجي آنذاك.

اطل علينا الوجه الطيب الممتلئ بابتسامة وقورة من باب الغرفة الموارب

- سلامات ابني فلاح!..اكيد ان والدك قلق عليك في هذه الليالي المتعبة الخطرة..لن اقول اكثر من انكم جيل جديد من المراهقين، لا تحسبون حسابا لا لمستقبلكم ولا لعذاب اهاليكم.. تعتبرون كل شيئ في الحياة مغامرة مثيرة، لكنكم تنسون ان المغامرة لن تكون مغامرة ما لم تحمل عواقبها الخطرة والقاتلة احيانا.

.. كان في صوته ملامة مهذبة هادئه ثم متسائلا :

- هل اتصلت بالاهل لتعلمهم بمكان وجودك؟!..تعال معي واتصل بهم الآن وطمئنهم انك باق معنا حتى صبيحة الغد.

..أطلعتُ من رفع سماعة التلفون في بيتنا بمكاني..كان قلقهم مضاعفا ..

.. " الآن قد زال نصف قلقهم..حسنا فعلت " .

تغيب الوالد عن الدار.. طرقت الباب عند الفجر...

.. بعد يومين على اعلان الأحكام العرفية، وصلتنا إشارة من المختار بأن نستعد لكبسة يحتمل أن يُلقى القبض فيها عليّ وعلى أميرة بغياب الوالد وفرات.

كانت الكبسات تلك تتم عند منتصف الليل أو بعده، لذا كان علينا أن نتهيأ أنا والأخت الكبيرة أميرة على الهروب عند حلول الظلام.

الخروج من دارنا مرورا بالزقاق الطويل من محلة الحارة في الأعظمية، والذي ينتهي بمقهى الحارة، حيث يتربع فيها أكثر من مخبر سرّي، مخاطرة غير مأمونة العواقب.

..اهتديت إلى فكرة للخلاص!

البيت المجاور الخالي من أصحابه اغلب الأوقات والذي يشترك معنا في الإطلالة على دجلة في شرفة تكاد تكون لصيقة لشرفتنا، بابه الرئيسي يفضي إلى زقاق ينتهي بمنطقة هادئة خالية من المقاهي والأسواق وقريبة من جسر الكاظمية المتحرك - الممدود على طوافات عائمة .

اعرف تفاصيل هذا البيت بشكل دقيق..وخصوصا حديقته الواسعة المكتظة بأشجار البرتقال والليمون والتي عانت وفلاحيها من هجماتي أل (أرسين لوبينية) خلال ليال عديدة قبل عامين..انتهت هذه الهجمات اللصوصية بطريقة (شرلوك هولمزية) توصل إليها فلاح تلك الحديقة.. لقد اثبت بعد حيرة طويلة، شكه بمصدر التسلل، بأن رش سطح الشرفة والصالة المؤدية إلى الحديقة بمسحوق الجص الأبيض الناعم.. ووصلت

الشكوى المثبتة بالقرائن...كان غضب الوالد وهو يهدر بصوته المرتجف الصاخب أمامي..مفتعلاً.

.. " اعرف – ومنذ عبور دجلة الأول وأنا ابن الثامنة – أن غضبك المفتعل يحمل بين طياته إعجابك الخفي بروح المغامرة.. غضبك المفتعل مكشوف يا أبي! ".

أشرت إلى أميرة بالخطة، ورغم هلعها والاعتراض الباكي للخالتين من مخاطر التشعبط والنطنطة فوق مرتفع من مياه دجلة، فقد نُفذ العبور إلى الشرفة المجاورة تحت سيل من الأدعية الحارة اليائسة والأبصار المرعوبة للمرأتين.

لم يكن مكان الهروب والاختفاء سوى بيوتات الجواهريين في النجف.. وأولها دار أم عزيز جدتنا.

عطلت المدارس بأمر من الحاكم العسكري العام، ومرت أيام الهروب والتخفي وعدنا من النجف لنجد أن الدار لا تزال خالية من الجواهري.. تم اعتقاله مع رؤوساء الأحزاب والصحف المعارضة ومجموعة مستقلة .

صبيحة اليوم الأول لعودة الدراسة، كنت سارحا في أفكار وخيالات تزدحم علي كلما انفردت بنفسي وأنا امشي ببطيء المترنح المعهود عند الصباح.

.. صاحبني فجأة في مسيرتي ظلان ضخمان.

.. خيّم احدهما علي بوجهه وهو ينحني.

– " يمكن تتفضل ويانا للشعبة "

كان الصوت الخشن الآمر بخفوت آتٍ من وجه برز من الظل الأضخم.

.. الوجه حاد الملامح يطل عليّ من أعاليه بشعره الأسود ذي الخصلة المنسدلة على الجبين..العينان مزورتان وملامح الوجه حادة وبشاربين غير كثين.

كانا كلاهما ببدلتين بيضاوين أنيقتين..

..أخذا يسيران إلى جانبي بهدوء ونحن نتجاوز بوابة مدرستي، الإعدادية المركزية.

.. لمحنا بعضاً من الطلاب الموشكين على دخول البوابة الحديدية الضخمة السوداء المشرعة..

حين تجاوزنا البوابة - دون أن ادخل أنا عبرها إلى ساحة المدرسة - وقف البعض منهم متأملين المنظر الغريب :

(امشي أنا بهدوء ودون تعبير منشغلا بتصوراتي الجديدة ودون أن التفت صوب المدرسة، ويمشي على جانبي عملاقان بملابس بيضاء متشابهة متجانسة).

لم تدم حيرة المتفرجين من طلاب الإعدادية المركزية طويلاً، حين تذكروا أن مركز التحقيقات - الشعبة الخاصة- لا يبعد إلا بضع خطوات عن أسوار المدرسة .

تم تفتيشي..دوّنت كل المعلومات التي كان البعض منها يستدعي تأملا أو تفكيرا مواربا قبل الإجابة.. بعض الأسئلة كنت حقا لا اعرف إجاباتها .. غالبا ما كانت الصفعات التي أتلقاها تجد مفعولها، في استقامة وقفتي وأن أجيب حتى على الأسئلة التي لا اعرف إجاباتها الصحيحة.

..تجاوزنا الزنزانة الأولى، ثم الثانية.. الزنزانة الثالثة الطويلة الكابية الضياء والتي دفعت إلى داخلها كان بين العدد الكبير من الرجال من نزلائها، وجه واحد فقط غير غريب عني.. قابلني بابتسامة..عرفته بعد برهة وبعد أن اعتادت عيناي على ضوء الزنزانة الكابي.

- " هَلل..هَلهَل هَل هَـلالا..مِي مِي مِي مَـمَـميـّتْ هَلا..ميـّت هَلا "

لم يكن ذلك الصوت المتأتئ إلا صوت وجدي شوكت أحد قاطني محلتنا .

.. باءت محاولات وجدي في الأشهر الأخيرة الفائتة بالفشل في إقناعي بالانضمام إلى اتحاد الطلبة .

هبّ وجدي من مكانه في آخر الزنزانة ليتقدم ويعانقني بحرارة..

- هذا ففففففلاح الججججواهري..ابن الأستاذ الججججواهري.

سرت همهمة ترحيب بين المجموعة المسترخية على الأرض..

كانت الزنزانات الثلاث تشرف على ممر كونكريتي واحد، ضيق، يعلوه جدار حجري عالٍ متسخ .

..الزنزانة الأولى، كانت للموقوفين في قضايا أخلاقية وجنح..لصوص ولوطيون و قوادون من القطع الصغير متورطون في عراكات غير خطيرة..معظمهم في أسمال أو ملابس رثة في أحسن الأحوال، بينهم أطفال البعض منهم لا تتجاوز أعمارهم العاشرة.

..كانت هذه الزنزانة، صامتة في النهار، مع خليط من شتائم وموّالات متقاطعة الأصوات في أول الليل.

.. بعد منتصف الليل تصل إلينا منها أصوات ضعيفة لاستنجادات مولولة للصغار قد يعقبها صرخات ألم قصيرة سرعان ما تنكتم.

..يعود الهدوء إلى الزنزانة فور سماع صرير البوابة الحديدية المقابلة و المفضي إلى المركز الإداري.

- " لكْ تاليها وياكم أولاد القـ... سَووا شْما تَرْدون بسْ بلا فضايح و هوسه ومشاكل " يزعق أبو إسماعيل، احد الشرطة الخفر، مادا ً رأسه عبر البوابة الضخمة المواربة متوعدا ً.

..ينتظر أبو إسماعيل متنصتاً برهة بصمت قبل أن يعيد غلق البوابة التي يمتزج صريرها بشتائمه المتلاشية.

.. لا أحد يأتي لزيارة هذه الزنزانة لا صباحا ولا حتى في المساء..لا احد منهم ينادي على الشرطي ابو اسماعيل في المساء، ليجلب له علبة سكائر او بضعة ارغفة من الخبز من السوق المجاور.. مشفوعة بـ درهم كامل.." واشر " ..

نزلاء هذه الزنزانة يأتي دورهم في الوجبة الثالثة والاخيرة عند الذهاب إلى المرافق عند النوبة الصباحية او المسائية.

- " ياللا ما خلّصت خَرِيـ.. يا ابن القحـ..!!..شْلون لو جِنِتْ ماكِلْ باجه لو لحم قوزي..يالَه نَزلّها وفُضنا ".

كان صوت أبي إسماعيل يصل إلينا مزمجرا بأقبح الشتائم من المرافق القريبة الملحقة بالممر مستعجلا نزلاء الزنزانة الأولى في قضاء حاجتهم الصباحية .

.. الزنزانة الثانية نزلاؤها أكثر وجاهة من الجميع فمعظمهم بصايات و اشمغة أو عقالات وعباءات جز أنيقة.

..قتلة وشقاوات - فتوات - لهم صيت وسمعة!.. لصوص محترفون

مرحون..أفراد مدانون بجرائم غسل العار لهم هيبة ورفعة مقام.. قوادون من طراز رفيع تأخروا في دفع الحصص - المقسومة - لكبارات رجال الشرطة.

كل هذه المجموعة قد تمت إدانتهم وحكم عليهم، وهم في انتظار تكملة أوراق محكومياتهم لتتم إحالتهم إلى السجون المقررة المتفرقة.

..الزنزانة رقم ٢ هذه هادئة أثناء النهار..تسمع منها في الليالي صوت عتابه جنوبية شجية مصحوبة بأصوات استحسان جماعية، أو أصوات جماعية يعقبها صوت احدهم متسائلا بحيرة : " من ها الكف..لو من ها ألكف..لو ها ألكف؟ "..أو آمرا "هاي ألأيد تگعد..والايد هاي تگعد.. وألأيد هاي.. "..ثم صرخة آمرة بنبرة أعلى : "..جيبها من ها ألأيد " تعقبها صرخة استحسان جماعية.. إنهم يمارسون لعبة المحيبس .

تنظم لنزلاء الزنزانة رقم ٢ في الصباح، بل وحتى في المساء، زيارات خاصة وإضافية تتم من وراء القضبان ، يحمل أصحابها من الزائرين، أمتعة و زنابيل محملة بالأطعمة وعلباً وصرراً.

.. يقوم جيراننا هؤلاء بإحالة واحدة من تلك الزنابيل على الأقل يوميا إلى الزنزانة الثالثة - زنزانتنا - مع عبارة متعارف عليها إلى زائريهم :

- " حوّلوها لهَلْ الشباب النشامى.. هذوله يستأهلون! "

في أواخر الليل تهدأ هذه الزنزانة تماما.

.. دورهم هو الثاني في الوجبة الصباحية للذهاب للمرافق :

- " على راحتك اخويا على راحتك لا تستعجل.. اللي بعدك يگدر ينتظر!"، يتردد صوت أبي إسماعيل بوّد مطمئناً من وراء باب المرحاض.

.. لأبي إسماعيل من هذه المجموعة محصول واشرات عديدة وأحيانا أرباع دنانير في اليوم،وذلك تلبية لطلباتها في استحضار أقداح الشاي أو المشروبات الغازية من السوق المجاورة.

نزلاء الزنزانة الثالثة - نحن -، يدعون بالسياسيين وهم مجموعتان : الأولى ممن تم الحكم عليهم وبمدد مختلفة وهم ينتظرون إتمام أوراق أحكامهم الصادرة والمحالة من المحكمة العسكرية ، ليرسلوا معها إلى السجون الثلاثة، سجن بغداد المركزي، وسجن

الكوت، أو سجن نقرة السلمان..من بين هؤلاء عدد مخضرم عريق في سجونه ومعتقلاته .

المجموعة الثانية من الزنزانة، هم معتقلو تظاهرات الانتفاضة أو المحرضون عليها.. هؤلاء ينتظرون مصيرهم بالإفراج بعد عدة أسابيع من التوقيف، أو الإحالة إلى المحكمة العرفية العسكرية.

..يكاد يكون كل النزلاء في زنزانتنا- ومن الفئتين- من الأفندية .

هذه الزنزانة التي بدأ عدد نزلائها، من الوافدين بعد منتصف الليل، يتضاعف خلال يومين متتاليين، كانت هادئة بوجه عام أثناء النهار.. إلا من أصوات تذمّر جماعية مصحوبة بقرقعة ضرب الصحون المعدنية على الأرضية الكونكريتية - أحيانا يجري طرق هذه الصحون على القضبان - ، احتجاجا على رداءة الطعام الذي هو في الغالب عبارة عن بضعة فصوص من الباقلاء اليابسة والعديد من قشورها العائمة في سائل مسودّ، مع رغيف صمونة سمراء مسوّدة يستعصي قضمها أحيانا.. أو أصوات احتجاج أكثر عصبية ونبرة حين يعود احد الموقوفين من تحقيق إضافي وعليه آثار ضرب ظاهرة.

.. لا يعير أبو إسماعيل أية أذن لأمثال هذه الأصوات التي اعتادها.

..تهدد أصوات من الزنزانة الثانية في اغلب الأحوال متضامنة مع زنزانتنا، ومنذرة أبا إسماعيل بقطع واشراته .

.. في الليل تسمع منها أصوات حوارات سياسية، نادرا ما يعلو فيها صوت احدهم بعصبية أو تشنج.. أصوات حكايات وقفشات تتناوب على احد نزلائها يعقبها ضحك صاخب.

..كان نصيب تأتأة وجدي شوكت حصة كبيرة من هذه القفشات.

يخترق أحيانا صمت الليل نشيد أعيد مراراً :

- " السجن ليس لمثلنا نحن الأباة

السجن للمجرمين الطغاة "

" ولكننا سنصمد سنصمد

وإن لنا مستقبلاً سيخلد "
" لنا الغد، لنا الغد، لنا الغد
حيث تنصب المشانق..لمــــن؟؟ "

.." للمجرمين الطغاة..للمجرمين الطغاة "
أو يبدأ صوت آخر فينشد بعد فترة صمت فتشاركه نفس الجوقة
- " إلى الأمام..نحن نمشي تحت رايات السلام
... ... "
ولابد للنشيد الكردي أن يعلو أيضا
- " امروكي..داني كوردي بخوشه بها توا.."

يتراكض في الغالب بعدها أبو إسماعيل ليضرب في أكثر الأحيان على قضبان الزنزانة بشدة :

- " اسكتوا الله يخليكم..اسكتوا مو آني اللي أتعاقب لو يسمع المعاون!! "

حين لا ينفع رجاء أبي إسماعيل..تنصب لعناته وشتائمه المهذبة على الشيوعيين العملاء الملحدين .

لرواد هذه الزنزانة الدور الأول في نوبة المرافق الصباحية

..شتائم أبي إسماعيل الاستعجالية من وراء أبواب المراحيض، غالبا ما تكون شتائم مهذبة .

.. زائرو هذه الزنزانة قلة ضئيلة وهم في الغالب من مجموعة الأفندية المحترمين التي لا تحمل زنابيل طعام أو لفائف أفرشة أو لوازم يومية.

.. لا يستجيب أبو إسماعيل لجلب علبة سكائر أو بعض الأطعمة من السوق المجاور لأن دفع الدرهم الإضافي له يعتبره أكثر أفراد الزنزانة رشوة ، والرشوة عند المناضلين شيء مستنكر..إنها قضية مبدأ.

وحين يتدخل أفراد أغوات الزنزانة المجاورة لحثه على تلبية الطلبات القليلة يستجيب مكرها بعد أن يدمدم :

- " هَذوله مُو مثلكم بُوخجية..هَذوله جماعة فُكُر عُصّين بُخلَهْ والعياذ بالله.. "

تزايد عدد نزلاء الزنزانة للحد الذي أصبح النوم على الجنب أمرا لا مفر منه.

في اليوم الثالث أتى معاون شرطة المركز، وبدأ يقرأ مجموعة من الأسماء.. كان اسمي مدرجا في القائمة أيضا.

- " انتو اللي إنذكَرِتْ اساميهم يْحَضرّون حاجاتهم حتى يتم نقلهم إلى مركز ثاني ".

.. علت أصوات تتذمر و أخرى تستفسر عن المكان المجهول المزمع نقلنا إليه.

صرخ معاون الشرطة آمرا بالصمت، وموضحا انه لا علم له بالوجهة المقصودة.

بعد ساعتين غادرنا الزنزانة لنقف في الممر المقابل، مع ثلة من الشرطة، وحين بدأنا السير باتجاه البوابة الحديدية المشرعة بدأ نشيد الباقين في الزنزانة..

- " السجن ليس لمثلنا نحن الأباة.. السجن للمجرمين الطغاة.. ولكننا "

.. حين حاول واحد منا نحن المسفّرين الاستجابة للأصوات القادمة من زنزانة ٣ والمشاركة في النشيد، أتته ضربة قوية على الرأس من معاون الشرطة " أنجب ابن الكَحـ..! ً، اهتزّ الصوت للكفخة ثم خمد، وخرجت المسيرة صامتة لتحشر في بوكس حديدي مغلق بنافذة صغيرة محكمّة بقضبان.

تحرك البوكس في طريقه إلى المجهول.

ساعة من حركة الحافلة بين شوارع بغداد أولا ثم خارجها كنا نتابعها من النافذة الصغيرة.

- لقد أصبحنا داخل معسكر أبي غريب!، قال احدهم بدهشة، بينما بدأ سير الحافلة بالتباطؤ.

توقفت أخيراً وتم إنزالنا وصفّنا وعدّنا من جديد.

.. كنا أمام بناية قديمة طويلة من طابق واحد ، مزوّدة بشبابيك صغيرة عالية.وبوابة خشبية بظلفتين ومسوّرة بسياج حديدي معتدل الارتفاع.

حضر ضابط برتبة ملازم ثانٍ مع مجندين.. استلم قائمة الأسماء من عريف الشرطة الذي رافقنا.

- " أهلا بيكم في معسكر أبو غريب!..لا تعتبرون بقاءكم ويانا حبس.. حتى ولا اعتقال، اعتبروها إقامة مؤقتة حتى يتم إطلاق سراحكم بعد مدة ".

ابتسم الجميع..ضحك بعضنا فرحا..انهالت الأسئلة والاستيضاحات على الضابط الذي كان يجيب عليها بابتسامة مطمئنة وطولة بال.

فتحت لنا البوابة الخشبية للبناية.. كان في انتظارنا بداخل الممر الطويل مجموعة مرحبة من الشباب، البعض منهم يرتدي ملابس بيتية دشداشة، أو بيجامات .

- " أهلا بالشباب.. هلهْ بيكم "، بادرنا عدد منهم.

قبل أن يغادرنا الضابط ويغلق البوابة الخشبية خلفه قال :

-" أي شكوى أو طلب يمكنكم أن توصلوها إلينا عن طريق ممثلكم وزميلكم في السكن لا المعتقل جعفر مطر وستصل إلى آمر المعتقل نفسه.. ولابد أن نجد لها حلولا.

.. يا للمفاجأة المفرحة، إذاً صديق العائلة جعفر مطر، زميل أختي أميرة و زوجها عيسى في كلية دار المعلمين العالية، معنا في المعسكر!!

كان معظم الموجودين هنا هم طلبة دار المعلمين العالية وكليتي الآداب والحقوق.

تم توزيعنا على الغرف، وكنت في الغرفة التي ينزل فيها جعفر مطر مع ثلاثة آخرين من زملائه في الكلية.

الغرفة كغيرها في البناية معتدلة المساحة ومزودة بحصيرتين على الجانبين مدّت عليها بطانيات النوم النظيفة الصوفية.. تبقى بين الحصيرتين وبين الأفرشة الممدودة مجالات تكفي لوضع رقعة الشطرنج المصنوعة محليا، مع قطعها المختلفة المنحوتة من عجين الصمون.

.. شباك الإنارة الصغير في أعلى الجدار غير محكّم بأية قضبان.

حين فُتحت البوابة الخشبية في الليل ووضعت فيها قدور العشاء، قام بنقل القدور من السيارة العسكرية إلى المطبخ مجموعة من النزلاء المناوبين لذلك اليوم .

.. المطبخ مزود بموقد نفطي وقدور و أوان وأقداح وملاعق وشوكات.

كان العشاء مكونا من الدجاج وسلطة الخضار مع أرغفة كافية من الصمون الأبيض والأسمر.

.. الوجبات جميعها في هذا الفندق-المعتقل المتواضع كانت أفضل مما اعتاد معظم النزلاء تناوله في بيوتهم.. وأنا منهم.

عند توزيع واجبات المناوبة اليومية على الذين انضموا حديثا ، وهي تشمل تنظيف ومسح أرضيات الغرف والممر المشترك الطويل.. غسيل الملابس والأغطية.. تسخين الأكل وتوزيعه.. تنظيف المرافق الصحية الموجودة داخل البناية.. إعداد الشاي وتوزيعه..

.. كانت حصتي في المسؤوليات هي غسل الصحون بشكل يومي دائم بصفتي اصغر المجموعة عمرا وبصفتها اقل المسؤوليات جهداً.

يتم فتح الباب الخلفي المؤدي إلى ساحة واسعة محاطة بسياج أوتدة خشبية غير مرتفع مرتين في اليوم ، مرة عند العاشرة صباحا ، والأخرى عند الخامسة مساءً ولمدة ساعة نسترخي فيها في الشمس الدافئة، ونطل منها على الساحة الأخرى الأوسع المشجّرة والمقابلة لنا.. الساحة مزودة بمقاعد ومناضد وكراسي استراحة طويلة.

كنا نستمتع بمشاهدة مظاهر الأبهة التي نراها في الجانب المقابل ونعلّق وبنكات ساخرة أحيانا على المجموعة الأخرى من النزلاء حين تخرج إلى الساحة الأوسع من البناية الأحدث عمرانا من مقرنا.

.. بدلات أنيقة.. أرواب دي شامبر.. طاقيات ذات إشكال متنوعة وغريبة.. قبعات إفرنجية.. غلايين مختلفة الأطوال والألوان .. سيجارات هافانية..

الكل هناك في حالة استرخاء، فمن يمد جسده على كراسي الاستراحة الطويلة، إلى آخر يتمشى ساهما أو مندمجا في حديث يبدو أنه مرح، إذ تصل إلينا أصوات الضحكات.. هناك من يجلس أمام صاحبه أمام الشطرنج، أدوات الشطرنج ومائدته من الخشب وليست من العجين المتيبس ..اثنان يلعبان النرد.. آخران يلعبان لعبة (الريشة والمضرب).. مجموعة صغيرة تجلس في حوار يبدو انه جاد.

سلال الأطعمة، التي تأتي من مساكن الجبهة المقابلة ومن مريديها ، كبيرة ومتنوعة.. أقفاص فواكه ضخمة، وعلب أنيقة بشرائط يظهر عليها أنها علب حلويات ومعجنات..قدور أكل ضخمة تتصاعد أبخرتها ، تكفي لكتيبة كاملة.. سيارات فخمة تتقاطر صباح مساء ينزل منها الزائرون بوجوه مهيبة و بدلات احتفالية أنيقة.

في البناية المقابلة لنا كانت الصفوة المعتقلة.. رؤساء أحزاب.. رؤساء تحرير صحف معارضة.. وجوه سياسية مستقلة مرموقة.

.. كان الجواهري احد نزلاء الجبهة المقابلة، معتقل الخمسة نجوم هذا.

..

الانتفاضة ٣

- إضراب!! " ماكو دوام! ".. إضراب!

- " ادخلو أولادي! ادخلو.. يوم دوام عادي..يالّه دخلو!! "

..كانت عين العصفور الجانبية تخزرني شزرا..عين واحدة ثابتة عليّ، لا أرى اتجاه الأخرى..

- " إضراب..روحوا لبيوتكم..إضراب ماكو دوام ".. يزيد عنادي وتعلو نبرة صوتي، رغم الرهبة التي تعتريني من عين الطير الجانبية المثبتة عليّ.

تميل عين الطير الحولاء جانبا، ويستدير وجه علاء الدين الريس ويصبح مواجها لي..يقف لحظة ثابتا في مكانه من الجهة الثانية من بوابة الإعدادية المركزية الضخمة المشرعة.. تتسع حدقة عينه اليمنى بغضب وتهتز حدقة الأخرى الحولاء محاولة الاقتراب، حين لا تفلح تبتعد إلى الزاوية القصوى من العين.. يتقدم صوبي بهدوء وثبات..يصبح عني قيد شبر.. يطل عليّ من علو قامته الضخمة لحظة قبل أن ترتفع يمناه لتهوي بعنف على خدي الأيسر وجانبا من صدغي.. يتزلزل رأسي وتهتز معالم الرؤية أمامي..يختض جسدي وأميل إلى الجهة المعاكسة قبل أن أعيد توازني.. ارفع رأسي وانظر إليه بغضب عارم.. أصر بأسناني وأطبق شفتيّ بحزم كي لا أطلق صرخة احتجاج أو عبارة تحدي..

.. أستدير من جديد مواجهاً الشارع الضيق الذي يقف فيه بعض الطلبة مترددين بخطواتهم، دون أن يحسموا موقف دخولهم إلى المدرسة من عدمه.

- إضراب!!.. ماكو دوام!.. روحو لبيوتكم..إضراب!

كان صوتي يقرب من الصراخ هذه المرة ونبرته اشد تصميما.

- " دخلو أولادي دخلو!.. دوام..دوام وما عليكم بها المهزلة..يالّه أولادي، واجبكم المدرسة..يالّه دخلو.. "

التظاهرات كانت محدودة هذه المرة لم تتعد حدود المشاركة الطلابية الجامعية وبعض من طلاب المدارس الثانوية، ولم يكن دافعها أي استفزاز أو قانون مجحف جديد من السلطة، ولم يكن هنالك أي تجاوز جامعي بالفصل أو صدور قوانين امتحانيه جديدة..الغرض الرئيس هو محاولة إبقاء جذوة انتفاضة تشرين، التي أخمدتها الأحكام العرفية العسكرية، مشتعلة.

لم يكن النفخ في رماد الجذوة كافيا لاتقادها وسرعان ما تفرقت المظاهرات محدودة السعة، إما بتقلص عدد أفرادها التدريجي أثناء المسيرة، أو تحت تهديد مجاميع صغيرة من الأمن والشرطة، أو نتيجة لاعتقالات فورية لمتظاهرين تفرقوا هنا وهناك مع تعقب وجوه معروفة منهم لرجال الأمن والشعبة الخاصة.. افلتُ هذه المرة من الاعتقال في ذلك اليوم .

.. حين رافقني في اليوم التالي الشخصان الأنيقان ببدلتيهما البيضاويتين، قبل التفافي من الفرع المجاور لبوابة الدفاع الجانبية والمؤدي إلى الإعدادية المركزية ، لم يثر لا طولاهما ولا ظلاهما عليّ أي استغراب هذه المرة.

.. لم يوجها أية كلمة لمصاحبتهما ، ومشيت بينهما دون وجل أو تلكؤ.. حين اجتزنا بوابة الإعدادية المشرعة، والطلبة الموجودين في ساحتها أو الهامين بدخولها ، لم يثر المنظر أي دهشة كالتي أثارها في المرة السابقة.

- "هَمْ صادوك فلاح مرة ثانية!" علّق أحد الطلبة، أعقبتها ضحكات وعبارات ممازحة.

في موقف الشعبة الخاصة وفي نفس الزنزانة من جديد.. لاشيء تبدل غير وجوه نزلائها.. تعرفت على ثلاثة أو أربعة ممن شاركوني المكان نفسه أو معتقل "أبو غريب".. بعد ساعة أو أقل دُفع إلى الزنزانة بصديق آخر للعائلة ولي.. عز الدين مصطفى رسول وكان يسب ويلعن بوجهه المحمّر المحتقن، الحظ العاثر هذه المرة ، فقد وجدوا في جيبه منشور الحزب الشيوعي الذي نسي أن يتخلص منه بعد قراءته أو تسليمه إلى سيء حظ آخر.

.. بعد ساعتين دخل علينا وجدي ومن خلال التأتأة عرفنا أنه قبض عليه أثناء تواريه عند احد الأقارب.

لم تكن الزنزانة مزدحمة كالمرة السابقة، غير أن الزنزانة المجاورة رقم ٢ كانت على نفس الوجاهة والنظافة، وبقيت زنزانة رقم ١ على قذارتها وفوضى وجوهها المريبة والبائسة ذات الأسمال.. وفيها نفس الشريحة من الأطفال متسخي الوجوه الحفاة.

كان أبو إسماعيل وهو أبو إسماعيل السابق ذاته، أكثر مللاً وخشونة في تعامله معنا، رغم محاولة بعضهم استرضاءه بدرهم إضافي لجلب استكانة الشاي أو علبة سجائر.. كان النزلاء هذه المرة أقل عقائدية مع الرشوة من النزلاء الشيوعيين المحكومين، الذين كانوا معنا في زنزانة ٣ في المرة السابقة ، والذين يبدو أنهم قد تم توزيعهم كل إلى سجنه.

.. لم تزدحم الزنزانة بأفواج من قادمين جدد كالمرة السابقة .

عدد زائرينا من الأفندية كان اقل أيضاً.. عند زيارة أستاذ المسرح العراقي حقي الشبلي لأحد أقاربه من الموقوفين، وحين قفزت فرحا لأحييه من وراء القضبان اخبرني بأسفه لاضطراره إلى إعطاء دوري كمسيلمة الكذاب في المسرحية التي سيتم عرضها بعد أسبوع على قاعة مسرح الإعدادية المركزية.. كان خجلي كبيرا من أنني قد خذلته مرغما.. (خذلته وفي ظروف مماثلة بعد سنة في ثانوية الأعظمية- التي أرغمت على الانتقال إليها -، وفي الدور الرئيسي من مسرحية القبلة القاتلة وقبل أيام معدودة من عرض المسرحية).

لم تدم إقامة الكثرة منا في موقف الشعبة الخاصة أكثر من عشرة أيام.

كانت مسيرة التظاهرات هذه المرة قادمة من دار المعلمين العالية، التي أعلنت إضرابها ، لتلتقي بطلبة كلية الحقوق.

التحشّد كان عند مدخل كلية الآداب.

.. نفس الشعارات والهتافات التقليدية السابقة..يسقط..!.. يعيش..!..الموت لـ..!..نضال الشعب..!..وطن حر..،.. إلى الأمام..!.. الخبز و السلام ..

وقف وجدي شوكت على سياج الكلية الحجري :

- الممممموت لصصصصصناع الححححرو...

احمر وجهه من المحاولة الطويلة اليائسة للتغلب على تأتأته.

.. حين أدرك عجزه عن إكمال الهتاف، نزل مدمدما لاعنا خيبة لسانه.
.. صعدت أختي أميرة مكانه من الجدار :
- " يوم الشهيد تحية وسلام.. "

لم تستطع تذكر بقية البيت والأبيات التي تليه.
نظرت إلي تطلب العون.. قفزت إلى مكانها بعد أن تخلت عنه :
-" يوم الشـهيد تحية وســـــلام
بك والنضال تؤرخ الأعوام
بك والضحايا الغر يزهو شامخا
علم الحساب وتفخر الأرقام "
حين أكملت بضعة أبيات أخرى وختمتها بالهتاف الصارخ المتشنج :
" عاش نضال الشعب من أجل الحرية والديمقراطية والسلام "..امتزجت بعدها موجة التصفيق بهتافات عديدة متقاطعة " يا !..يعيش! ".." يعيش! ".. "يا!..يسقط!! "..يعيش..، يسقط!..يعيش!..الموت..!..
علَتْ همهمة وتخلخل في صفوف موكب المتظاهرين الموجود خارج أسوار الكلية.. ظهرت شاحنات كبيرة مرصوصة بأفراد الشرطة المدججين بالخوذ والهراوات مع وجود جماعة منهم تحمل بنادق غير اعتيادية الشكل، وتضع كمامات واقية على وجوهها.
توزّع أفراد الشرطة في أماكن مختلفة.. وضع حاملو الهراوات منهم كمامات مشابهة لتلك التي تحمل البنادق.
..سقطت بضع اسطوانات كارتونية صغيرة سوداء في الشارع بين أقدام المتظاهرين، وبدأت تدور على نفسها قبل أن تطلق دخاناً أبيض.. توالت الاطلاقات المكتومة مصحوبة بسقوط عدد آخر من هذه الاسطوانات..
تصاعدت سحابات دخان صغيرة، أعقبها سعال بعض المتظاهرين ممن وضعوا اكفهم فوق أعينهم وبدؤوا بدعكها بشدة..تحرك العديد بشكل عشوائي وهم يحنون رؤوسهم داعكين أعينهم بشكل اشد.
.. هرع أفراد الشرطة من حمَلة الهراوات تجاه المتظاهرين المتصادمين ببعضهم، واهووا بهراواتهم على الرؤوس والظهور والأعقاب.

.. اقتربت شاحنة ودخلت وسط الحشد المتخلخل.. نزل أفراد بكماماتهم ليدفعوا بمن لم يفلح في الهروب، إلى ظهر الشاحنة..

- " غازات مسيلّة للدموع..غازات مسيلّة للدموع..اعتصموا يا رفاق داخل بناية الكلية.. تعالوا إلى داخل بناية الكلية!! ".

أفلح عدد غير كبير في الاحتماء داخل البناية قبل أن تغلق أبوابها من الداخل وتحكم برتاجات حالت دون تعقب الشرطة واقتحامها.

.. وجدتُ نفسي داخل احد أروقة البناية وأنا ادعك عينيّ بشدة، دون أن استطيع منع الحرقة الشديدة وسيل الدموع المنهمر.. بدأتُ أسعل سعالا حادا ، أعقبه لهيب حارق في حنجرتي ورغامتي.. كلما زاد سعال الحماية هذا، ازدادت معه الحرقة اللاسعة..

- احضروا جرادل ماء!..ماء يا أخوان!..أغسلوا وجوهكم بالماء !

تراكض البعض بحثا عن صنابير الماء.. وجدوا المرافق وبدأ البحث عن جردل للماء.. وعندما وجدناه وبدأنا بملئه بالماء، انقطع جريان الماء من كافة صنابير المرافق ومن تلك الموجودة في ساحة الكلية أيضاً، ومن أقسام البناية العلوي..

لقد قامت الشرطة بقطع الماء من مقياس الماء الموجود قرب بوابة الكلية الخارجية.

.. بدأ عدد من قذائف الغازات تتساقط على قاعات الكلية عبر النوافذ المشرعة.. سارعنا إلى إغلاقها..خرجنا إلى الأروقة الجانبية.. تسرب الغاز وهو يلاحقنا إلى هذه الممرات من تحت مجالات الأبواب التي اغلقناها خلفنا بعد خروجنا من القاعات.. نضونا عنا قمصاننا والسترات بالنسبة لمن كان يرتديها.. قسم منا نزع حتى بنطاله وبقي بملابسه الداخلية.. أفلحنا بحشر ثيابنا المنزوعة في إحكام سدّ بعض الثغرات التي يتسرب منها الغاز.

نقَع من كان يحمل منديلا منديله بالماء القليل في قعر الجردل ونزع آخرون فانيلاتهم أو قمصانهم لينقعوها بالماء الشحيح ووضعوها على أنوفهم وعيونهم.

.. واصلت الشرطة قذف قنابل الغاز إلى ساحة الكلية الخلفية هذه المرة.. انتقلت غمامات الغاز إلى البيوتات نصف الخربة و إلى الأخرى البسيطة خلف أبنية الكلية..

كان في ذلك خلاصنا..

بعد دقائق من وصول غمامات الغاز إلى البيوتات القديمة المتهالكة، خرج عدد من أهالي المنطقة بشكل عشوائي من منازلهم، لاعنين الشرطة والحكومة ، التي بدأت برش منطقتهم بـ " غبار الفلفل الحار "..توجهت مجموعة منهم عبر الزقاق الضيق المؤدي إلى الشارع الرئيسي ليلعنوا ويشتموا، في نفس الوقت الذي بدؤوا فيه يطالبون ضابط الشرطة بوقف الهجوم، وان يرحم " النسوان والزعاطيط " الذين احترقت عيونهم والباكين بلا توقف، و " العجايز الكَركَمات " و" الشيّاب الكَاضين " الذين اختنقت أنفاسهم .

.. كان احدنا ينقل ما يدور من احتجاجات الأهالي، ومن ثم المفاوضات عبر ظلفة احد الشبابيك المفتوحة.

لقد تمّ الاتفاق بعد ساعة مع سكان المنطقة وفق الشروط التالية :.." أن ننهي الاعتصام في بناية الكلية.. أن نوقف الهتاف والصراخ.. أن نتسلل فردا فردا عبر سور الكلية الخلفي المثلوم إلى الأزقة المجاورة لبيوتات المحتجّين من سكانها.. وأن نذهب إلى بيوتنا دون تعرض الشرطة لنا في هذه الأزقة ".

.. بدأ بعض عقلاء المجموعة، بتنظيم خروجنا عبر سور الكلية الخلفي نصف الخرب.

كنت اعرف أزقة هذه المنطقة بصورة تفصيلية، فقد سبق لمقر إحدى جرائد الجواهري أن يكون في احدها، وهو الزقاق الذي تؤدي نهايته إلى فرع خلفي من فروع المبغى العام، الكلجية ، حيث انتهيت إليه صدفة في مساري قبل أكثر من ثلاثة أعوام وأنا أحاول أن أتجاوز ضجري، بالهروب من الجلوس في غرفة والدي المنشغل و المنهمك في كتاباته أو دورانه على محرر أو كاتب أو احد عمال الطباعة.

..حين انتهيت في جولة هروب سارحة في الزقاق الخالي في الظهيرة إلى الوصول إلى نهايته، جابهتني وجوه نسويّة مرعبة ، متعبة مريضة، ملطّخة بأصباغ دبقة، تقف أمام بيت شرقي شبه خال مشرع بابه.

.. رفعت إحداهن ثوبها الداخلي الخفيف الذي لا يستر إلا جزءا يسيرا من جسدها الذابل.. لتعرض مفاتنها على احد المتسكعين القلّة المارين من هناك وقت الظهيرة..

..تضرب على أسفل بطنها الضامرة المغضنة وتردد بحشرجة مبحوحة :
- " كل ها المال بـثَلاثْ دراهم..كل.. " .. " كل هذا بثَلثْ دراهم! ".
..أصابني فزع جنوني.. انطلقت راكضا بسرعة من يتعقبه الشيطان نفسه.. دخلت لاهثا إلى بوابة الجريدة المشرعة ليل نهار وأنا غير مصدق بنجاتي.
.. بقيت ألهث دقائق طويلة قبل أن استعيد أنفاسي بصعوبة واصعد بعدها إلى زاويتي من غرفة عمل والدي وآخذ مكاني بصمت كي لا ينتبه الآخرون إلى ارتباكي.. سيطر علي ذهول وحزن لا اعرف حقيقته..
كان " المال " المعروض شيئاً ظل يتابعني بصحوتي أياما ، وينغص علي منامي الذي هاجمته الكوابيس ليا ليَ عديدة، ومنعني من أن آكل بشهية أي زاد يقدم إلي ّ، بل لقد تقيأت مرتين في ذلك اليوم المنحوس..
..بطن صفراء ذابلة مغضّنة لا تخلو من بقع حمراء وخطوط سوداء، ساقان هزيلتان تنتعل قدماها المتسخة الأصابع نعلاً مطاطياً أحمر اللون، فخذان احدهما هزيل متغضن، والآخر يماثله إلا عن بقعة دائرية كبيرة حمراء متورمة، تتوسطها حفرة وردية اللون صديدية ، متقرنة رمادية شاحبة في حواشيها..

.. بين أعلى هذين الجزأين من بقايا الجسد البشري المتهري.. بين اعلي ما يسمى مجازاً بالفخذ ين، كانت هنالك كتلة متغضنة ذاوية، مسوّدة بجذور الشعر المنزوع الذي لم تحسن إزالته.
.. بعد أكثر من عشر سنين، حين برزت الصورة كما تبرز أمامي الآن، في احد مشاهد عرض سريري في علم الأمراض التطبيقية،عرفت أن هذه الدائرة الورمية الصديدية المتقرنة الحواشي التي شاهدتها في أعلى الفخذ الأيمن، هي (الشانكر السفلسي).
حين كنت انزل السلالم ما بين شارع الرشيد وزقاق الجريدة بعد هذا الحادث، كنت أخشى رفع بصري كثيرا خشية أن أرى نهاية زقاقنا المؤدي إلى زقاق الكارثة.. أعجل بخطواتي لأصل إلى بوابة الجريدة المشرعة.. أرفع بصري حالما ادخل وأتنفس بعمق قبل أن اصعد إلى مكاني من شناشيل غرفة التحرير المطلة على السلالم المؤدية إلى شارع الرشيد.

.. ارقب كعادتي يوميا أهل الزقاق في صعودهم ونزولهم، وحركة المارة في الشارع الكبير المواجه.. لا يفوتني عند العصر، أن انتبه إلى ظهور السيارة الفخمة السوداء، التي تقف ثوانيَ أمام مدخل الزقاق، ليصعد حال وقوفها رجل سمين ينوء بجسمه الضخم وكرشه المهتز وكتلتي ردفيه الهائلتين أثناء ارتقائه السريع سلالم الزقاق وبيده كيس ثقيل ابيض.. يقف منحنيا بخشوع أمام النافذة الخلفية للسيارة السوداء.. ينزل زجاج النافذة ويظهر رجل شرطة تلمع رتبه العسكرية فوق كتفيه وهو يجلس في مقعده الخلفي بهيبة ووقار شديدين، ودون أن يلتفت بوجهه وعينيه المختفيتين وراء نظارة سوداء.

.. يمد الرجل الضخم السمين المرتدي دشداشة بيضاء حريرية يده التي تحمل الكيس الثقيل.. يتناولها رجل الشرطة ذو الرتب اللامعة بيده اليسرى بملل دون أن يتزحزح عن جلسته الوقورة فوق مقعده.. يرفع زجاج شباك السيارة الخلفي.. تتحرك السيارة الطويلة السوداء.. ينحني الرجل الضخم السمين بخشوع منتظرا تجاوز السيارة السوداء واختفاءها.

.. يتكرر المشهد كل مساء.

.. مرة أخرى إلى الشعبة الخاصة .. في داخل مركز الشرطة هذا، اجلس كالعادة في ممر ضيق نصف مظلم، أمام غرفة معاون الشرطة في انتظار دوري في التحقيق.. اسمع صوت المعاون يشتم صارخا.. يصل صوت الصفعات.. تأخذني رهبة لا تطول.

أثناء تفتيش الشرطي المعتاد لجيوبي أمام مكتب المعاون ، تذكرت مرعوبا وجود ورقة صغيرة في جيب بنطالي، كنت قد كتبت فيها ستة أسماء من زملائي في الإعدادية، وأمام كل اسم الزقاق أو فرع الشارع المؤدي إلى مدرستنا..كانت مهمتهم الموكلة إليهم هي محاولة إقناع الطلبة المتوجهين إلى الدوام الصباحي بالعودة من حيث أتوا لأن هنالك إضرابا، أو حثهم على المشاركة في التظاهرات التي ستنطلق من أمام كلية الآداب.

.. كنت قد نسيت إن أتخلص من هذه الورقة باسمائها أمس بعد إتمام توجيهاتي لزملائي الستة.

حاولت أن أمد كفي اليمنى إلى جيب بنطالي بحذر شديد، أثناء انشغال الشرطي بإفراغ بقية جيوبي.

.. انتبه معاون الشرطة إلى حركتي.. صرخ بأعلى صوته وهو ينهض من وراء مكتبه محذرا الشرطي :

-" لك انتبه حمار! شوف هذا شد يّ يطلّع من جيبه! ".

قبل أن يحاول الشرطي إيقافي من إخراج ما في جيب بنطالي، كنت قد أفلحت في إخراج الورقة.

.. انكفأت على وجهي منبطحا فوق الأرض الإسمنتية وحشرت الورقة كاملة في فمي وبدأت أعلكها على عجل

.. سارع الشرطي إلى الانبطاح بدوره محاولا مدّ كفه تحت وجهي المطبق بإصرار على الأرض، في حين سارع المعاون وشرطي آخر أتى لنجدتهما إلى توجيه الركلات إلى مختلف أنحاء جسمي.

.. حين افلح المعاون الذي انبطح أمامي أيضا في مد إبهامه داخل فمي، محاولا إخراج الورقة ، أطبقت بكل قوى فكيّ على ذلك الإبهام.

.. سمعت صرخة حادة، أعقبتها شتائم ولعنات وازدادت الأقدام الراكلة والساحقة فوق جسدي.

صحتُ بعد لحظات بصوت حاولت إسماعه إلى الراكلين :

- " بلَعـتـْها!.. بلَعـتـْهِا!.. بلعـتـها "..كنت فعـلا قد أفلحت في ابتـلاع الورقة المعلوكة جيدا كلها.

استمرت الركلات والشتائم لحظات بعدها.. توقفت أخيرا.

حين جُررت إلى داخل الزنزانة.. كنت مدمى الوجه، لا استطيع الوقوف على ساقيّ المرضوضتين.

..من الزنزانة ٣ علت اصوات احتجاجات ولعنات.. اُطلق هتاف استجاب لترديده البعض.

لم استطع النوم لا على ظهري ولا على اي من الجنبين.. كانت اضلاعي وكل

عضلة في جسمي تتحسس حصيرة الزنزانة تحتي بردة الم حارقة.. إضطررت ان اتحامل على نفسي كي انبطح على الارض بحذر لانام دون اية محاولة لأن انقلب على ظهري او على اي من الجنبين.

..نادوا عليّ بعد يومين.. اقتادوني إلى غرفة مدير المركز.. وجدت والدي جالسا على كنبة مجاورة لطاولة المدير.. وأمامه فنجان قهوة ممتلئ يبدو انه لم يقربه .

وقفت أمام والدي الذي كان ينظر إلي بحيرة فيها عتاب واستغراب وألم..

أشار مدير المركز إلى كرسي في احد أركان الغرفة وأومأ برأسه.. جلست.

.. ساد صمت توجهت فيه عينا والدي محملقتين فيّ بحيرة .

.. طُرق الباب بلطف.. د خل رجل بملابس مدنيه، إبهامه الأيمن مشدود بضماد كبير.

أدى التحية العسكرية أمام مدير المركز ووقف منتظرا ًبهدوء.

– " هاي ليش عضيت إصبع المحقق المسكين ؟ "

كان الجواهري يوجه سؤاله إلي بنبرة توبيخ، على حين كانت عيناه المحدقتان فيّ بثبات تكادان تفضحان الغضب المفتعل وراءهما .. كان فيهما تساؤل مرح ساخر.

– يكذبون !.. إدّعاء" بُويه ".. إدّعاء!

– " لك شلون يكذبون.. شلون إدعاء! .. شلون إدعاء والموظف المسكين مضبّرة اصابيعه؟! "

– كذب!.. إدّعاء! قلتها مجددا دون أن ارفع بصري في مواجهته.

طال الصمت الذي أعقب الحوار.. سمعت أقدام المخبر تؤدي التحية العسكرية، قبل أن ارفع بصري لأراه منصرفا وهو ينظر إلي بغضب معاتب.

تكاد الوجوه ذاتها تتكرر في الزنزانة ٣..

.. دفعوا إلينا بعد يومين بوجه جديد عليّ، طالب حقوقي أنيق أهيف، بوجه طويل نحيف يحمل تقاطيع ودودة وعيون زرقاء زرقة السماء الصافية، بانت عليه، ومن اللحظة الأولى لدخوله، تصرفات وديعة خجولة..

..عبد الرزاق " أبو عيون جميلة "، هذا اللقب الذي أطلقه عليه زملاؤه في الزنزانة، ظل في ذاكرتي واختفى لقبه الأصلي الذي لا يحضرني الآن.

ربطتني بعبد الرزاق مودة حميمة، أكثر حتى من الآخرين الذين كنت قد عرفتهم خارج الموقف ، أو في الموقف .

كان صمته الشاعري وحديثه الهادئ الشحيح وسهومه بين الحين والآخر سهوم فنان عاشق، هو الذي جرني إلى صحبته خلال أسابيع تلت.

.. تزايد عدد المعتقلين بالتدريج للحد الذي كان من الضروري فيه توزيعهم على معتقلات أخرى.

لم يكن المعتقل الجديد الذي نُقلنا إليه، إلا دار المعلمين الريفية في الرستمية - المعطلة آنذاك -، ولوجودها ضمن نطاق معسكر الرشيد العسكري الضخم، فقد أصبحنا تحت إشراف معتقلينا من ضباط المعسكر.. لم تزل الأحكام العرفية سارية التطبيق.

كانت أقسام كبيرة من ردهات وقاعات البناية تحت تصرفنا، وكذلك حديقتها الواسعة، التي كنا نخرج إليها للاستراحة والرياضة مرتين،مرة عند الضحى وأخرى عند المساء.. ساعة في كل مرة.

كانت غالبية المعتقلين فيها من العمال والكسبة البسطاء مع عدد قليل من الطلاب.

.. هنا في معتقل الرستمية كانت معرفتي بالشاب الألمعي، عامل الحدادة، والمثقف اليساري الواسع الاطلاع، المتزن الهادئ يحيى البارح .

تركتْ لقاءات هذا الشاب اليافع المتلئ حماسة ووطنية صادقة بعيدة عن التظاهر والحذلقة، تركت أعمق الأثر في نفسي ولسنوات، وزاد من تأثيرها فيما بعد اغتياله المدبّر ببرود وتخطيط مع ثلة من رفاقه في سجن الكوت بعد قرابة العام.

.. كنت قد هدأت نسبيا من مخاض المواقف والبحث عن التظاهرات التي كنت استقصي عن أماكنها.. دار المعلمين العالية، إذا أنا ضمن صخب طلاب هذه الكلية.. كلية الحقوق، إذاً أنا حقوقي محتج ومضرب ومتظاهر وأتلقى الهراوات معهم أثناء تفرقهم وهروبهم .. إضراب واعتصام في الكلية الطبية، أنا مع طلاب الطب احتج على قوانين الامتحانات الجائرة ..

نعم كنت قد تركت أجواء النضال الصاخبة.

..أنا الآن أمر بمرحلة هدوء غرامي.

.. وقعت في حب طالبة في كلية الحقوق، تكبرني بأربع سنوات و هي ابنة رجل دين مرموق وعائلة متزمتة في الأعظمية..

لا اعرف ما هو المنطق الذي أتيت به، وأنا طالب في المرحلة الإعدادية، والذي أقنعتها به، من أنني سأجد سبيلا إلى ترتيب زواجنا القريب عبر مشاريع غاية في الخيال المغرق في الرومانسية..

.. أنا صبي مراهق، ولابد أن عمى وصمم المحبين قد أوقع صاحبتي في بلواه أكثر من وقوعي فيه .

في فترة الهدوء والابتعاد عن مشاكل(النضال والوطن)، وتهيئةً لمشاريع (الليالي البيضاء - السندبادية)، وبينما انا اطّلع على تقرير الطبيب العدلي النزيه، المنشور في العديد من الصحف، تنكيلا بجريمة مصلحة السجون آنذاك المرتكبة في سجن الكوت وقبلها في سجن بغداد المركزي ، وإذ بي اقرأ وصفاً للاطلاقات القاتلة الآتية مسافة أشبار من رأس وصدر يحيى البارح ، مع وصف مسار الرصاصات الأخرى في أجساد رفاقه من ضحايا مجزرة الكوت تلك.

.. بقيت ممسكا بالصحيفة التي وقعت تحت يدي عن طريق الصدفة المحضة غير مصدق إطباقة الحجر والتراب، وهجمة الديدان الخضراء ونمل المقابر، على ذلك الجسد المفعم بالحياة والعينين البراقتين بالثقة ومرح الحياة.

.. اعتقد إن هذه الحادثة، ربما كانت هي السبب في صحوتي الغريبة وخلاصي من

غـرامي الذي أصبـح بقدرة قـادر سـخيـفـا وغيـر منطقي . و تلاه ذلك الإعـراض الفج المفاجئ لا عن أحلام ومشاريع الزواج الفنتازية، بل عن شرارة الحلم ذاته..

أصبحت فجأة لا أطيق أن أرى محبوبتي الساحرة، التي كنت وقبل أيام لا غير، أتخيل نفسي منكبا على قبرها - لو أنها ماتت فجأة - بلحية طويلة وشعر مترب مشعث، تماما كقيس بن الملوح فوق قبر ليلى العامرية.

كنا قد خرجنا في جولة هروبنا البيتي الاعتيادية عند الظهيرة.. بساتين الصالحية خالية في هذا الوقت من حر تموز اللاهب.

كنت مطرقا وساهماً وغير راغب في أن ابدأ الحديث، والذي لابد وان يكون عن الإخلاص والمحبة والارتباط الأبدي وخطط الزواج القادم.

توجهنا إلى عمق البستان، وقبل أن نجلس كالعادة تحت شجرة وارفة الظلال، أدرت ببصري إليها.. كان وجهها محمراً متوزما، وخصلات من شعرها الأسود المنسدل تلتصق مبلولة بجبينها ' على حين ينساب العرق من وجهها ليسيح على جوانب من رقبتها وأعلى ثيابها.

".. ما هذا القرد الناضح عرقا، الذي انظر إليه!؟.. أعدت النظر مجددا لأتأكد من اكتشافي الرهيب.. نعم معالم قرد مسلوق بالحر والعرق.."

.. يبدو أنها انتبهت إلى تغير تعابير وجهي.

- هل هناك شيء يضايقك؟.. لمّ أنت صامت اليوم على غير عادتك وأنت معي؟.

- لا شيء..لاشيء يبدو أنني أحس بإنهاك وتعب فجائيين.

وبدلا من أن أتوجه إلى مكاننا الظليل المعهود، استدرت وخطوت بسرعة خطوتين باتجاه الشارع.. وقفت مشيحا بوجهي منتظرا لحاقها بي.. جرجرت قدميها صوبي ونظرت إليّ بحيرة وخيبة وعتاب.

كان كل شيء بديعا في معتقل الرستمية، الذي كان كل شيء فيه متوفراً ومريحاً قياسا إلى الزنزانة رقم ٣ في موقف الشعبة الخاصة.. إلا شيئا واحدا لم نرتح إليه، إلا وهو الطعام ذو الوجبات الثلاث.

.. دون أية مقدمات أعلنا الإضراب عن الطعام..أعدنا إلى السيارة العسكرية الطعام الذي كان ينقله منها رئيس عرفاء في المعسكر، مع بيان احتجاجي موقع منا جميعا، كنا أنا و يحيى البارح قد دبّجناه.

لم ننتظر إلا ساعتين حتى كان ضابط برتبة ملازم أول يتفاوض معنا ويتساءل عن الأسباب ويطلب منا حلولا.

جلسنا أنا و يحيى نملي طلباتنا من المأكولات الواجب توفيرها ..لسلامة الموقوفين وعدم التفريط في صحتهم .. في نهاية القائمة وضمن طلبات الخضار المطلوبة من قائد معسكر الرشيد..أضفت العبارة الأخيرة على العريضة، والتي كانت أنظار الموقعين تقع عليها قبل أية عبارة أخرى أثناء توقيعهم.

" وحبذا لو كان بصلاً! .. يا سيادة القائد "

وكان لقبي في المعتقل بين زملائي والى نهاية الاعتقال :

(الزميل، حبذا لو كان بصل!)

تم تقديمنا – ومن مختلف المواقف – إلى المحكمة العسكرية، وعند قدومنا إلى قاعة الانتظار في المحكمة، التقيت مرة أخرى بعبد الرزاق ذي العيون الزرقاء ، وكان قد سلّم بقدره، إذ كنا قد عرفنا وضمن من حكم عليهم من المجاميع قبلنا، بأن الأحكام تكون قد صدرت وتمت إحالتها إلى الضباط الثلاثة الكبار فوق منصة المحكمة، من قبل دائرة التحقيقات الجنائية.

من بين شقوق الباب العتيق، لمحت والدي، يجلس متعبا منهوكا، ذابل الوجه، زائغ العينين، مع بضعة آخرين، في انتظار الأحكام التي ينتظر صدورها بعد ساعة أو ساعتين.. أمسكت نفسي بصعوبة عن البكاء.

وقفنا نحن الثمانية أمام منصة الحكام العسكريين الثلاثة العالية، بثبات وصمت إلا واحدا كان يقف في آخر الصف، وهو كما يبدو عامل بسيط، أوقعه فعلا حظه العاثر بيننا، بدأ فجأة بالولولة والبكاء وشرحْ أنه لا يعلم لم ّ تمّ إلقاء القبض عليه، وان لديه عائلة وأطفالاً وأماً ضريرة يكدح هو وحده لإعالتهم..

.. اكبر الحكام رتبة والجالس في الوسط من الآخرين، بدأ يطلب منه الصمت، حتى

يحين دوره في الدفاع عن نفسه..لم يستجب لطلب الحاكم أو ربما لم يسمعه من خوفه واضطرابه..صرخ الحاكم من جديد وبصوت مجلجل :

- "مو كافي عاد! إنجبْ وإنلصمْ.. تسكتْ لو أكول للحرس يجروك كَـُبل للحبس"

كنت الاول من اليسار، وكان دوري هو الاول.

- " شتكول بدفاعك؟ "

لا اعرف كيف أن شيطانا قد تلبسني وأنا القي خطابا رناناً ، عن حقوق المتهم في الدفاع، وعن عدم وجود محام في القاعة يقوم بالدفاع لا عني فحسب، بل عن بقية المتهمين الآخرين أيضا، هؤلاء الذين أوقفتهم الشرطة دون حق مشروع، وعن المحكمة غير الشرعية في عهود القضاء النزيه.. عن وجوب وجود محكمة مدنية، لا عسكرية..وان الأحكام العرفية وضع غير دستوري في بلد يفترض فيه أن يكون ديمقراطيا..

وجهي محمر متورّم، لا اعرف من أين تأتي الكلمات والعبارات، التي قد لا افقه حتى نصف ما كنت قد نطقت به.. صوتي يتعالى وكأني فوق منصة المدرسة في المباريات الخطابية السنوية..

الحاكم يطلب مني السكوت.. ويبدو أنني لا اسمع ما الذي يقوله.. كنت لا أراه ولا أرى أحدا.. كان هنالك سراب ضبابي أمامي وأنا أحاول أن الحق به.

..فجأة انتبهت إلى صوت مطرقة عنيفة وصوت أجش مزلزل :

- " لك مُو كافي عاد!!.. مو ثبرتنا ثبيرة! لك والله لو مُو..!!، مُوكافي لغوة طَلّعت روحنا وخلّصت صبرنا، مُو طلعت لك روحك..كافي!!.. كافي ولك! "

.. يبدو أنني اكتفيت بعد هذه الصرخة.

.. أحسست فجأة بعرق بارد يغطي وجهي ، واستشعرت صمتاً غير مسبوق من حولي رغم حوار الآخرين وصرخات الحاكم المستمرة المنثورة عليهم.

حين جاء دور عبد الرزاق ذو العيون الزرقاء ، حاول بهدوء ومنطق رجل يدرس القانون، أن يبيّن للمحكمة، انه خارج نطاق الإدانة، أو حتى خارج أصول التقديم إلى المحكمة العسكرية.

- " تريد تعرف شنو سبب إدانتك.. أ ُخذ نموذج من كتبك الهدامة، هايْ اللي

دزّوها إلنا من مجموعتك من كتب الشيوعيين المكبوسة عندك بالبيت.. هذا هو الكتاب اللي حكمك! "

لم يكن الكتاب الذي رماه الحاكم العسكري بغضب تحت أقدام عبد الرزاق وكان دليل إدانته غير كتاب (كوخ العم توم).

.. حكم على عبد الرزاق بستة أشهر تنفذ من تأريخ صدور الحكم.

.. حكم على اثنين بنفس المدة.

.. حكم على آخرين من الحاضرين أمام المحكمة بالسجن سنة واحدة لكل منهما.

تقرر إخلاء سبيل الاثنين الباقيين ، كان من بينهما ذلك العامل الذي كان يبكي مستعطفا الحكام الثلاثة.

.. أما أنا فقد حكم عليّ بستة أشهر مع وقف التنفيذ،على أن تضاف هذه المدة، إلى أية عقوبة بالسجن مستجدة، فيما لو حكم عليّ بها خلال السنتين القادمتين.

حين اقتادوني مكبلا وعلى انفراد، مروا بي على والدي الذي كان منتظراً في الرواق.

كان وجهه شاحبا وشفتاه مزمومتين و عيناه محدقتين صوبي بثبات، كان يقف منتصبا كعادته حتى في اشد المواقف.

ابتسم ابتسامة ودودة، وامسك بكفيّ بثبات دون أن يحاول احتضاني أو لف ذراعه حولي.. هنالك أناس يرقبونه، ولن يتيح لنفسه أي مظهر من مظاهر الضعف الأبوي .

– يداك ساخنتان.. هل أنت محموم؟ سأل بصوت ظهر عليه القلق.

– رشح بسيط عابر..

– لاتقلق!، الحكم مع وقف التنفيذ، معناه انك ستخرج خلال يومين بعد إجراءات تتعلق بأوراق محكوميتك.

أشار ضابط على الحارسين المرافقين بأخذي ونقلي إلى السجن المركزي، لحين إكمال أوراق إطلاق سراحي.

في السجن المركزي، كان علي الاختيار بين جماعة المستنقع، وبين جماعة القاعدة.

لم يكن الخيار حقيقيا ، فقد أرشدت من قبل احد الموكلين باصطحابي من السجناء حال دخولي عبر الباب العالية ذات القضبان الحديدية،و بعد أن عبرت الممر الطويل من بوابة السجن المركزي الضخمة المؤدية إلى بناية السجناء السياسيين.

- تفضل واسترح هنا رفيق فلاح - منذ عبوري بوابة القضبان الطويلة - تم منحي لقب رفيق، وكنت لا أنادى باسمي وحده بعد ذلك من اغلب المسجونين معي، ما لم يسبقه لقبي الذي وجدته فخماً ويضفي عليَّ رجولة وهيبة، وجّب عليّ الحفاظ عليهما دائما في الحديث و التصرف مع بقية الرفاق أثناء وجودي في السجن .

.. تبرع احد الرفاق ليجلب (اليطغ) ، وهو عبارة عن فراش جيد المظهر و بطانيتين ووسادة، ومنشفة . وتركوا لي الخيار في اختيار المكان الذي أراه مناسبا لوضع اليطغ .

اخترت مكاني قرب الدكتور محمد صالح سميسم طالب الكلية الطبية المحكوم لعدة سنين.. كنت اعرفه من السابق، عبر صلات عائلية.

كان الاحتفاء بي خاصاً جدا ، فانا اصغر الموجودين، وابن الجواهري قبل أي شيء .

هممت بالنهوض بعد حين والخروج إلى ساحة السجن.. حذروني من الاختلاط بجماعة المستنقع ..

..لجماعة المستنقع قسم مخصص من ساحة السجن، ولكن في مثل هذا الوقت من المساء، فإن لهم دورهم لاحتلال قلب الساحة الرئيسية..لقد كان الوقت هو موعدهم في لعب كرة الطائرة.

.. رغم تظاهري بأنني قد أدركت تفهمي للنصيحة في الابتعاد عن المستنقع ، وموافقتي البديهية على إتباعها ، فقد زاد فضولي لمعرفة ماهية المستنقع ومن هم أفراد جماعته الخطرين الذين يجب الابتعاد عنهم.

خرجت إلى الساحة الوسطى التي تم رشها بالماء، قبل أن تُنصب فيها شبكة كرة الطائرة ، وكان هنالك مجموعتان على طرفي الشبكة من الساحة.

لم تكن اللعبة قد بدأت بعد ، وأفراد من المجموعتين، ينظمان ارتفاع الشبكة، وتحديد خطوط ساحة اللعب بمسحوق الجبس الأبيض.. آخرون يتحركون باسترخاء ضمن المساحة المرسومة، انتظارا لإكمال الترتيبات اللازمة لبدء اللعبة.

لمحتُ وجهاً خيل إلي أنني عرفته.. أمعنت النظر، انه الشخص ذاته رغم لحية قصيرة كان قد أطلقها.. بالتأكيد هو زهير القيسي زميلي في مدرسة المتوسطة الغربية، لاعب الشطرنج الذي لا يبارى فيها.. لم استطع ولا مرة واحدة من أن أجاريه فيها في مباريات المدرسة آنذاك، رغم ولعي الشديد بلعبة الشطرنج .

أسرعت تجاهه، وحين لمحني، خطا بدوره لنلتقي ونتعانق عناقا حارا، ودخلنا في تفاصيل شيّقة عن الفترة الفاصلة التي سبقت لقاء الصدفة العجيبة هذا.

لم اعرف عنه أي شيء أثناء الفترة الدراسية مما يشير آنذاك إلى اتجاهه اليساري، غير ثقافته الواسعة والندوات الأدبية التي كان يشترك بها.. كان على قدر كبير من الهدوء والاتزان يسبق بكثير أعوام عمره.

قام زهير بتعريفي على أفراد المستنقع المتواجدين في الساحة، وبالطبع كان يسبق اسمي في التعريف ابن الأستاذ الجواهري فـ..

.. كان ترحيب المستنقع عطراً ً وساراً ً.

حين عدت إلى ردهتي وتوجهت لا ستريح جالسا فوق فراشي الممدود، قابلني نفس دليلي إلى الردهة عند أول دخولي إلى السجن معاتبا بلطف .

- " هذا مو صحيح، آني أشوف من الأحسن لو تبتعد عن جماعة المستنقع ".

رددت ابتسامته بابتسامة وواصلت خطواتي، لأجلس على فراشي قرب محمد صالح ..

- " كَول لي أبو جاسم الله يخليك، شنو يعني " المستنقع "؟!.. كنت اهمس بخجل الأمّي الجاهل بكلمات تساؤلي هذه مقربا فمي من أذنه.

- " هذوله جماعة راية الشغيلة ".. ردّ علي بهمس أيضا وهو يبتسم.. زاد الغموض علي!

- " وشنو هاي راية الشغيلة!؟

- جماعة منشقة عن الحزب الشيوعي الرئيسي، أي منشقة على جماعة القاعدة . ثم معقبّا :

- " شوف صاحبي لا تدوّخ راسكْ بهذي الأمور! كُلها يومين على الأكثر وتطلع وتستراح من كُل ها اللغوة "

كنت مدعوا في الليل في الردهة الثانية لجماعة القاعدة إلى عشاء خاص على شرف قدومي ، عند رفيق أقدم في السجن.. صادق الفلاحي.

.. كان الاحتفاء والعشاء الـ "تمن ماش" ، كلاهما حار ولذيذ.

تم اصطحابي ليلاً بعد يومين إلى غرفة ضابط برتبة عالية في مبنى وزارة الدفاع.

.. بالإضافة إلى الضابط العسكري الكبير، كان الجواهري جالسا يحتسي فنجان قهوته.. الاثنان منشغلان في حديث ودي حار.

.. واجهني الجواهري بابتسامة طلقة، وواصل إكمال حديثه.

أشار الضابط عليّ بالجلوس، وأعطى بإشارة من رأسه علامة الانصراف للشرطي الذي رافقني إليه.

.. خرج آخر معلم من معالم الحبس، بعد أن أدى تحيته العسكرية.

كانت الساعة تقارب العاشرة ليلا حين غادرت مع الجواهري غرفة الضابط الكبير.

أحسست بسعادة غامرة وأنا امشي إلى جانبه فوق أرصفة وزارة الدفاع الطويلة.

.. كنت أشاركه صمته ساهما وأحس بحرارة تشع من وجهي وتبعث في جسدي قشعريرة لذيذة.

حين تجاوزنا آخر جندي عند بوابة وزارة الدفاع، تقدم خطوتين باتجاه شارع الرشيد.. توقف ساهما لحظة قبل أن يلتفت إليّ ويلمس وجهي برقة..

مد والدي ذراعه الأيمن ليحتضنني إلى جنبه بشدة :

- ابني أنت محموم!

" عدت من القاهرة إلى بغداد .. وعادت جريدتي الرأي العام إلى الصدور وهي الجريدة الأقرب إلى الجماهير والأكثر شعبية وقتذاك.. وبعد شهور قليلة حدثت ثورة ٢٣ يوليو - تموز ١٩٥٢ في مصر، وقد استقبلتُ هذه الثورة بمقال افتتاحي مشوب بالحذر والقلق والخوف.. ولست ادري حتى الآن فيما لو كنت مخطئا أو مصيبا أم كليهما معا، لأنني وحتى نهاية عمري لا أومن وأتشاءم من كل انقلاب عسكري ومفاجئ، تحت أي شعار وتحت أية واجهة جاء.

.. وهذا ما كان يشكل خلافا بيني وبين صديقي صادق البصام الذي يؤمن بالانقلابات العسكرية والثورات التي تقوم على العسكر.. ومن هذا المنطلق خالفني الرأي في ثورة مصر..

.. كان ذلك هو الحدث الأول عندي فيما يخص مصر، أما في العراق فقد كانت انتفاضة تشرين.

وإنني ما أزال حتى الآن أرى أن هذه التسمية فضفاضة على الحدث، وأرى في تسميتها ارتجالا وارتخاصاً من قيم المسميات..

.. فالانتفاضة اكبر من حدث عابر، أو تمرد بسيط، أو إضراب مطلبي..

.. الانتفاضة بحق وحقيقة، هي ما ينطبق فعلها على مضمونها، وهي ما أعيشه الآن وفي أوائل الشهر الثاني من عام ١٩٨٩..

الانتفاضة هي ما يحدث الآن، وفي بقاع فلسطين العربية، والتي يقاوم فيها المواطنون الرصاص بالحجارة، والرشاشات بالزجاجات الحارقة، وهدم البيوت بسدّ الطرق، رغم كل قسوة إسرائيل في قمعها..

.. يصير الحجر حجرين، والصامد صامدين، والشهيد شهيدين، والمعتقل معتقلين، وتهدر الأرض من تحت أقدام المقاومين، ويدخل الهلع قلوب الطغاة والقساة، ويستمر الشعب بكل أفراده وأعمار بنيه ونسائه وكهوله في الزحف للمواجهة والتصدي بالصدور للدبابات.. هذه هي " الانتفاضة ".

إما أن نسمي تمردا ينطلق من رغبة في التسيّب والتهرّب من نظام دراسي.. انتفاضة؟! فذلك لا يجوز في قواميس اللغة ولا في قواميس النضال كذلك.

.. و انتفاضة تشرين هذه كانت لمجرد تمرد طلاب كلية الصيدلة والكيمياء، لكي يعدل نظام الإعادة.. من اجل أن يتخلص الطالب من إعادة كافة المواد المطلوبة والمقررة في السنة الدراسية التالية، إذا رسب بإحدى المواد.

.. انتقل هذا التمرد أو ما أسموه بـ" الانتفاضة " إلى أكثر من معهد وأكثر من كلية، ولم يكتف قائد هذا الحزب أو ذاك بالحياد، بل انتقلوا إلى موقف التشجيع..

وللمقارنة الفاضحة، لابد من التذكير، إن تلك الانتفاضة لم تدم أكثر من شهر، وانتهت نهاية بائسة، هي وكل قادة الأحزاب، لتفتح بعدها أبواب السجون والمعتقلات والتعذيب على مصاريعها..

.. الحقيقة إنني هنا، لا انتقص من إيمان الجماهير العراقية، ولا من إرادة الشباب العراقي، الذي عانى ما عانى من الاضطهاد والكبت، ومحاولتهم تفريج كربهم، بل أعجب من أمر بعض الساسة، الذين ينصّبون أنفسهم، دعاة مصالح الجماهير، وينصّبون أنفسهم مسؤولين عن مصائر الشعب، وتراهم يصطادون السمكة من الماء العكر، ولا افرق هنا بين يمين ويسار في أكثر من مرحلة..

.. أياً كان الحال، فقد كانت نتيجة هذا التمرد، وما رافقه من اضطرابات وقلاقل وأحداث، أن عادت الأحكام العرفية وانتهى التمرد..

.. عاد زعماء الأحزاب وقبيل صبيحة يوم النهاية ليصدروا بيانا يطالبون فيه بإعلان الإضراب العام لعمال المطابع ، والأكثر إيلاما في هذا القرار أو هذه الدعوة، أن يصدر هذا الإعلان، في الوقت الذي تجري فيه مظاهرات عارمة في الشوارع ، وان يأتي الصباح التالي دون أية صحيفة تستطيع أن تعكس ما يجري.

لقد نجحت مديرية الأمن العام (التحقيقات الجنائية) وأجهزتها القمعية في تمرير ما بيتته، وبخاصة في ما استغفلت به القوى الوطنية، على يد مدسوسين منها، وهم كثيرون بين عمال المطابع، وبصورة اخص بين منضدي الحروف..

قررتُ أن أتمرد على هذا البيان، وان اصدر جريدتي " الرأي العام " لتكون الوحيدة التي ستوزع على المتظاهرين، يدفعني إلى ذلك أنني أعي ما يدور خلف الكواليس، وأنني احترم استقلاليتي، واحترم جريدتي، واعرف خلفيات هذا البيان وانعكاساته، كما اعرف الكثير من سوابق عمال المطابع.

.. قررتُ إذاً أن تصدر الجريدة.

وفيما بعد الغروب من ذلك اليوم، جاء حشد كبير من عمال المطابع هؤلاء، الذين كانوا قد مروا، على جميع الصحف الوطنية، كي يتأكدوا من تلبية بقية العمال لندائهم.

.. لحسن حظي وحسن حظ الناس، أن يكون عمال المطبعة عندي في الطابق الثاني..

.. وقــفت على باب الدرج الأعلى من السلم، وهم في أســفله، وصــرختُ بهم وبالحرف الواحد.. "والله العظيم سأركل بقدمي ّ هاتين كل صاعد منكم"، ثم قررت أن اجمع في صفحتين فقط ، كل محتويات الجريدة الهامة.

.. أتممت مهمتي بسرور .. ستكون صحيفتي هي الصحيفة الوحيدة التي تصدر في اليوم الثاني للانتفاضة، وكأنها بيان ثان مناقض.

.. على الصفحة الأولى منها، ذلك المقال الافتتاحي الكبير، كبر تلك الليلة.. وصباحها، وهو بعنوان الراقصون على القبور .

كم يملؤني الأسف والأسى، وإنا بعــيــد عن الوطن، أن لا يكون هذا المقــال في مستدركات هذه الذكريات.

.. واجدها مناسبة لأقول : إن هذا الموقف، موقف إصدار جريدتي في ذلك اليوم، هو من المواقف التي اعتز بها.. وأنا لست متعصبا أو معجبا بكل مواقفي.

.. عودة إلى أمر التمرد، أو سمّه ما شئت!، حيث بدأ يوم ١٩-١٠-٥٢ وانتهى ليلة ٢٣-١١-١٩٥٢.

في تلك الليلة صدر بيان الحاكم العسكري بإعلان الأحكام العرفية وإغلاق كل الصحف ومنها بطبيعة الحال جريدتي.

.. في تلك الليلة أيضا، غاب فلاح عن البيت، وبوسع المرء أن يتخيل مدى قلق بيت يغيب عنه واحد من أعز من فيه.. صحيح أنهم كلهم أولادنا أكبادنا، إلا أن فلاحاً، كان أكثرهم قربا ً من قلوبنا بحكم طبيعته وبراءته ونخوته.

.. حين عاد فلاح بعد منتصف تلك الليلة، غمرت الفرحة البيت بكل من فيه، ونمت مطمئن البال فرح الجوارح سعيدا ً.

نمت وكانت تنام معي وفي صميم دمي، شخصية منفصمة كل الانفصام، هي شخصية القلق المترقب لما سيحدث في الصباح، وما ستؤول إليه الأحكام العرفية وكيف سيكون الشارع بلا صحف.

واعترف الآن وبهذا الصدد، بحقيقة ربما كانت مفاجئة للكثيرين، هي أنني لم أنم

يوما في حياتي لا عصرا ولا ليلا، وحتى يومي هذا، إلا وكنت مصحوبا بالكوابيس والأحلام والأطياف..

وإنني في كل مرة، كنت أعيش خيالات وأحداثا لم اعرف حتى الآن طبيعة منعكساتها واترك لذوي الاختصاص أمر السر في هذا كله ، غير أني يمكن أن أؤكد أن هناك طبقة من الناس تبتلي بالأحاسيس المرهفة، وأنا واحد منها، يظل لديها العقل الباطن في توّثب .. ومنها تتولد تلك الأخيلة والرؤى والكوابيس..

المهم إنني حلمت في تلك الليلة، أن طيفا طائرا يحملني، من دارنا هذه في الحارة، إلى سوق السراي

كما يُسمى ببغداد.. وأنني التقيت هناك بصديقي المتفضل البصام ، وهو كما مرّ ذكره، معجب بالقوة العسكرية، ليقول لي ونحن بمعرض الخصومة، وباللهجة الدارجة "والآن يا جواهري! كيف أنت و هذا الانقلاب الجديد؟"..، وأردّ عليه، فيما بين الغضب والعتاب: "يا أبا جعفر! لعنة الله عليكم!.. إن لم يكتفوا بأيديهم، فليمدوا أرجلهم!"..

أقولها بأمانة وصدق كان هذا حلماً أيقظني وعلى شفتيّ بسمة لطيفة..

وأنا كذلك، وإذ بدقة خفيفة على الباب، تنغّصُ السحر لتوقظني وتوقظ شريكتي بالحياة..

.. وقبل أن انطلق لفتح الباب، وبكل ما فيّ من قوة الاندفاع الذاتي وتحفّز الأحاسيس، قلت لزوجتي : " لملمي حوائجي فأنا اقرأ ما تحت السطور وما خلف الباب.. وها هم يمدون أيديهم!، كما رأيت في الحلم.

.. فتحت الباب، وإذا بمعاون شرطة الأعظمية يصبحني بالخير ليقول لي بعدها : "إن الحاكم العسكري يود مقابلتك ! " ، قلت له " أنا اعرف يا أخي ، وحاضر أيضا.. ولأنني أخشى عليك من البرد، أرجوك التفضل إلى الداخل ريثما أبدل ثيابي . " ، أجابني الرجل : " إنني أفضل أن انتظرك هنا.

.. ما هي إلا دقائق حتى كانت حقيبة صغيرة معي، واعتليت مقدمة سيارة البيك اب الواقفة أمام الباب وقد قادها الضابط بنفسه..

وصلت بنا السيارة إلى مركز شرطة الأعظمية ، حيث الأضواء تكاد تخطف البصر لقوة مصابيحها ذات الألف شمعة ..

..اخذ الضابط بعض الأوراق وانطلق إلى البيت الثاني ، وهو بيت صديقي فائق السامرائي ، وهو من أقطاب حزب الاستقلال .

.. طرق باب البيت واتى بالرجل، ليذهب إلى بيت ثالث ويستقدم منه المحامي إسماعيل غانم ، الذي كان من ابرز شخصيات حزب الاستقلال أيضا..

حسبت أن الأمر انتهى بنا الثلاثة في الأعظمية، وإذا به يطرق بابا رابعا، وهو بيت المحامي قاسم حسن، من الحزب الوطني الديمقراطي .

انطلقت بنا السيارة بين غبش الفجر وانطلاقة الصباح وكل واحد من لا يعرف أين يتجه ولا ما سيؤول إليه مصيره..

فجأة توقفت السيارة بعد أن عبرنا جسر الصرافية إلى الكرخ خلف مديرية السكك الحديدية، وفي منطقة تخلو من المعتقلات والسجون، منطقة جرداء لا خلق فيها ولا حسيس، وأمرنا الضابط بالنزول.. " نزول مباغت..! وفي هذا الجو! وتحت مظلة الحكم العرفي؟! ماذا يعني كل هذا ؟!..

الحقيقة إننا نحن الأربعة أحسسنا بالرعب، واقتحم الخوف قلوبنا، وتساءلنا :

هل سيطلقون علينا النار هنا!؟

.. تنفسنا الصعداء حين علمنا، إن هذا النزول كان لغرض تفتيشنا، والتأكد من أننا لا نحمل سلاحا ً، ومع أن ذلك من واجبات ضابط الشرطة هذا، فيبدو انه لم يخطر له ببال، أنه ولا واحد منا يعرف كيف تنطلق الرصاصة من هذا المسدس أو ذاك..

مسح الرجل بيديه على أطرافنا وأعادنا إلى السيارة لتنطلق بنا تخبّ طريقا مجهولا سرعان ما كشفته لنا من بعيد اضوية قوية طويلة الامتداد.

.. على أبواب احد مداخل هذا المكان، الذي يبدو انه اعد خصيصا لنا، انتهت رحلة الليل، لندخل إلى مكان جديد وجميل مظلل بالأشجار الوارفة..

عجيب أمر المفارقات..

.. طَرقات مرعبة على أبواب من هم في عز نومهم.. ضابط عسكري وطريق مجهول، ومصير مثله، وتفتيش عن سلاح لأناس هم الأبعد عن حمله، ليكون بعده هذا المغنى،.. والى ما يشبه بلاطا ً ملكيا!..

تلقانا نحن الأربعة الضيوف، بكل ترحيب، ضابط عسكري أديب وشاعر وصديق أيضا ً، هو نعمان ماهر الكنعاني ، نائب آمر المعتقل - الذي أتذكر اسمه وأنسى رتبته - أي السيد وائل ، وهو شهم وكريم أيضا ً.

بدا الكنعاني وكأنه موظف تشريفات ملكية.

.. رافقنا إلى غرفة وسيعة أنيقة، هي في الواقع أكثر فخامة وأبهة من دائرة التشريفات التي كنت قد عشتها..

لقد توالى بعد سيارتنا رتل طويل من السيارات، تُقلّ جميع الشخصيات البارزة في العاصمة، ومن جميع

الأحزاب السياسية فيما عدا الحزب الشيوعي ، فقد كانت كل طلائعه والأكثرية الساحقة من شبابه، في السجون أو في المعتقلات النائية، وفي المقدمة منهم رؤساؤها.

.. كما توالت ارتال طويلة من الشاحنات، أو ما يسمونها بالعراق " اللوريات "، وهي تقلّ هذه المرة، الجماهير الغفيرة والأصيلة وغير المدللة.. لتفترش الأرض الباردة، وكان فرات وفلاح في الصميم من هذه الجموع..

لم يطل الانتظار في غرفة التشريفات هذه، حيث نقلنا إلى معتقلنا الأنيق الموعود.. وفي هذه الفترة القصيرة، كان بيني وبين فائق السامرائي علاقة عتاب ودودة، صدق قول ابن الرومي العظيم " ويبقى الود ما بقي العتاب "

.. ابتدرني السامرائي قائلا ً:

- أهذا هو " الرقص على القبور "؟، مشيرا إلى مقالي السالف الذكر ..

قلت له :

- ياعزيزي! وهل يعوزنا في هذا الجو اللطيف، إلا أن يعد لنا مرقص جميل، و إلا أن نقوم معاً الآن فنرقص..

كان هذا المعتقل، بغرفه وأسرته ومفارشه اللطيفة النظيفة وساحته الخضراء الواسعة بأشجارها الممتدة، وما حواه من حشد كبير، أشبه ما يكون بمجمع ثقافي، لأن معظم هذا الحشد، كان ينتمي إلى الثقافة بشكل أو بآخر..

وكم كان يتمنى كل مثقف، أن يختص بغرفة لمفرده، غير أن عدم طاقة هذا المعتقل على الاستيعاب، فرضت أن يكون كل شخصين في غرفة واحدة، وعلى كل واحد أن يختار شريكه الذي ينسجم وإياه..فكيف يكون الدلال بعد هذا ؟!.

.. لقد اخترت رفيقا ً وصديقاً انسجم معه كل الانسجام، لا بمزاجينا وحسب، بل بانتمائنا إلى طبقة الفقراء، تلك التي عشنا من خلالها الفاقة والعوز، ألا وهو عبد الرزاق الشيخلي ، الذي مرّت إليه الإشارة بكل تفصيل فيما كان من أمر قصيدتي في مؤتمر المحامين العرب ..

لقد شخصت أمامي ومن جديد، المفارقات الطبقية التي عشت مرارتها في الطفولة والشباب، وفي مختلف مراحل حياتي، وقد ذكرت أمثالا من هذه المفارقات في الجزء الأول من ذكرياتي ، والمعاناة التي كنت أجدها أو أتعامل معها من جراء علاقتي ببعض الطبقات الإقطاعية والبرجوازية، بعد أن خبرت العلاقات المنزوعة القيّم والمبادئ، وبعد أن تعاملت مع رموز هذه الطبقة وعناوينها من السياسيين، وبعد أن حسبت أن لي أصدقاء من هؤلاء، كانت تربطني ببعضهم علاقات وظروف..

لقد كانت تلك الكراهية وذلك الحقد، ينتظران أية مناسبة لينفجر غضباً في وجه هذه الطبقة، وما أكثر المواقف الشعرية، والمواقف الشخصية، والمواقف العملية، والمواقف السياسية، التي كنت أجد نفسي متفجراً في وجهها.. غير نادم بعد ذلك وغير محاول أن انتزع فتيل هذا التفجر من أعماقي.

أقول هذا لأنني، وتصوروا! أن أعيش مع رموز هذه الطبقة في معتقل واحد.. سرير جنب سرير.. صالة قرب صالة ..

.. وجدت إن أفكاري القديمة تلك، تملك مصداقيتها.. وتفجري يملك إنسانية.. وأن عقائدي منسجمة والطبيعة البشرية التي تملك كرامتها..

.. ها هي الصورة تكتمل، وتوزع شهادات تقديرها على أفكاري وأحاديثي وشعري وحقدي وتفجري التي تنظّم قناعاتي حول هذه الطبقة..

وليسمح لي القاري!، أن انقل صورا ً مخجلة مبتذلة الشعور والمشاعر، عن تصرفات رموز هذه الطبقة ومثقفيها.. في معتقل سياسي!.. وفي أشد لحظات العراق مصيرية!

لقد كان هؤلاء يَفصلون موائدهم عن موائد العامة.

.. لقد كانت موائدهم تمتد من أول الصالة الواسعة حتى آخرها، وعليها كل ما لذّ وطاب وندر من الأطعمة والأشربة والفواكه والحلويات، وكل ما تشتهي الأنفس!..

وكانت السيارات تأتي الواحدة تلو الأخرى، وعلى مرأى المسؤولين، لتفرغ حمولتها من الفواكه والألبان والهدايا على اختلاف أنواعها، لمعظم الشخصيات الوطنية و المعارضة .. وللقارئ أن يتصور مدى ما كنا أنا وصديقي الشيخلي نتألم من هذا كله، والأكثر والأشد فيما كنا نسخر منه ونحن في جناح واحد، مفروض علينا، مع هؤلاء..

كل هذا ونحن نرى في الجناح الثاني، وعلى امتداد جناحنا المترف، طليعة الشباب العراقي المناضل الصابر الثائر بوجدان.. وما كان اصدق هؤلاء المنبوذين المرميين بإهمال في الساحات العارية وبحشد كبير في تسميتهم جناحنا : " فندق بغداد "!، وهو ما يعادل هنا في دمشق فندق شيرتون .

إما نحن البرجوازيون الفقراء، فأمر الواحد منا كان أكثر غرابة من أمر الثاني، إذ كان بيتي ذو السبعة أشخاص فارغا، إلا من امرأة واحدة تحمل طفلا صغيرا على صدرها، وهي زوجتي وصغرى بناتي ظلال، حيث أنا في المعتقل وفرات في آخر ، وفلاح في الثالث.. كبرى بناتي تقفز من سطح إلى سطح إلى زقاق، لتفرّ إلى النجف وتختبئ عند جدتها.. بل لقد بلغ الأمر أن اعتقلت في هذا البيت ذاته متعبدة زاهدة، لا تقرأ إلا القرآن وهي شقيقة زوجتي وخالة أطفالي طليعة والتي كانت حاجة أيضا.

وربما كان البيت هذا سيخلو من أي شبح، لو لم يخجل المتطفلون عليه من شدة ما انتهرتهم امرأة تحمل رضيعا على صدرها..

.. إما صديقي " البرجوازي الفقير الشيخلي "، فقد كان مثلي في الفاقة، واسعد مني في البيت، إذ كان بيته فارغا تماما.

لقد كنت وصديقي، ننظر بكل احتقار، وبكل ما لكلمة احتقار من معنى، إلى تلك الموائد المترفة.

أما المقابلات التي كانت تتم للنماذج الشاخصة من هذه الطبقة فقد كانت أكثر

مدعاة للاستخفاف، إذ كنا نرى شخصيات بارزة تأتي لتتفقد هذه الشخصيات المناضلة، وتُفتح لهم الأبواب بكل احترام.. وبكل دلال تتنزل صناديق الهدايا.. بكل "وقاحة" يفاخر هؤلاء بالثراء !!.

المهم إن وجهاء هذه الطبقة كانوا يتفقدون بعضهم بعضا.. فهم مناضلون ..

وأنا اقرأ قائمة هؤلاء المتزاورين، وأدمدم من الأمثال الشعرية ما يناسب المقام، متأملاً من أن تُفتقد المرؤة وان يُبتذل التعاطف، وان أتذكر رموز هذه الطبقة التي كانت تربطني بهم علاقات، وما من احد منها خطر له على بال أن يتفقدني.. حتى ابن ذلك الذي قلت في أبيه (جعفر أبو التمن) :

قســـمـــاً بيــومكِ والفــراتِ الجــاري
والثـــورةِ الحـــمـــراءِ والثـــوارِ . .

وعزائي كان وأنا اقلّب قائمة الزوار كل يوم قولي :

ولـكـن عـلـى نـفـرٍ واسـطـاً
تجـمـّد كـاللبـنَ الخـاثـرَ
فـلا هـو لـلـشـعـبَ فـي كـلـهَ
ولا هـو لـلـجـانـبَ الآخـرِ

.. المهم أيضا ولكي تتوضح الصورة أكثر فأكثر، فسأنقل بعض المشاهد مما كان يحدث في ذلك المعتقل..

فقد تمّ تعيين مدير تموين مسؤول من بينهم، تنحصر مسؤوليته في توزيع الفائض من أطعمة المترفين وفاكهتهم، على حشود المعتقلين في جناح الفقراء.. كان هذا الرجل هو السيد قاسم حسن ، من الحزب الوطني الديمقراطي.. أتذكر إنني جلت معه في تفقد هذه البقايا، فكانت واحدة منها تحوي ما يعبئ نصف غرفة صغيرة من الفواكه.. وكنا ننقل ما هو اقرب إلى التلف منها إلى أولئك التعساء من الشباب العراقي في الجانب الثاني من المعتقل ..

وأتذكر أن احد المناضلين من تلك الطبقة، لا أريد أن اذكر اسمه لأن علاقة من المحبة ما زالت تربطني به، كان قد طلب لغرفته مكتبةً وآلة تصوير كاميرا ، فنزلت إدارة المعتقل عند رغبته وجيء بهما إليه.

ومن المصادفات ذات الدلالة، انه جيء إلينا ذات يوم بأكلة شعبية ملفوفة بعددٍ من أعداد جريدة الأهالي وفيه المقال الافتتاحي الذي يمهد للمصالحة بين الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة الجادرجي ، وبين حزب الأمة برئاسة صالح جبر ، وكان أن سبق لي أن عرّضت في جريدتي بغضب واحتجاج شديدين على هذا المقال وعلى هذا التصالح العجيب الغريب..

.. كنت مجتمعاً حول هذه الأكلة أنا والجادرجي ومكي شكري، وهو من أتباع صالح جبر المقربين فقلت:

" والآن يا أبا رفعت ، ما رأيك بهذه المصادفة الغريبة.. هل ما يزال قائما ما نقرؤه في هذه السطور؟، وهل هذه العلاقة مستمرة.. وهذه المحاولات؟ "

قال الجادرجي :

" من قال إننا نخفي ذلك "..

.. سيأتي الحديث كيف أن هذه المصالحة أدت إلى تحالف قصير مؤقت .

.. كانت حصتي من هذا الدلال، أن يُنقل فرات من احد المعتقلات، ليكون إلى جانبي، وضيفا غريبا وجديدا على هذه الطبقة.

ومن الطرائف ذات الدلالة السياسية أيضا، ما فعله غازي العلي ، وهو شاب لطيف وخبيث في الوقت نفسه، وقد كان نائباً في المجلس النيابي، ما فعله برجل كان احد أترابي أيام مقهى حسن عجمي في الحيدرخانة ، حيث أصبح هذا الرجل في الأربعينيات ممسوساً، يضع وفي حر تموز القائظ، شالاً من الصوف على رقبته ويلوّح بعصاه في الهواء.. حين اكتشف غازي ذلك المس عند ذلك الممسوس، انتهز جلب أخشاب هي أوتاد قديمة تنصب خلف المعتقل، ليدق غازي بيديه على قدميه، وربما على رأسه، دلالة على أن هذه الأوتاد ما هي إلا أوتاد المشانق، التي بدأت تُنصب لنا نحن المعتقلين، فما يكون من الرجل الممسوس إلا أن يقفز في الهواء صارخا وجِلاً وحتفه شاخص أمامه، ليأتي أخوه الأكبر ويتشاجر مع غازي هذا إلى درجة الشتائم المتبادلة..

.. هذا الرجل الممسوس ، ويا لسخرية القدر، يصبح هذا الشخص بعد سنتين أو ثلاث وزيراً للاقتصاد..فمن يصدق هذا غير من عاش العراق وأطواره..

وبوسع القاري أن يرجع إلى الوزارة الأيوبية الثانية في الخمسينات، ليقرأ اسم وزير الاقتصاد هذا ويتوثق من هذه الذكريات..

آخر سخرية هذا المعتقل، إنني كنت أول من يطلق سراحه من بين كل من فيه.. كلا جناحيه : فندق بغداد ، والجناح الثاني خان المساكين ..

.. نُودي على اسمي من بين كل الأسماء لإعلان الحرية، وذلك في جوٍ من استغراب الجميع، وأنا في الصميم منهم.

.. في اليوم التالي علمت أن شفيعي في هذا الاستثناء الطريف، كان هو الشاب سعدي جلال ، صهر رئيس الوزراء آنذاك نور الدين محمود .

عدت إلى بيتي لأجد زوجتي و ظلال التي أصيبت بمرض الحصبة، واخطر ما في هذا المرض، انه قد يذهب بالعينين.. أو هذا ما كنا نخشاه..

بعد يومين، في ليلة قلقة مزعجة، وبينما طبيب العيون يشرف على عينيّ ظلال ، وكان الوقت صباحا ، دُق الباب من جديد، ولأجد ضابط شرطة آخر يطلب مني العودة إلى المعتقل.. عجيب.. ماذا عساي فعلت خلال هذين اليومين!.. ما الأمر الذي يستوجب عودتي إلى المعتقل؟!..

حاولت جاهدا وأنا في طريقي إلى المعتقل أن أتذكر.. وكان أن تذكرت.

.. إنني و لأقضي على الفراغ، ذهبت إلى مكتب جريدتي، المغلقة الفارغة إلا من حارس عليها ، وإذا بالملحق الصحفي السوفييتي الأعرج والداهية معاً ، يقتحم علي الباب الموارب " شبه المغلق "، وفي مثل ذلك الجو الرهيب عامة، والذي أنا فيه خاصة.

.. قلت لضابط الشرطة : " إذن أنا معتقل بتهمة الاتصال بسفارة أجنبية عظمى مبغوضة؟! "..

صببت كل اللعنات والشتائم على هذا الملحق..

.. كان المفترض منه، وهو سيد العارفين، بمعتقل أبو غريب وبالمعتقلين، وأنا في الصميم منهم، أن لا يأتي في مثل هذه الظروف وخاصة حين يكون المكتب بمواجهة مقر متصرفية لواء بغداد تماما ، وإلى جانبه مديرية الشرطة العامة..

هل هناك من يستطيع أن يؤاخذني على هذا القلق وعلى تلك الشتائم وعلى ذلك الارتياب.

.. حـتـى يومي هذا وأنا اشك في أن زيارة هذا الرجل أو قل " تطفله "، لم يـكن خافياً على من في المتصرفية، أو من في ذلك المقر المخيف للشرطة، بكل ما لديهم من جواسيس وعيـون، وأظن أن تحـويل هذا الاتهـام المفتـرض إلى اتهام سـهل يسيـر وغـيـر مخيف، هو ذلك الجو اللطيف الذي أشاعتـه وزارة نور الدين محمود العسكرية، الذي يخفف الوطأة عن الناس وعن المعتقلين منهم بوجه خاص..

لقد كان هذا الرجل نور الدين محمود، يحترم نفسه حقا، ويحافظ على سمعته ما استطاع، وهو ما كان السبب في استقالته أو قل.. إقالته.

أياً كان الأمر، وأيا كان تفسيره، وأيا كـان تأويله، فقد أصابت الدهشة وجوه رفاق الأمس، وأنا أعود إليهم من جديد.. قالوا :

" ما الخبر يا أبا فرات ؟! "

قلت :

" ما المسؤول يا إخواني بأعلم من السائل! "

ولشد ما كانت دهشتنا نحن جميعاً، حين رأينا عبد الرحمن السامرائي ، آمر شعبة التحقيقات الجنائية في

بغداد..المخيف..، يقوم بزيارتنا بغية التحقيق معي.

.. قلت " لقد أكلتـهـا! "، من المستحـيل أن تكون التـهم بأقل من : " التـعـامل مع سفارة أجنبية "..

ولشد ما كـانت دهشـة السامرائي ودهشـة الآخرين، حين انفجر الخوف المكبوت في داخلي ليسـتحـيل غـضبا ً وغلظة، حين علمت أن التـهـمة هي وجود تلك الرسائل التي ديسَ بيتي من أجلها وفي غيـابي، ولأول مرة مما سبق ذكره.. أي أكداس رسائل أنصار السلام العالمي ..

.. ارتد السـامرائي معـتذراً، ومهدئا ً، ومطمئنا.. ومـا أشبه الليلة بالبارحة، فقد حدثت المفارقة نفسها قبل خمسة عشر عاما من ذلك التأريخ، حين انفجرت بوجه معاون شرطة بغداد والمخيف أيضا، وهو " محي الأعـور " عـام **١٩٣٧**، وهو ما مرّت الإشارة الأليمة إليه في الجزء الأول من ذكرياتي، ورفضت الإجابة عن أسئلته.

المهم إني بقيت في معتقل أبو غريب ، وهذا المعتقل يودع فوجاً بعد آخر، وما كان من أول الخارجين إلا أن يبقى وحيداً ليكون آخر الخارجين، وليدمدم من خلال وحدة الوحشة والظلمة والقهر الداخلي قصيدة، بل قل ملحمة " ظلام " :

ظلام يفـــورْ . . ونجمٌ يغـــورْ
وزنجيُ ليـلٍ يخـــــيفُ الدهورْ
حَـمولٍ لثـقلِ الدياجي صبـورْ
كــــأن ثناياهُ عـــشُ النسورْ

* * *

غــفــا الحـقدُ يا ليلُ والحــاقـدُ
ولفــهــمــا نعــشـُـكَ البـــاردُ
غـفـا نَـفَـسٌ عــفــنٌ بــاردُ
يفـــــيقُ بهِ قَــفـصُ الأضلــعَ
ونـابٌ وبـيءٌ مـنَ المضــــــجعَ
فــيطفــوُ على القــفــرَ والَبلقعَ

هنا وفي هذه الفترة، وتعويضاً لما تفردت به من تقشف أنا وصديقي الشيخلي بين المترفين، فقد تضاعف عطف ضباط المعتقل عليّ وبدأ " تدليلهم " يتزايد يوماً بعد الآخر، بل ساعة بعد ساعة، إذ كانوا يدعونني على الغداء معهم نهاراً، والعشاء ليلا، ونمارس رياضة السباق في إصابة هذا الهدف أو ذاك، ومع ذلك فقد أتتني هدية جميلة وثمينة في صندوق غير صغير، يحتوي على أجمل واهم ما في المكتبات العراقية ببغداد من كتب.. وكانت مهداة إلي من صدّيق شنشل ، والذي تلقيت بأسف بالغ، قبيل ساعات من كتابة هذه الحروف، خبر نعيه في اليوم التاسع من نيسان عام ١٩٩١ ، وكان احد أقطاب حزب الاستقلال، الذي وكما أشرت، يمثلّ حالة وسطاً بين التقشف والترف في جملة ذلك الرهط المدلل منا نحن المعتقلين..

وكما تفردت بأن أكون الوحيد في هذا المعتقل ، والأخير فيه أيضا، فقد كنت الوحيد أيضا من جميع نزلاء الجناح الأول، ممن يقدمون إلى المحاكمة.. بتهمة السلام العالمي! .

وبالرغم من حضوالحاكم.ن محام للدفاع عني، فقد اكتفيت بأن أدافع عن نفسي بكل إيجاز :

" اجل يا سيدي الحاكم.. ما العيب في أن أكون داعياً للسلام!!.. أكان عليّ أن أكون داعيا ً للحرب .. ".

وإذا لم تخني الذاكرة، وأنا اكتب هذه الذكريات في الغربة، وبعد أكثر من خمسة وثلاثين عاما، فقد صد ر الحكم علي بالحبس مدة شهر مع وقف التنفيذ.

وكالعادة، فقد احتجّت مديرية التحقيقات الجنائية واستأنفت الدعوى. وبالرغم من ذلك فقد ردّت المحكمة عليها رداً مشرفا، وذلك بقولها " لقد كان الحكم أكثر من كاف ".. وهكذا رفض الاحتجاج..

.. عودة إلى بيتنا في الحارة المشحون بالذكريات :

في هذا البيت نفسه في الأعظمية، ومن تلك الحارة نفسها، فمن بحبوحة في السعة من طبعتي هذا الديوان، أو تلك الهدية المشفوعة بتقبيل يدي، من الشيخ الإقطاعي، صديقي الحميم آنذاك، وعدوي اللدود الصميم بعدئذ ٍ بلاسم الياسين ، وفيما بين ذلك من الادقاع وهذه البحبوحة، كنا نعود من جديد وقد بذرنا كل التبذير، لنقتّر كل التقتير، حتى لقد صبر صاحب الدار الكريم طويلا على دفعات مستحقات الإيجار المتراكمة.

ومن القطع التي أتغنى بها، وأنا استشهد بها على ليلة دق هذا الشيخ فيها بنفسه باب الدار في غيابي، لأعود من المقهى وأجد ظرفا ًبخمسمائة دينار عراقي .. إنني أتذكر الآن: بأنني في صبيحة تلك الليلة، وقد أتممت القطعة الآتية، وعنوانها دليل عليها .. إنها بحق قصة :

قال طفلي وقد رُميتُ بقاعَ
وتلاقتْ عليّ شتى البقاعَ
لِزَني في الغياب حاكمُ بغدا
دَ بامرٍ من اجنبي ً مطاعَ
واجتواني حكّام مصرَ ولبنا
ن يخافون َمِقولي ويراعي

أبـتي كـــــــيف يـســــــتـــــــجـــــــيبُ ذلكَ الـرز
ق وقـــــد جـــــانبــــــتكَ شـــــتّى الـدواعي

في هذه الفترة، وفي هذه الدار، كانت حصتي بالإضافة إلى الحمل الثقيل من مسؤوليتي عن حركة أنصار السلام، هو ما ابتلاني من أمر فرات و فلاح ، فلا احد - لا والله - لا فرات، ولا فلاح، نفساهما، يعرفان ويدركان ما عانيت في سبيلهما.. فمن يصدق أن يعبر السيد فرات وبيده زنبيل مثقل بالمنشورات الشيوعية، وفي اعنف قترة من فترات الأحكام العرفية، ليعبر بها الشارع في الحيدرخانة ، الشارع الرئيس في العاصمة كلها من هذا الجانب إلى الجانب الآخر، وكأنه يحمل زنبيل فواكه أو خضروات، ثم وبالطبع فأن يقبض عليه وهو يحمل هذه الجريمة، التي يعرف المتهمون بها وبأمثالها مدى العقوبات التي تستحقها..

على أي حال فبعد هذه الوساطة أو تلك إلى الحاكم برهان الدين الكيلاني ، الذي فوجي بما لا يخطر له على بال، أن يجاء بفرات و زنبيله المفعم، محمولا على يد جلاوزة الأمن، ومن يصدق أن تكون العقوبة، السجن لسنة واحدة مع وقف التنفيذ، بحجة عدم وجود سوابق له.. ومفروغ أن يثور جهاز الأمن لهذا الحكم وان يستأنفه، وباختصار أيضا، فأن يكون اعتراض هذا الجهاز، وزنبيل فريستهم أمام السيد الكريم الفقيد، وان شئت فقل " الشهيد " ، رئيس محكمة البداية والاستئناف عبد الجليل برتو ، وأن يُرفض هذا الاستئناف،

ويقر الحكم الأول ، وان يخرج الأفندي فرات، ليقطع الشارع في الحيدرخانة شاخصا بقامته المديدة.

هذه مفارقات لا تنسى..

أما موقفي من أمر السيد فلاح ، وهو الآن الدكتور الناجح، والاختصاصي في الأشعة في العراق، والذي لا يكتفِ برفض أجور الفقراء أو ضعيفي الحال، بل أن يدفع وصفاتهم الطبية من حسابه الخاص.. أمري مع هذا الـ (فلاح)، لا يقلّ عن أمري مع شقيقه الأكبر، بل انه ليزيد عليه بكثير.. باختصار لقصته أيضا :

.. ففي المرة الأولى، وفي انتفاضة تشرين ١٩٥٢ ، قبض عليه وهو يعتلي السلم الرفيع في شارع الرشيد، ليثير الجماهير وطبعا فأن يقبض عليه ليبقى برهة من الزمن في التوقيف، ثم أن يقدم إلى المحاكمة.. بشفاعة وأخرى مني يطلق سراحه.

أما المرة الثانية، فان يقبض عليه وهو يحمل في جيبه رسالة سرية هدامة في عرف الحاكمين ، فما يكون منه إلا أن يرميها في حلقه ليعتلكها.. يحاول ضابط الشرطة أن يخرجها من فمه، فيعض إصبعه، عضة كادت أن تقطعه.. طبيعي أن يجاء به إلى الحاكم وقد ضمدت إصبع الضابط ، وابتلعت الرسالة، ثم ليحكم عليه بالتوقيف ريثما يحين موعد محاكمته.

.. وطالت مدة توقيفه، وذات يوم يبلغني من مصدر شبه مؤول، انه محموم، ولا أنا ولا المنجم يدري، ما هو مصير محمومين في مثل هذه الحالات الرهيبة. ولأول مرة في حياتي، وأقولها بحق، وجدتني خارجاً عن صوابي بأكثر مما خرجت به قبل ذلك أو بعد ذلك، فاندفعت اندفاعه لا اعرف كيف اخترقت فيها وزارة الدفاع وحراسها ليلاً بعيد الغروب ، لاقتحم غرفة السكرتير، ولعله صالح السامرائي، لأصيح بوجهه وبصوت عال، بمعنى أو بدون معنى :

" والله لئن مات فلاح وبعد موت جعفر، فسأفعل ما افعل!! ".. حتى لكأنني سأقلب في اليوم التالي النظام القائم برمته.

.. ومن يصدق أن الرجل سكرتير وزارة الدفاع الرهيبة لا غيرها تلقاني وتلقى اندفاع هذه بكل تهدئة ولطف، وبفنجان قهوة وكأس ماء، ثم أن يرفع الهاتف ليتصل بالمسؤولين، وليجاء بـ فلاح وأنا عنده، وفعلاً فقد كان محموماً.. وهنا وللتاريخ أتذكر كما يتذكر الحالم، شبح رجل اقتحم الغرفة على صدى صياحي، ليلطّف الجو أكثر فأكثر.. كان وجه رجل عرفته بعد سنين، وقد مرّ ذكره، وهو الفريق الركن صالح مهدي عماش ، وتأكدت من أن هذا الشبح كان هو بالذات وقد قال لي : " اجل كنت أنا ذلك الرجل يوم ذاك، وفي مديرية الأركان العامة في وزارة الدفاع. وذكرّني بهذه المناسبة بما أشرت إليه، من انه يعرفني، وانه جار لبيتي تقريباً، وإن كنت لا اعرفه بالذات.

.. ومع هذا فلم تنته قصة فلاح فلأن تخلص وهو محموم من التوقيف، فلم يتخلص بعد من يوم المحاكمة، فماذا عسى أن يكون مني وأنا أكاد اقرأ المجهول المجهول من أمر العاقبة.. وفي ليلة لم أنم فيها حتى الصباح

حيث كان يومها موعد الحكم عليه، تنزل الوحي على الشاعر.. ففي الصباح الباكر قصد ت دار جميل المدفعي ، وهو من هو في الحكم ولدى الحاكمين!، لأسلم الحارس، وعندي علم اليقين أن الرجل نائم، أسلمه رسالة مختصرة بهذا الصدد ، ثم لأعود إلى البيت لأتلقى بعد قليل نداءً هاتفياً من وزارة الدفاع..

هرعت إلى الوزارة ، وشاء فرات أن يكون معي، وتشاء الصدف ,وأنا اقترب من مكتب نوري السعيد، أن أجدني بمواجهة ضابط مثقل بالأوسمة، ليقول لي والساعة تقترب من جلسة المحاكمة، وبالحرف الواحد وباللغة الدارجة :

" تاليها يا أستاذ جواهري مع فلاح!؟ ".

وفهمت مباشرة من هذه الوقفة، انه الفريق عبد المطلب الأمين ، الحاكم العسكري آنذاك، وانه مسرع ليتدارك الأمر مع المحكمة والحاكم.

.. وبعد لقاء قصير مع نوري السعيد ، وجزى الله المدفعي خيراً، كان قد سُوي الأمر.

أما ما كان بعد ذلك بقليل من أمر السيد عبد المطلب مع المحكمة، فقد كان أن تلقت تدخله هذا امراً مثيراً:

" لقد كانت تبرئته في المرة الأولى غير واردة.. وها هي المرة الثانية! " .

.. وطبيعي أن تخضع كل محكمة في العراق آنذاك لحاكم عسكري موفد من قبل نوري السعيد لاغير. "

الجواهري " ذكرياتي "

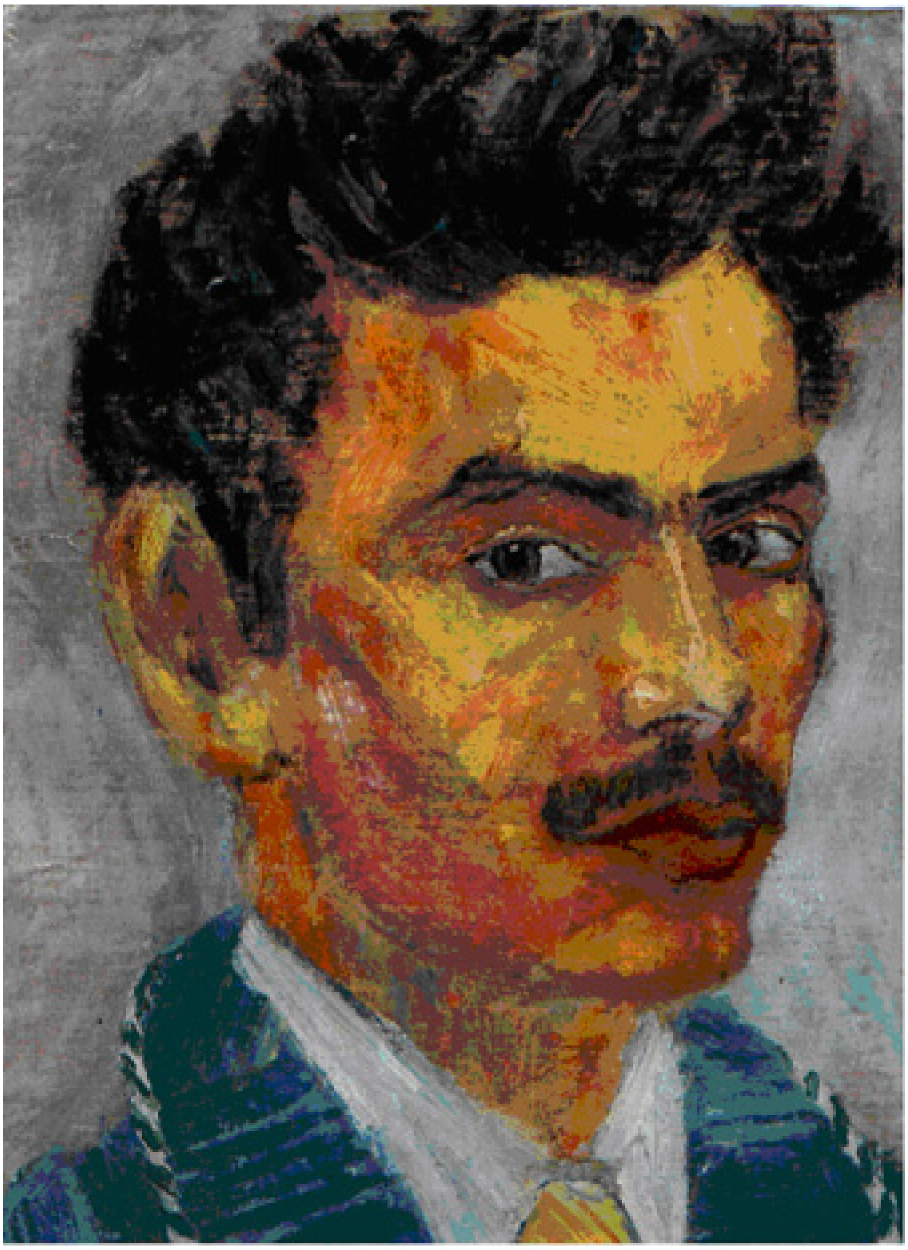

فلاح الجواهري – الفنان بريشته – ١٩٥٨

"جون" و "وني"

كان الظلام قد حل حينما ترجلت من قطار الضواحي.الرصيف كان خاليا وكانت هناك ريح باردة ندية ترش وجهي برذاذ بارد فأحكمت معطفي وأنا أغادر المحطة مستديرا إلى اليمين. وبعد أن عبرت بضعة بيوت بدأت بالتمعن في اللوحات الصغيرة المثبتة قرب حواشي الأبواب.. ٥٢.. ٥٠.. ٤٨. ربما كان ٥٢ . وعدت من جديد أتمعن في شكل الأبواب والنوافذ. لقد مضى قرابة العام،والبيوت و الأبواب تتشابه وما الفرق بين ٥٠ و٥ او ٥٢، كلها أرقام..كم من الأرقام علينا أن نتذكر،أرقام الباصات، والبيوت، والتلفونات، وأعمار الناس،والنقود التي نصرف ونستدين، وجداول الضرب والجذور التربيعية.

ليس هو ٤٦، وهو ليس بهذا البعد عن نهاية جسر القطار.. ٥٢ فلنجرب، فالنور مضاء في الصالة، وهذا هو الوقت الذي يجلس فيه" جون" على كرسيه الهزاز للقراءة، وتنشغل فيه " وني" بالحياكة على الكنبة القصية وفي الطرف الآخر من جون.

أمسكت باقة الورد بيدي اليسرى ونفضت بعضاً من الرذاذ العالق على المعطف قبل أن أدق جرس الباب. أضيء نور الممر وفتحت الباب عن "وني"، بشعر معقص منسرح، و برداء بيت وردي أنيق.. شيء ما قد تغير.

- مفاجأة..أليس كذلك؟!

- فلاح!!..فلاح،حقا أنها مفاجأة سارة.

عبرت عتبة الباب وقبل أن أمد يدي مصافحا وجدتها تعانقني بترحاب ومودّة.

..هبّ شذا عطر شرقي ..وجدتني أنسى التحفظ المزمع في لقائها، وأجيب بعناق ودي دفيء.

- هل حقيبة السفر تلك عائدة لك؟ أجبت بابتسامة، وعد ت خطوة إلى الوراء لأدخل الحقيبة المنسية إلى الداخل.

نهض "جون" من كرسيه بفرح واضح، مصحوب ببعض الدهشة، تاركا جريد ته

تسقط على الأرض وتقدم إلى مدخل الصالة حيث أقف وتعانقنا بحرارة..وقفنا نتأمل بعضنا بعضاً فترة..شيء ما قد تغير!!

" وني " ، هنالك نضارة وحيوية جديدة ملحوظة، و" جون" يبدو متعبا واكبر سنا.

- أنت قادم لقضاء إجازة قصيرة معنا؟، سأل جون بفرح، حين انتبه إلى الحقيبة المتروكة في الممر.

- أنا عائد إلى وطني

- تعني في إجازة؟

- كلا For good

- ودراستك هنا؟

- هناك، سأبدأ كل شيء من جديد..كفاني ضياعاً.

- يبدو أنها قصة طويلة..هل تعشيت؟ بإمكان "وني" أن تحضر شيئا سريعا ودافئا.

- كلا، شكرا لقد تعشيت. أنا جئتكم مودعا فقطاري الذاهب إلى "نيوهافن" سيغادر في التاسعة.

ضاع "جون" في لحظة ذهول وانتفض وكأنه يصحو من غفوة عابرة.

- يبدو أن الموضوع جدي! سنتحدث فيه مع كوب دافئ من الشاي تعده لنا "وني".

هبت "وني" من مقعدها بعدما كانت تتابع الحوار القصير بدهشة وصمت.

- يبدو انك جاد فيما سمعته، ستذهب وتنسانا دون شك..سأذهب لإعداد الشاي.

صبت لي "وني" كوبا من الشاي و قدمت إحدى فطائرها الساخنة

- هل ستعود إلى دراستك الطبية في بغداد.. انتهت إذا مشاريع المعمار والفن وكلية "همارسمث" الفنية؟

- لن أعود إلى بغداد في الوقت الحالي، فوالدي في سوريا كلاجئ سياسي بعد أن غادر العراق، لاعنا النظام والسلطة في قصيدة ملتهبة في مهرجان شعبي ضخم في دمشق..حسب علمي ليست هنالك كلية للهندسة المعمارية في دمشق ولا أكاديمية فنون..لا شيء غير العودة إلى دراسة الطب هناك.

- هل تعتقد أن الجو مناسب للعودة الآن في هذا الجو المحتقن الخطر في المنطقة، بعد أن قام هذا الهتلري المجنون بتأميم قناة السويس؟.قال "جون" عبارته الأخيرة باستياء ظاهر.

- ربما أن حسم قرار عودتي قد تم، لأن الجو محتقن كما تقول، ولأن أحداثا هامة كتأميم القناة - التي ذكرت - تحدث في بلادي و هي التي حفزّتني أكثر، كي لا أكون بعيدا عن المعركة.

- إذا أنت تقر بأنها معركة تلك التي أعلنها ناصر علينا.

- نعم، ولكنها معركة لاسترداد حقوق مغتصبة..معركة عادلة ومشرفة!!

- ولكن القناة قناتنا والشركة ملكنا،جهدنا وبناءنا، قالها جون بغضب وقد علا صوته.

- القناة فوق ارض مصرية، وحفرت بأيدي مصرية وبجهد عمالها الذين مات منهم عشرات الآلاف ضحية السخرة والسياط التي ألهبت أجسادهم.

- إنكم قوم جاحدون متخلفون تنكرون دورنا في تحضيركم..نهض عن كرسيه وقد احتقن وجهه وأردف

-..نعم جاحدون وليس غريبا إنكم ستستولون على شركات نفطنا!!

- نفطنا؟!..نفطنا؟!.. هذا وكنت تقول انك اشتراكي!!.. هل السعودية والعراق أرضكم؟!..وما في هذه الأرض من بترول هو بترولكم؟!، نهضت بغضب ورميت منديل الطعام على المائدة، وأكملت كلامي وأنا اتجه لمغادرة الصالة :

-.. نعم سنفعل ذلك قريبا، سنؤمم النفط.. وسنكسر كل يد تحاول منعنا من ذلك.

قبل أن أصل إلى مدخل غرفة الاستقبال، كانت "وني"، واقفة بيني و بين المدخل بحركة تمنعني من التقدم، طوقت عنقي بذراعيها.. قبلتً خدي، ثم استدارت بغضب عارم تجاه "جون"- لاشك انك جننت يا جون، لقد أتاك مودّعا قبل عودته إلى الوطن.!

قادتني برفق إلى كنبة قريبة..

جلست مطرقا بكآبة شديدة. لم تمض إلا لحظة قصيرة حتى سمعت دمدمة "جون" تقترب مني..التقطت منها ما أدركت انه اعتذار.

رفعت رأسي ببطء لأجد "جون" واقفا بارتباك ظاهر ووجهه المتغضن قد توهّج بالاحتقان .. مدّ ذراعه تجاهي

- هل تقبل اعتذاري..إني جد آسف، قال ذلك بصوت مرتجف غلب عليه الانفعال.

نهضت واحتضنته بحرارة دون أن انطق.

- يبدو إن ضجيج الصحافة والإذاعة والتلفزيون حول التأميم قد بثَّ الهستيريا في كل مكان، ووصلت إلى بيتي

قال ذلك وهو يختار الكنبة المجاورة لي لجلوسه..

كان هادئا وحزينا وبعد صمت ثقيل لم يطل،نهض فاركا كفيه بنشاط ومرح:

- هيا يا "وني"، حضري من فطائرك التي يحبها فلاح، فيبدو أن طريق عودته طويل، ولا تنسي أن تجففي معطفه وتضعي فيه وشاحا صوفيا يقيه رياح عبور المانش.، ثم مستديرا نحوي

- أطلعني على تفاصيل مسار عودتك..وهل إن كل شيء قد أتممت ترتيبه، أم أن الطريق مغامرة من مغامراتك ، وكل مفاجآت المجهول العارضة فيه، تحل في حينه؟

* * *

كانت الساعة قد قاربت التاسعة، حين فتح باب سيارته الصغيرة السوداء لأجلس إلى جواره. أوقف السيارة قرب محطة فكتوريا ، لم ينزل مباشرة وبالطبع لم أتحرك أنا بدوري، فلا يزال هناك متسع من الوقت.

- هل تذكر آخر مرة خرجنا معا بهذه السيارة..لقد كان الوقت ليلا أيضا. قال ذلك بسهوم وبصره يخترق الواجهة الزجاجية للسيارة أمامه ويخترق الضباب العاتم الكثيف، وكأنه يحاول جاهدا أن يخترق الغيب،- بالطبع لم تنس ما بحت لك به.. ولم تنس مخاوفي التي صارحتك بها . وبعد لحظة صمت متوترة،.. لقد كنت محقا يا صديقي، لقد افلت المارد من قمقمه.. لقد تغيرت "وني"، ويبدو إنني قريبا سأرمى

وحيدا في العالم المخيف . ثم مبدلا نبرة حديثه، ماعلينا، لن أحملك متاعا ثقيلا في سفرك.

أخرج أمتعتي من صندوق السيارة الخلفي، ورافقني إلى عربة القطار المتجه إلى "نيوهافن"، وقبل أن اصعد إلى العربة، تناول المعطف المعلق على ذراعي وألبسني إياه بعد أن احكم وشاحه الصوفي على عنقي

- حذار من الرياح الباردة عند عبورك المانش.

لم يغادر رصيف المحطة حتى طواه الضباب المتكاثف.

سكنت مع "جون" و "وني" فترة عدة أسابيع بعد أن طلبت منهم صديقتهما وجارتهما السيدة "ستيفنسون"، وبرجاء حار أن يأخذاني لديهما كطالب مقيم وبنفس المبلغ الذي كنت ادفعه لها، لقاء كل تكاليف السكن والرعاية، ريثما ينتهي البناءون من الترميم الكامل لدار السيدة "ستيفنسون" حيث كنت أقيم .

اعتذر الاثنان "جون" و "وني" عن ذلك، لأن ذلك سيغير طبيعة حياتهما، البالغة الاستقرار والعزلة - " طيْران وادعان فوق دوح منعزل " - وفق ما كانت تصفهما السيدة "ستيفنسون".

كان لإلحاح تلك الجارة العجوز الطيبة، وصديقة العمر التي لا تعوض، أثره في عودتهما عن ممانعتهما القطعية وقبول بقائي معهما فترة الترميم التي تمتد أسابيع قليلة لا غير.

بعد تحفظ وتعامل حذر مهذب مع الطارئ الجديد، والذي لم يدم طويلا، بدأت الأمور تتغير في البيت، فالسكون الذي كان يلف مائدة العشاء والذي كان يقطعه صوت الملاعق أو إبدال الصحون، اخذ ت تدخل عليه عبارات مجاملة واستفسار عن سير الدراسة، أو عن المواصلات التي توصلني إلى كليتي ، وعن الصعوبات التي قد أجابهها في اللغة والمجتمع الجديدين علي. وتطورت لتنتقل إلى حياتي السابقة في بلدي وعن مشاريعي المستقبلية، وأخذنا نتبادل ابتسامات فيها دفء ومودة، وبدء الاهتمام يتزايد بكل ما يتعلق براحتي في سكني ومأكلي وحتى ملبسي الذي أصبح محط اهتمام وني قبل مغادرتي إلى دراستي كل صباح.

لم يمض أكثر من أسبوعين إلا وكانت العلاقة بجون تتطور من الحديث الهادئ الذي يدور بيننا بعد عودته من عمله في (يانصيب كرة القدم) – pools –،إلى دور في لعبة الشطرنج أو إلى إسماعي صوته المسجل على اسطوانة،كان هو قد دفع ثمن تسجيلها ، ليستمع إليها وقت راحته، أو ليُسمع زائرا أو صديقا يأمن تماما ألا يقول فيه غير إطراء معقول، حتى مع علمه، بان ذلك لا يتعدى المجاملة التي تقتضيها حسن الضيافة. أما "وني"، فكانت الابتسامة لا تغيب عنها حين نتقابل صدفة في الممر أو عندما ترفع رأسها من لوح تطريزها بين آن وآخر في غرفة الجلوس بعد العشاء، وكانت بين الحين والآخر تشترك معي و"جون" في الحديث الذي غالبا ما يتناول سيرة "جون" السابقة ومواقفه المتعاطفة مع الشعوب المقهورة، أو إيمانه التام بالاشتراكية الفابية، ودورها الأكيد في حل مشاكل البشرية جمعاء.

* * *

انتهت الترميمات في دار السيدة "ستيفنسون" وآن أوان عودتي إليها وكنت أحس أن هذا الأمر، بدأ يؤسف "جون" و "وني" وأخذا يسائلاني، وان بشكل غير مباشر، هل هنالك إلزام في قضية عودتي إلى سكني السابق؟، وأنهما في حالة رغبتي في الاستمرار في البقاء معهما، فليس من الصعب الاتفاق مع السيدة "ستيفنسون" حول ذلك، وان مسألة ما سأدفع أسبوعيا ليس بقضية ذي بال.

لقد أحببتهما حقا. وكانت علاقتي بجون أكثر عمقا مما هي مع زوجته، ورغم انه كان يأخذ مكانة الأب في الإرشاد وفق تجاربه، إلا انه في الوقت ذاته قد أذاب جليد فارق العمر لنتعامل – في معظم الأحيان – كأصدقاء خلص.

لم يمض طويل من الوقت على مغادرتي إياهما ، حتى كان "جون" يطرق علينا الباب في إحدى الأماسي، وأثناء تناوله الشاي معي ومع السيدة و والدتها التي تجاوزت الثمانين، والتي كانت ترقص لي ال " كان كان " ، كلما عقصتُ حاجبيّ ونكّستُ رأسي، في إحدى كآباتي المتكررة، عرض "جون" شكواه علينا، ولم تكن هذه الشكوى إلا من الوحشة والفراغ اللذين يعانيانه، هو و "وني" بعد مغادرتي لهما.

وكـان الحل المقـتـرح والذي أتى "جـون" أسـاسـا من اجله، إيجاد احـد الطلبـة ممن يبحثون عن إقامة مع إحدى العوائل الانكليزية.

أخذت الأمر على عاتقي، ولم اترك أيا من الأصدقاء إلا وأبلغته عن مرشح، خلوق وأمين، لمثل هذا المكان والعائلة الطيبة التي تملكه.

لم يمض أكثر من أسبوعين، إلا وكان ثابت، وهو ابن عائلة بغدادية موسرة، والقادم إلى لندن للدراسة على حسابه الخاص، يحظى بنفس تلك الرعاية التي حظيت بها في بيت "جو" و "وني"، إن لم يكن أكثر.

من خلال زياراتي لهما أول الأمر، ثم زياراتي الخاصة له لاحقا ربطتني به صداقة، ذات حدود حذرة، فضلت ولسبب لا أدركه، غير إحساس داخلي مبهم، عدم اختراق تلك الحدود لصداقة أكثر دفئا وعمقا.

وكان قبولي في "سندرلاند" لمرحلتي الدراسية التالية سببا في أن أغيب عن زيارة "جون" و "وني" فترات طويلة، أقابل بعدها بترحاب شديد كلما أتيحت لي الفرصة لزيارتهما، أثناء نزولي بضعة أيام إلى لندن لانجاز عمل أو مهمة.

وكنت أجدهما على وضعهما القنوع الآمن، ولم يتركني "جون" مرة واحدة دون أن يوصلني بسيارته القديمة السوداء إما إلى حيث أقيم مؤقتا، أو إلى محطة قطارات الشمال التي أغادر منها عائدا.

مرت عدة أشهر بعد آخر زيارة لجون.كان الوقت متأخرا وكنت مترددا في أن اطرق الباب، غير أن موعد عودتي في منتصف تلك الليلة لم يتح لي فرصة أخرى للزيارة.

استقبلني "جون" على غير ما عهدت، ترحاب من وراء وجه متعب كئيب. تبعته إلى الصالة.

- سأذهب لأعد الشاي، فقد خرجت "وني" لزيارة بعض الأصدقاء ولن تعود إلا في وقت متأخر.

- لا ضرورة للشاي يا "جون"، فقد تناولته قبل اقل من ساعة عند احد الأصدقاء، ثم أن قطاري سيغادر بعد ثلاث ساعات.

- إذا، هل لديك أي مانع في أن نخرج بسيارتي في جولة قصيرة أوصلك بعدها إلى المحطة..أحس أني مختنق وبحاجة إلى شيء من الهواء النقي.

كان المكان الذي ركن فيه جون سيارته عند احد المتنزهات اللندنية الواسعة والتي تكاد تقفر في ليالي الخريف والشتاء.

أطفأ جون أنوار السيارة تماما، وعمت ظلمة بدأت بعد قليل تتلاشى حواشيها بسبب الإضاءة الخافتة القريبة في المتنزه .

وضع "جون" يديه على المقود متكئا وسرح بصره في ضباب الظلمة..طالت فترة صمته، و وجدتني أخشى واحذر من خدش ذلك الصمت، حتى ولو بحركة تململ بسيطة.

- هل تدري يا فلاح إن حياتي قد تقوضت تماما ؟!! قالها جون بصوت مرتجف وهو لا يزال يحد ق في المجاهل الضبابية أمامه، وكأنه يحدث شخصا آخر غيري.

طال صمته ولم أجد غير الانتظار لما يلي ذلك.

- " قبل مجيئك كانت حياتنا أنا و "وني" رتيبة نمطية وقنوعة في الوقت ذاته ، لكنها لم تكن تخلو بالطبع من، متع هادئة ومودة وانسجام. تزوجنا قبل أكثر من عشرين سنة، عن حب وتفاهم، ولم يكن هنالك فارق سن كبير فقد كنت في التاسعة والعشرين وهي في الحادية والعشرين، وحين يئسنا من الإنجاب، ولم أكن أنا السبب في ذلك، من الناحية الطبية، تأقلمت "وني" بعد وقت، لم يخل من معاناة وصبر وكآبة، مع الواقع الجديد، ورتبنا حياتنا وفقا لذلك وكنا سعداء على طريقتنا .. بل وهكذا كان الآخرون يروننا أيضا.

أما علاقتنا الجسدية فقد توقفت، ولنقل انتهت منذ خمس سنين، وتأقلمنا دون أي إشكال مع هذا أيضا.

جئت أنت وبدأت أشياء تتبدل في حياتنا.عزونا ذلك في البدء إلى كسر الروتين الذي كنا قد فرضناه على أنفسنا لفترة طويلة، ثم أخذت أدرك مع الوقت وبسرعة، أن السبب في الحقيقة يعود إلى توقنا الطويل المكبوت إلى ابن لم يسعدنا الله به، لم أبح

بما توصلت إليه لوني، كي لا أثير شجونها، ولكني واثق من إنها سبقتني في مثل هذا الإدراك ولم تصارحني، كي لا تثير شجوني..هل تتابعني يا صديقي، كم تمنيت أن أقول يا ولدي، قال ذلك وهو يلتفت تجاهي لأول مرة منذ بدء حديثه وقد تقطع صوته بعبرة خانقة..عاد إلى وضعه في مواجهة الظلمة والسرحان في أغوارها وواصل حديثه:

" بعد مغادرتك ومجيء ثابت مكانك استمرت الأوضاع بالضبط كما كانت معك، إلا بفارق صغير، انه لم يكن على نفس البساطة والانفتاح الذي كنت أنت عليه. كان أكثر صمتا وهدوءاً وعزلة، ومع ذلك فقد شاركنا في معظم أماسينا بعد العشاء وكنت ادخل معه في هذا الحديث أو ذاك، وان كانت حواراتنا لا تصل إلى ما كانت تصل إليه معك من الانفعال والتحدي.

لم تتغير رعايتنا له عن تلك التي منحناها لك إن لم تكن أكثر، وسار كل شيء على ما يرام، حتى تلقيه نبأ وفاة والده.

كان حزنه كبيرا، وتأثرنا أنا و "وني" لحزنه واحترمنا ذلك الحزن وخصوصا وني، التي طالما كانت تحتضنه مواسية، كلما داهمته موجة من البكاء المفاجئ. غير أن أياما كثيرة مرت وهو على نفس وضعه من العزلة والكآبة ولقد تحدثت إليه مواسيا في إحدى المرات، بأن والده قد توفي عن عمر كبير ودون عذاب وألم، وكلنا فقدنا وسنفقد أحباء لنا وهي مشيئة الحياة، ناهيك عن انه ترك له وللعائلة ثروة طائلة لعيشة رخية.

كان يبقى مطرقا صامتا في قاعة الجلوس حتى ساعة متأخرة، واصعد أنا إلى غرفتي لأتهيأ للنوم ،وأنت تعلم أن عليّ الخروج إلى عملي عند الصباح الباكر. أما "وني" فكانت تبقى في الصالة مع لوح تطريزها كي لا يترك ثابت وحيدا لهمومه.

أفقت في إحدى الليالي، وكانت الساعة التي بجانبي تشير إلى الثانية وكان فراش "وني" خاليا.

..نهضت وفتحت باب غرفة نومنا لأجد أن الظلمة تغمر البيت..ضوء صالة الجلوس مطفأ.

لم أكد أصل إلى منتصف السلم ، حتى بدأت تتناهى إلي أصوات خافتة آتية من الصالة المعتمة . بدأ قلبي بالوجيب حتى أن ضجيجه في إذني غطى على أي صوت آخر..وهنت قدماي عن الحركة، غير إني واصلت نزولي ببطء وجسدي يرتعش بكامله،

والأصوات تزداد وضوحا وتتمايز عن تأوهات ومناغاة ناعمة وحشرجات.. وعند مدخل الصالة مددت راسي لأجدهما ، وتحت ذبالة النور النافذ من الشارع، يتضاجعان عاريين على سجادة أرضية الصالة .

تراجعت قليلا لاستند بظهري على حائط الممر خشية الانهيار.

..أن أفاجئهما وهما بوضعهما هذا فهذا معناه أن احدنا سيغادر الدار والى الأبد.

..إن اكتشفا وجودي واكتشافي لوضعهما ، فهذا سيضعني أمام مجابهة صارمة تغادر بعدها "وني" الدار دون عودة.

عدت على أطراف أصابعي بذلة وانكسار إلى غرفتنا.

كانت الدموع لا تزال تبلل وجهي في الظلمة ، حين صعدت "وني" إلى سريرها بحذر شديد محاولة تجنب إصدار أي صوت مسموع.

صمت "جون" من جديد وزدت من حذري من إصدار أي صوت أو حركة تخدش هذا الصمت الحزين.

" أنا قد جاوزت الخمسين، .. ويصعب علي، إن لم يكن مستحيلا، أن ابدأ من جديد. إن وني وكما لاحظت، تكاد أن تكون صلتي الوحيدة للترابط مع العالم الذي أحياه.. ليس خوفي الآن ألا أتأقلم مع الذي حصل، ولا حتى مع استمراره مع ثابت، فهي علاقة عابرة ستنتهي حال مغادرته ..ما يفزعني، وبعد سنين من نسيان العلاقات الجنسية أو لنقل إغفاءتها عند "وني" ، أن يصحو هذا المارد النائم في أعماقها بعد هذه العلاقة ويجرها نداء الجسد بعيدا عني، واترك أنا وحيدا في هذا العالم الموحش. "

وضعت معطفي علي والتفعت بالوشاح، وأنا اخرج من عنبر العبّارة العلوي إلى السطح.. اتجهت إلى مقدمة السطح وكانت الريح عالية ندية. وضعت يدي في جيبي المعطف. هنالك علبة مسطحة كبيرة في الجيب الأيمن وظرف في الأيسر. أثار ذلك دهشتي. أخرجت العلبة فإذا هي علبة شوكلاتة كبيرة وأما الظرف فكان مغلقا وغفلا

عن أي عنوان أو كتابة. عدت إلى ممر العبارة القريب حيث الإنارة أفضل واسترخيت على احد كراسي الراحة وفتحت الظرف. كانت هنالك ورقة نقدية من فئة الخمسة باونات ورسالة قصيرة :

" عزيزنا فلاح

إننا واثقون، أيها الرحالة اليافع، انك ستجد شاطئ الأمان، وانك ستبدأ حياة مثيرة جديدة وتفتح أبواب مستقبل واعد رغم إننا نعرف تماما انك لست من أولئك الذين يركنون إلى ركود الاستقرار، إن عاجلا أو آجلا ستشتاق إلى مغامرة جديدة وعالم جديد تخوض مجاهله.

أحببناك محبة الابن الذي لم يرزقنا الله به، فلا تنسنا!

اتق برد الخريف الرطب حتى عبورك فرنسا ولا تُضع حقيبتك التي أضعتها هنا مرتين، فليس كل مكان هو انكلترة كي تعود الحقيبة إليك

اكتب إلينا حال وصولك. وليرعك الله.

قبلاتنا

"جون" و "وني"

فلاح الجواهري – جسمها اللدن.. والغدائر تنسابُ   كما أرخت العذارى سُتورا
معرض الجواهري ٢٠٠٣

باريس

كانت باريس تلتفع في صباحها الباكر البارد بوشاح من الضباب، الخدر والنعاس يخيم على كل شيء فيها بعد سهرتها الحالمة هنا ، والصاخبة هناك ، فاليوم هو الأحد، وقطار كاليه وصل متثاقلا قبل قليل إلى رصيفه بعد إجهاد السير العجول في فيافي الشمال المظلمة.

الشوارع الندية بالضباب شبه خالية، أفراد معدودون يسيرون على مهلهم على أرصفة الشوارع العريضة. واجهات المحلات المغلقة، ببضائعها المعروضة، تبدو كبيوت هجرها قاطنوها على عجل. من بعيد أتت أصوات قرقعة، ظهر أثرها من بعيد ترام يتقدم مترنحا. - هل لك أن تدلني على السوربون رجاءً، سألت بالانكليزية قاطع التذاكر في الترام. La Sorbonne? لم يفهمني أو انه لم يرغب في الإجابة على لغة غير فرنسية

- فقط حينها ابتسم قاطع التذاكر وهز بالإيجاب رأسه.

لم تكن عراقة الجامعة أو اسمها الشهير هو الذي دعاني لمعرفة مكانها ولكن، لابد إن احد العراقيين مقيم في قسمها الداخلي.

عبر مجموعة من الصعوبات في الإيضاح بالانكليزية ومفردات فرنسية باقية في الذاكرة، استطاع خفر الاستعلامات في مدخل سكن الطلبة من أعطائي رقم الجناح والغرفة واسم طالب عراقي يسكنها. اطل من باب الغرفة الموارب وجه يغالب النعاس.

- صباح الخير أخي ثامر

- صباح الخير..أجاب ثامر وقد امسك بظلفة الباب مستنداً، وقد بدت على وجهه علائم ترقب لما هو آت.

- يبدو انك قد أخذت كفايتك من النوم ، وقبل أن ادعه يرد على ذلك، واصلت بلهجة ملؤها الثقة :

- ما دمت قد نمت جيدا، سأدخل لاحتل سريرك على الفور ولمدة ساعة، ساعة واحدة، لان إرهاق السفر الليلي قد هدني، أيقظني بعد ساعة وبعد أن تعد الفطور

لنتناوله سوية، بعدها نخرج، فالبرنامج كبير ولا يحتمل التأخير، والوقت شحيح جدا. لم تدم بهتته طويلا وأنا أقف أمامه منتظرا تنفيذ الإيعاز، فقد أكمل فتح الباب الموارب لأدخل حاملا حقيبتي الثقيلة وأتوجه إلى اليسار،إلى الغرفة الوحيدة عبر الصالة الصغيرة..لابد أن تكون هذه غرفة النوم!!.اندسست دون إبطاء في السرير المبعثر الأغطية، ووضعت رأسي على الوسادة وتظاهرت بإغلاق عينيّ. من خلال رموشي، شاهدت خياله داخلا و لبرهة متأملا رقدتي،ثم ساحبا ملابسه ليلبسها على حذر وليخرج من الغرفة..سمعت صوت إغلاق باب السكن الصغير فأيقنت انه خرج.

سمعت صوت مكنسة كهربائية ثم اطل من الصالة وجه امرأة كهلة، وبانت على وجهها علائم الدهشة والارتباك وأسرعت بالاعتذار ومن جديد سمعت صوت إغلاق الباب فأغفيت من جديد.

حين أفقت مرة أخرى، تناهت إلى سمعي، وشوشة إبريق الماء المغلي، وصوت ملاعق وصحون.. تلامعت حزمة من أشعة الشمس نفذت من باب غرفة النوم المفتوحة.كان ثامر جالسا وراء طاولة صغيرة قد أعدت لإفطار شخصين.

- صباح الخير

- صباح الخير. قالها ثامر بابتسامة ترحيب صادقة. ثم معقبا:

- هل أخذت راحتك في النوم؟..هل أزعجتك المنظفة؟..يبدو أنها شاهدتني جالسا في حديقة مدخل البناية فتصورت أن الغرفة فارغة، لقد قصدتني بعدها هناك عند خروجها لتعتذر عن عدم علمها بوجود ضيف معي.. لقد عدت بعد ساعة ووجدتك غارقا في نوم عميق فآثرت عدم إيقاظك.

- أشكرك! لقد عدت وأغفيت من جديد بعد خروج المنظفة .

- شاي؟ أم قهوة على عادة الفرنسيين عند الصباح؟

- شاي!، على عادة العراقيين لو سمحت.

بعد رشفة من الشاي، رفعت راسي مبتسما

- الآن أعرفك بنفسي، فلاح الجواهري..أرجو إنني لم أكن سمجا أكثر من اللازم، وإنني لم أكن الكابوس الذي أيقظك من عز نومك.

- لابد أنها معرفة سابقة أنستني إياها الغربة.. أو قرابة عائلية لم تتح لنا الأيام أن نوثقها؟

- أبدا!.. أجبت مبتسما، ثم واصلت تناول إفطاري.

- كيف فاتني ذلك!؟ ..بالطبع، انك قادم بأمانة من الأهل!! قالها ضاحكا وكأنه قد حل لغز الجائزة

- ابسط من ذلك كله يا أخي،..لم أتشرف بمعرفة اسمك قبل أن اسأل خفر بوابة سكن الطلبة هذا الصباح عن عراقي مقيم.. أنا في طريق عودتي إلى الوطن قادما من انكلترة، مرورا بباريس جوهرة المدن، وعاصمة الفنون، وقد لا تتاح لي فرصة عمر أخرى، أن أشاهد بعض معالمها، وهل هنالك إلا متحف لوفر واحد في هذا الكون؟!..إنها جريمة أن اعبر باريس بالقطار، وربما أن أمر غير بعيد عنه، دون أن أودي حق زيارته.. سوف لن اغفر لنفسي ذلك ما حييت. قلت ذلك بحرارة ومضفيا جديّة تامة على الحديث..ثم متسائل:

- ألا تقرني يا أخي ثامر؟

- تمام الإقرار..قالها ضاحكا.

بعد ساعة كنا نسير على احد أرصفة سان جرمان. كان الجو صحوا وقد ذاب الضباب ليخلف ندىً طريا ، متلامعا تحت حزم الشمس، وقد دبت حركة متمهلة على الأرصفة وخرجت موائد وكراسي ليقوم بترتيبها ومسحها ندل المقاهي، النشيطون المتأنقون.. بل هنالك بعض الزبائن ممن كانوا يستمتعون برشف فنجان قهوتهم ساهمين.

- أنا شخصيا، لا علاقة لي بالفن ولا افقه فيه، وما قد يثير دهشتك إنني ورغم وجودي هنا لما يزيد على العام لم أزر اللوفر.. ولكن أنت محظوظ حقا، فهنالك رسام عراقي حالم، قدم في إجازة وأظنه بحاجة ماسة إليك، فالكل منشغل عنه بملاهيهم أو مشاغلهم الخاصة، البعيدة عن الفن طبعا.. لقد قتله الضجر في باريس بعد أن لاقى فشلا ذريعا في كل أحلامه الرومانسية ، وكل أمانيه الموعودة بقصص غرام خالدة مع الحسناوات الفرنسيات...أصارحك الكل يجعل منه موضوع مزاحه في مقهى العراقيين، الذي لا يعرف مكان آخر غيره بعد متاحفه.

وفجأة سألني ثامر:

- كم ستكون مدة بقائك في باريس.

– عليَّ أن أغادر باريس غدا.. ليلا في أقصى الأحوال . فالسفينة التي ستقلني من مرسيليا إلى بيروت تغادر بعد غدٍ مساءً.

– وفق ما سمعت، إن أسبوعا كاملا سوف لن يكون كافيا للتعرف على أقسام اللوفر.

– إن ما يهمني أكثر من أي شيء آخر، هو الاطلاع على أعمال الرسامين الانطباعيين في المتحف.

حين وصلنا بعد تجوال ساعة ، إلى المقهى الذي يلتقي فيه العراقيون، توجه ثامر إلى إحدى الموائد فوق رصيف المقهى وبدأ يعرفني بالثلاثة الجالسين حولها ولم يكن الفنان الذي حدثني عنه ثامر بينهم، إلا الأستاذ فؤاد مدرسنا للرسم في ثانوية الأعظمية والذي كنت أحبه وامنع عنه مشاكسات رفاقي من الطلبة حين يخرج بنا " إلى الطبيعة " في بعض حصص الرسم.

فلاح الجواهري - ١٩٧٤

(المهاجرين)

- هيا بنا أستاذ!!، ادعوك اليوم إلى مقهى في المهاجرين بمناسبة قبولك من جديد في كلية الطب في دمشق .

- وأنا قبلت الدعوة أستاذ جواهري.

لا أزال وأنا في العشرين، لا استطيع اللحاق بخطواته الواسعة، حالي قبل أربعة عشر عاما، وما زلت اعرف متى أسرع في الخطو لأوازيه في المسير، ومتى ادع بيني وبينه مسافة خطوتين ليكون طليقا في عوالمه الخاصة. كما إنني أعي الآن، إن السير في الدروب أو فوق أرصفة الشوارع، بالنسبة له هو للسير فقط وليس للحديث والحوار، ولم أره العمر كله يجاذب أحدا حوارا أثناء مشيه في الشوارع.

انعطفنا إلى اليمين وبانت بناية البرلمان بهندستها القديمة المتواضعة الجميلة.

جرنا الترام وهو يجأر ويهتز ويترنح، متسلقاً منعطفات الشوارع الضيقة المزدحمة بعربات السير وكثرة من السابلة، ممن ينتظر نسمات المساء المعتدلة ليخرج للنزهة، أو التسوق في المخازن التي تحسن زينتها في المساء والليل.

اخترنا مقهى ذا موقع جميل على سفح قاسيون، يشرف على أجزاء كبيرة من المدينة العريقة.

أطلق الوالد آهة نشوى وهو يجيل بصره في الشفق الوردي البنفسجي للأفق والذي اخذ ينعكس على معالم المدينة محيلاً زجاج بعض نوافذها إلى بحيرات متباعدة صغيرة من الألوان البراقة.

- أليست هذه أجمل من مدينة الضباب والضجيج التي كنت مطمورا فيها؟، أأنت مقتنع الآن بعودتك إلى دراستك القديمة التي هربت منها.. الطب؟، أجمل وأقدم المهن التي عرفتها البشرية وأكثرها رحمة وإنسانية.

- القلب وما يهوى، أستاذ! أجبت بابتسامة.

- حضرتك تقصد، الهوى، من الهواء؟! .. قالها بسخرية مرحة..أفندينا، أين الرسم من هذه المهنة العظيمة!!

- الم تختر الفن أنت..أين خلكَ -خلق- * طبيب من شاعر مثلك؟

- أنا لم اختر الشعر، الشعر هو الذي اختارني، بل قل تقمصني كبلاء منزّل دون إرادة مني، الم اقل :

"وعللتُ أطفالي بشرِ تعلةٍ.."، وهل كل شاعر جواهري، أو كل فنان بيكاسو؟!..ثم معقبا بعتاب، "والله حرنا وياك، الناس يحسدوك على دراستك وكليتك العظيمة..شتريد أكثر من هذه؟"

- "أريد رضاك!! وأريد مزاجك ما يتعكر بهل الكَعدة الحلوة بسبب صعلوك صغيّر مثلي..صحتك أستاذ جواهري"

ورفعت كاس (السينالكو) بمرح محييا.

رقت نسائم المهاجرين بعد أن ذابت بهرجة ألوان الغروب بالزرقة الكثيفة المتحدرة، وأضيئت عناقيد ملونة من مصابيح المقهى، وبدأ رواد المقهى يتقاطرون وبينهم صبايا الشام الحسان.. زاد انتعاش الجواهري واعتدلت قامته أكثر وبدأت عيناه تمسح بجذل أسراب القادمات.

حرك كرسيه وأعطى ظهره للسفح، ووجهه لمنحدرات المدينة وزينة أضوائها..مد ساقيه وانتصب جذعه بشموخ،

رافعا هامته وسرحت عيناه بالزرقة العاتمة فوق خط الأفق وبدأ بدندنة خافتة كحادٍ يستعد لمسيرة الركب

..استطاعت أذناي أن تلتقط عبر رنات الحداء الخافت :

" مشييى وخطُ وو.. المششييب.."

.. أدركت انه آن الأوان، لانسحب بهدوء.

عندما عدت من جولة تسكع على المشارف المطلة للمهاجرين على المدينة، والتي بدت في كامل زينتها من الأضواء، كانت قد مضت ساعة ونصف تقريبا، وكان

الجواهري يجلس محاورا بمرح " شوقي بغدادي " ، الشاعر الجميل بكل آفاق هذه الكلمة، وصديق الجواهري المحب.

- أسمعنا يا أستاذ، فقد شاهدتك وأنا أهّم بالدخول إلى المقهى، سارحا في عوالمك التي لا تخفى علي، فتركتك حتى تيقنت، انك عدت إلى عالمنا الأرضي المتواضع.

- لاشيء يذكر لحد الآن..نتف صغيرة، من وحي صباياكم ، اللواتي لا يتواضعن حتى ولا بلحاظهن، على كهل مثلي.. الساحة قد خلت لك يا شوقي!

- " فشر! زين الشباب، أبو فرات!..سمّعنا دخيل سماك..دخيل سما الجواهري! "

وضع الجواهري علبة سجائره أمامه، والتي امتلأ غلافها بكلمات ومقاطع صغيرة متراكبة ومشوشة الخطوط، وقرّب وجهه من شوقي :

- " مـشى وخطُ المشيبِ بمفرقيهِ
وطارَ غرابُ سعدٍ من يديهِ "

" وراحتْ منْ زهاها أمسِ حباً
تقولُ اليوم : وا أسفا عليه "

" رماداً خِلتَّه لولا بقايا
توقدِ جمرتينَ بمقلتيهَ "

" تبدلَ غيرَ رونقهَ ولاحت
تضاريسُ السنين بأخدعيهَ "

" مشى وخطً المشيب به فألوى
بأيكتهِ . . وعاثَ بوجنتيهَ "

"وئيدَ خطىً كأنَ عذابَ جيلً
تخيَّرهً . . فحطَ بمنكبيهَ "

" مشى وخطُ المشيب به فرنّتْ
مناحةُ ثاكليهَ بمسمعيهَ "

قاهرة الجواهري

صعبة مهمتك!.. أيام وأنا أضع خططا وأدبج حوارات وارتب طرقاً للمجابهة وأخرى للدفاع، ثم خططاً للانسحاب الآمن أو بأقل الخسائر المعنوية المعقولة.

..لا عليك حتى وإن كانت النهاية هزيمة شنيعة تنتهي بالفرار من موقع المعركة والاحتماء إلى حين بموقعك البعيد.. لن يكون هنالك بعد آمن ، حتى مسافة بلدان فاصلة لن تكون آمنة تماما.

- "يابيه..اهو دا العنوان في جاردن ستي..انزّل الشنطة يابيه؟ "

اصعد السلالم المرمرية العريضة إلى الطابق الأول..اطرق الباب بهدوء، اعرف أن رنة جرس الباب غالبا ما كانت تفزعه، خصوصا وان الوقت قد يكون مبكرا لصحوته.

تفتح إحدى ظلفات الباب الضخم قليلا..يطل وجهه بابتسامة مرحة سرعان ما تخبو ليحل مكانها تعبير دهشة وملامح استياء مفتعل

- نعم؟.. ما الذي أتى بك؟

- أولا صباح الخير أستاذ، سعيد أنني لم أوقظك من غفوة صباحية، سعيد برؤيتك..

- قل! هيا قل!! ما الذي أتى بك..

- ألن تدعوني للداخل لأستريح قليلا من سفر طويل؟!

- تفضل أفندي، هلا بيك..

تعمدت أن أطيل الوقوف في القاعة الوسيعة الفخمة التأثيث وأنا احمل في يمناي حقيبة السفر قبل أن اسأل

- في أي من الغرف سأضع هذه الحقيبة.

- قبل أن تضعها، خبرني ما الذي أتى بك..

- أضعها في إحدى الغرف أولا، وأستحم من وعثاء السفر، بعدها سأدخل إلى المطبخ لأحضر شايا، ومع قدح الشاي يحلو الحديث أكثر..مشتاق لك والله أستاذ جواهري

بصعوبة كان يداري ابتسامته في محاولة يائسة لإخفائها.

حين خرجت من الحمام، كان أبريق الشاي وأكواب وصحون وعدة إفطار منوعة تحتل مائدة جانبية قريبة من نافذة وسيعة مطلة على حديقة غناء، وكان هو يجلس باسترخاء وسهوم

- لمّ أتعبت نفسك يا والدي؟، لقد كنت أريد أن اهيء أنا إفطارك..كنت على يقين أن هناك من يقوم على خدمتك.

- حين فتحت الباب كنت انتظر أن تكون نعيمة هي القادمة..الشغالة التي تساعد في أمور البيت

- آسف أن أكون قد خيبت املك .." كان الوجه البشوش والابتسامة الريانة عند فتح الباب لها إذاً!! "

- هل اعد لك بيضا مقليا؟

- حسبي كرم ضيافة الاستقبال الفخم المعد ..هذا هو الجواهري الذي اعرفه، دعني أقبلك يا والدي....انحنيت عليه، ودون أن يقدم لي خده قبلته.

تعمد أن يضع ابتسامة تهكم مرحة على وجهه، وهز كفه اليمنى علامة تعجب مفتعلة.

رن جرس الباب فسارع إلى النهوض معدّلا الروب الحريري الذي يرتديه، ونصب قامته وهامته قبل أن يفتح الباب.

- "صباح الخير يا بيه ".

- صباح الخير نعيمة..

- "حقك عليّ، الأتوبيس جه متأخر"..

أنثى في الثلاثينات، قمحية اللون، في فستان مورد يشد قامة ممتلئة بفتحة صدر تكفي لأن تطل منها ربوتان صغيرتان تنفرجان عن بعضهما بأخدود ضيق لا مرأى بيّن لقراره.. شعر داكن معقوص إلى الخلف على هيئة كعكة مرصوصة ينغرز فيها مشط وردي صغير أنيق.

انتبهت إلى وجودي في ركن من أركان الصالة، فاضطربت قليلا قبل أن تبدل أسلوبها في الحركة والحديث

- "العفو يا سيدي، مخدتش بالي..فيه عندك ضيوف يا سيدي.."
- هذا ابني فلاح..دكتور فلاح
- "عوافي يا سيدنا الدكتور..د حنا زارنا النبي، لمه أروح احضّرلكو الفطار..يا خيبتك يا نعيمة، دا انتو عملتو الفطار بأيديكو كمان..يا عيب العيب، مكسوفه منك والله يا سيدي "

كرر الجواهري سؤاله وبصيغ مختلفة أثناء الإفطار وبعده
- " ما الذي أتى بك؟!..ما الذي وراءك؟! "

ولم يتعد الجواب بصيغه المختلفة ومعناه " شوق إليك ولهفتي لرؤيتك..وهل غريب أن اشتاق إلى الجواهري - أبي!! "

في المساء حضر غالي شكري، ويبدو انه كان معتادا على الحضور المتكرر، فقد كانت الكلفة شبه مرفوعة مع الجواهري..

لم يحضر شخص آخر طيلة المساء والى ساعة متأخرة من الليل، حين نهض الجواهري فجأة وبحماس

- هيا بنا يا غالي لنطلع الدكتور على روعة حي سيدنا الحسين في الليالي الرمضانية

كان هنالك مهرجان من الأضواء والفضاء مملوء بسمفونية غريبة هي مزيج من همهمات أحاديث ونداء باعة و مقاطع مبتورة متداخلة لألحان منبعثة من مذاييع المقاهي وأغان وأهازيج وتراتيل قادمة عبر الكواتم الصوتية لأنسجة السرادقات المبثوثة هنا وهناك في الساحة الوسيعة أمام جامع سيدنا الحسين مشعشعة بنشرات خان الخليلي الضوئية المبهرجة الألوان.

كان من الضروري الانحناء والاقتراب بأفواهنا من آذان بعضنا بعضاً لنستطيع أسماع تعليق سريع أو ملاحظة عابرة وكان غالبا ما ينقطع ذلك بعبارة " ما الذي قلته " أو " عفوا لم اسمع ما ذكرت " أو أن يكتفي احدنا بقول " إي نعم " دون أن يعرف لمن كانت موجهة أو حول ماذا.

وفي الغالب كان الجواهري بعيدا عن سماع أي تعليق أو ملاحظة ناهيك عن بعد الإجابة، كان منشغلا بمتابعة العالم الصاخب المتلألئ حوله بعينين يلتمع فيهما بريق الدهشة والفرح وانعكاسات بريق الألوان المنعكس عليها مصحوبا بدمدمة غير مفهومة، قد تقتنص منها عبارة " إش، عجيب..دنيـــــــا! " أو يغيب مع المشاهدة في لجة صمت حذار أن تنتشله منها وإلا سينظر إليك شزرا للحظة ويعود إلى عالمه.

كان الضجيج في داخل سرادق معرض الكتاب الوسيع اقل بكثير مما سمح بتبادل بعض التعليقات حول هذا الكتاب أو ذاك أو سرد حكاية يومية عابرة مرت عن فلان الأديب أو ليلة صاخبة على إحدى العوامات.

- " بالولد والمال والمعمور..

والدم ولو جرت عليه بحور

نفدي تراب البلد

من غادر مسعور "

كان عازف الربابة يطوّح بصوته الخشن من على منصة السرادق، وشارباه الكثان يهتزان بإيقاع سليم مع اللحن البلدي.

- إحنا المصريين أسخياء جدا في التضحيات الضخمة عبر الأغاني والأناشيد

علق غالي شكري وهو يقترب بشفتيه من أذن الجواهري

التفت إليه وبنظرة فيها عتاب وغضب

- هو قليل ما جاد به الناس..قليل من الأنصاف يا رجل، لا تزال عظام آلاف منهم مبعثرة في الصحاري..

كانت الشقة خالية حين عدت من جولة صباحية على كورنيش النيل ومن ثم لأتناول إفطاري في جزيرة الشاي وسط حديقة الحيوانات، التي كنت أعشق الجلوس فيها كلما أتيحت لي الفرصة قبل عشرين عاما تقريبا أثناء مرحلة الدراسية الثانوية في القاهرة.

- " العوافي يا بيه، دا أنا كنت باغسل الصحون في المطبخ وما خاتش بالي لمّا صوت الباب اتفتح..البيه الكبير خرج مع محسن، دا انت تعرفه، الجدع من الأردن،

اللي في الجامعة، دول راحو في مشوار لل"القناطر " ومش راجعين لحد الدنيا ما تليّل..ما رحتش معاهم ليه؟.. "

ثم تواصل صوت نعيمة..

.. " لسه ست سبع ساعات لحد ما يرجعو من مشوارهم .." أتى صوتها هذه المرة من غرفة نومي.

نظرت من مكاني في الصالة.. كانت تتظاهر بتعديل ملاءات سريري.. ستائر غرفة نومي الثقيلة مسدلة.. الغرفة نصف معتمة..

.. بخطوات بطيئة وبضجيج قلبي المتسارع توجهت نحو الغرفة.

حين عدت من جولتي المسائية حول سور الأزبكية و البحث في بسطات الكتب المنثورة حوله، كان الجواهري وحده في شبه العتمة وراء طاولة بإبريق للشاي وكوبين فارغين.

- كانت جولة جميلة..إششش!، الله!! ما أجمل حدائق القناطر!..لم رفضت المجيء معنا؟..لا ادري لمّ لا ترتاح إلى صحبة محسن، انه شاب ذكي ومؤدب وقد ألحّ عليك بالمجيء..اجلب لك كوبا من المطبخ، فقد خرجت بهية،وتعال لأعرف قصتك..

ها، خبرني وبصدق الآن ما السبب الحقيقي لمجيئك.. دعنا من قضية الشوق وحديث العواطف وصارحني!

هل أرسلك أصحاب الشوارب الغليظة التي يرعبون بها الأطفال؟!

تساءل بسخرية موجّها إلي طويلا ابتسامة ماكرة وهو يصب الشاي في الكوب الذي أمامي.

- هل تسخر يا أبي من شوقي إليك؟! أتشك حقا في صدق محبتي لك..أنا فلاح أبو حسن حزام ظهرك!!

- ولا ظهر حزامي! وابتسم ساخرا وهو يقرب وجهه من وجهي محدقا، لا تكن لئيما واجبني بصدق، ثلاثة أيام وأنا أحاول معك أيها اللئيم ولا من فائدة!

- ما هذه المدة إلا ثلاثة أيام من ضيافة الأعراب التقليدية،من ثم بعدها يسالون ضيفهم عن حاجته، وما أظنك ستبخل بها عليّ.

- وها قد انقضت أيام أعرابك الثلاثة.
- هم يسألون ضيفهم بعد وليمة فخمة!.
- اختر نوع الوليمة وحدد مكانها..ما رأيك في سهرة فوق النيل هذا المساء؟

كان المكان الذي اختاره والأجواء المسترخية الحالمة تفك مغاليق أي لسان معقود خصوصا بعد بضعة أقداح من البراندي.

في الطابق الثاني والعشرين من أفخم فنادق القاهرة السابحة فوق تلامع صفحة النيل وأضواء المدينة التي تتلاشى بأفق بعيد ثم تتداخل بصحن السماء المقلوب حيث يتحول غبش الأضواء الضبابي في الحواشي وبتدرج من أحزمة تزداد زرقتها البنفسجية لتتحول إلى زرقة أعماق محيطية منثورة بتلامعات صغيرة لا حصر لها وكأنها انعكاسات أضواء المدينة التي تحتها.

كان البار الخافت الأضواء المنسرح ببضع درجات إلى قاعة المطعم الوسيع البالغ الفخامة ينفتح ويسبح عبر نوافذه الكبيرة في سماء القاهرة الليلي.

لم يكرر الجواهري سؤاله في الفترة غير القصيرة من صمته وهو يمدّ بصره عبر الليل المتلامع المنسكب عبر النوافذ الوسيعة.

- صحتك أستاذ..وصحة صدق محبتي وشوقي، وصحة صبرك معي..لم يكن هينا عليّ أبدا التظاهر باللامبالاة تجاه تحرقك الشديد لمعرفة سبب مجيئي.. لقد كان دورا من أصعب الأدوار عليّ.

تساؤلك وحده يا أبي وبإلحاح، ورفضك تصديقي، إن الزيارة كانت زيارة ابن مشوق لوالده، وأي والد.. انه الجواهري الذي اعبده، هذا التساؤل وحده دليل انك كنت تنتظر شيئا غير شوقي ومحبتي، شيئا تنتظر أن يظهر مني أو من غيري، ولن يكون ذلك مفاجئاً لك أبدا..شيء يردُّ على قلقك..

- أرجوك " طبيبُ "!! لا تتفلسف وهات ما عندك!..إذا صحّ توقعي فأن أصحاب الشوارب الغليظة هم من أرسلوك ورائي..

- أبدا، بل وإنني وجدت صعوبة في القدوم اليك..منع السفر لم يُحل إلا بعد إلحاحي لمقابلة عزت مصطفى، وأنت تعرف انه محب لك ومخلص لذكرى صداقته وزمالته الجامعية للشهيد جعفر..

علت وجهه سحابة غمّ عاتمة وشدّد على الكلمات القصيرة :

- أرجوك فلاح! الله! الله! ما هذا!!..

..بعد عشرات السنين، تظل ذكرى الاسم والحدث الأليم فوق طاقة تحمله.

أشاح بوجهه جانبا وصوّب نظره إلى عتمة السماء.

-أنا آسف يا أبي!..كانت وساطته لا كوزير صحة، ولكن سلطاته الكبيرة الأخرى هي التي فتحت لي باب الخروج والمجيء إليك.. بالطبع ليسوا هم من أرسلوني!

- ما الذي تريده إذا؟ قالها بشيء من التوتر.

- حلمك ولطفك عليّ! إن مدة ضيافة الأعراب لم تنته بعد!.. هذه هي دعوتي وجلستي الخاصة؟!

- حقك علي أبو حسن..قالها بمودّة كبيرة مبتسما.. وعقّبْ :

"صحتك أبو حسن!" وارتفع كأسه قليلا عن سطح المائدة.

- هل يمكنني أن أسألك دون أن تثور عليّ؟

- شرط أن لا تكون استفزازيا..تفضل أفندينا أسألْ!

تعمدت التظاهر بالانشغال بالمشهد الجميل الذي نشرف من مكاننا الشاهق عليه..سرقت نظرة جانبية إليه..كان هو الآخر يتظاهر بالانشغال بأفكاره وبالسيكارة التي يُطرّي تبغها بالدق الرتيب لعقبها على سطح المنضدة.. أطلق تنهيدة مسموعة، أعقبها بصوت تعدّى حدود مائدتنا :

- إيه دنيا!!

..نظرت إليه بإمعان.. " أية مهمة صعبة وضعتها على كتفيك..هل تظل أحمق بالتصدي.. ولمن التصدي..!

..أية ثورة عارمة وأي غضب سينزلان عليك من جرائه!؟..وهذه الجلسة الرائعة التي لم تحظ قبل بمثلها معه في أي مكان، هل ستحيلها إلى غمٍّ ونكد..أنت دائما تبحث عن متاعب تغرق فيها..اترك أي موضوع واستمتع بهذه الصحبة الرقيقة..أقضِ أسبوعين أو ثلاثة في القاهرة التي تعشقان واترك الباقي للقدر والظروف، فكم من موقف غريب وحرج اجتازه وحوّل نكسته إلى انتصار..دع عنك عنتريات مثالياتك الخائبة..اسلم بنفسك!..إسلم!.. "

- هل تتصور انه هو الوقت والموقف المناسب لقرار بقائك في القاهرة؟!

استمرّ في شروده فترة غير قصيرة وبصره يتجه صوب العتمه المتلألئة..لم يُدر وجهه إلي..ّ

- وهل هنالك وقت وموقف معين كي يعيش الإنسان ويستمتع بالدنيا..أنا في "أم الدنيا"، قاهرة الحضارة، قاهرة التاريخ، قاهرة الأدب، قاهرة الجمال والمتع المثيرة..ألستَ أنت نفسك الآن وفي الأيام القليلة الفائتة كنت ذلك المنبهر بكل أجوائها..أنسيت انك أحرقت البيت بتمردك قبل حوالي عشرين عاما حين أعدناك منها، من حلوان؟! أعدناك خوفا عليك من التظاهرات والمواقف (التخشيبات) ثم حريق القاهرة ،الم تجعل البيت، ولفترة غير قليلة جحيما وكنت تتهمنا بالقسوة والاضطهاد لأننا أعدناك ..كل ذلك وأنت ابن الرابعة عشرة، مطالع حياتك، وأمامك دروب الحياة، والعمر، والمستقبل.. تأتي الآن لتحاسبني! أنا الجواهري! أنا ابن السبعين!؟.. أنا الهارب من أحقاد أصدقائك البعثيين أصحاب النفوس والشوارب الغليظة النتنة.. تحاسبني على اختياري بلداً حضاريا آمنا أحبه ويبادل محبتي حفاوة وتكريما..

اخذ انفعاله يتزايد وصوته يرتفع، وكان يتململ في جلسته بغضب ويدير أصابع كفه اليمنى الطويلة بشكل متوافق منسجم مع كلماته وهدير صوته ,وكأنه مايسترو ينسق بين حركة عصاه وآلات العزف أمامه.

- حاشا لله أأنا من يحاسب الجواهري!؟..ومن له حق حسابك !؟..لا تسئ إلي يا أبي، لستُ على هذا القدر من الحماقة. معذرة يا أبي إن كنت قد تجاوزت حدودي وسيكون عربون اعتذاري أنني أنا من سيدعوك الآن إلى الكأس التالي..سأتركك إلى الاستمتاع برقصة سهير التي ستبدأ بعد لحظات.

هو ينام في الغرفة المجاورة، وآنا أتظاهر بالنوم في غرفتي التي تفتح نعيمة بابها بضجة بين الحين والآخر، بحجة أو بأخرى.. أراقبها مرعوبا بعين نصف مغمضة، وهي تحوم كقطة في آوان طمثها..حمدا لله ها قد صحا قبلي.

اسمع همساً

اسمع حركته في الصالة المجاورة، صوت مقاعد تتحرك

- أيه دنيــــــــا!

نهضت من رقدتي.

..كان جالساً وراء الطاولة الصغيرة مع معدات القهوة الصباحية..انحنيت عليه وقبلت خده دون أن يبدي أية حركة أو تتبدل تعابير وجهه كثيرا.

- صباح الخير أستاذ

قبلته.

- هل اصب لك فنجان قهوة معي؟

أتت نعيمة بصحف الصباح.

صفحة كاملة من جريدة الأهرام خصصت للجواهري..كان عنوان المقالة " آخر العمالقة ".

قرأت الصفحة بإمعان..كان تقييما فخما لمسيرته الشعرية الطويلة ومواقفه، إطراء لا حدود لجماله..تكريما طُرّز بمحبة بشواهد من شعره ومواقفه..كان مقالا لم اقرأ لأي أديب أو ناقد عراقي مثيلا له عن الجواهري .

نهضت بفرح وطبعت قبلة جديدة أكثر دفئا على خده..ابتسم ونصب من رأسه.

- "تاليها وياك أبو حسن!!"

- هذه قبلة صاحب هذه المقالة الجميلة..

مددت يدي بالصحيفة إليه..

حضر غالي شكري بعد ساعة من إفطارنا، ملوّحا بيده بنفس الصحيفة.

أدار مفتاح التلفزيون..

كان هنالك وصف لمحاكمات (علي صبري) وصحبة آخرين لعبد الناصر..

تبدل تدريجيا صفاء وجه الجواهري، حلّت مكانه غيمة عبوس قاتمة..أشار عليّ بأن أغلق التلفزيون.

..تناول غالي معنا الغداء ..

-" الواحد ما بينكرش الحاجات الايجابية اللي بيعملها الريس.."

-....

- " وهو اللي شافوه الناس في زمان عبد الناصر الله يرحمه مُشْ قُليّل. "

-.. ..

استمرت نتف التعليق من غالي على هذه الشاكلة بين حين وآخر لفترة غير قصيرة، كان الجواهري يقابل أكثرها بالصمت أو يعلّق نتفاً..

- يعني!.. جائز..احتمال!..ربما..أهذا ما تراه أنت!..يمكن..

في المساء كانت جولتنا من جديد في حواري الموسكي، واخترنا مقهى في زاوية زقاق غير بعيد عن ساحة سيدنا الحسين المبهرجة بالأضواء والزينات والناس.

كان الجواهري ساهما وكأن هذا العالم الاحتفالي حوله والذي يعشقه بعيد عنه،على الرغم من محاولات غالي لتحفيزه للمشاركة في هذا الموضوع أو ذاك.

.بعد فترة مشدودة من الصمت :

- أستاذ جواهري، ألا ترى أن دكتورنا العزيز لا يبادلني مود ّتي.. ولنقل بشكل أكثر صراحة لا يحبني .. " ولّه إيه يا سي فلاح ؟ ".

لا أجيب.. قابلت نظراته المتسائلة بمرح و بابتسامة كليلة.

- الست محقا يا أستاذنا الجواهري؟

عاد من سهومه شبه مرغم وبابتسامة مجاملة ونظرة لا تخلو من سخرية

- لمّ لا تجيب يا دكتور؟!

- أنا احترم الأستاذ غالي كمثقف معروف له مواقفه السابقة في النضال المصري في زمن الراحل عبد الناصر..

بادر غالي معترضا ً :

- السابقة!..وليست الحالية، أهذا ما تعنيه يا فلاح؟.

- لا اعرف مواقفك الجديدة في الوقت الراهن.. غير تلك التي تتعلق بترغيبك المستمر للجواهري في البقاء فيما تدعوه بالعهد الجديد، عهد محاكمات رفاق عبد الناصر وعهد " حلف المخالب والأنياب " ، وفق الخطاب الذي مُجّدت فيه المشانق المنصوبة في السودان. ألا ترى يا أستاذي الفاضل هذه العزلة المضروبة على

الجواهري..ولنقل بصراحة أكثر، هذا النبذ من كل المثقفين والكتاب الديمقراطيين المصريين بمن فيهم اخلص أصدقائه ومحبيه..إنني لم أر في فترة وجودي معه هنا إطلالة أي واحد منهم.. حتى ولا زيارة مجاملة قصيرة لا غير.

- الله!! الله! ما هذا يا فلاح !.. لعلك تنوي أن تقلب الجلسة إلى نكد!

- معذرة ، حقك عليّ..ثم معقبا بمرح..ألا ترى أن أستاذنا غالي هو البادي بهذا النكد. سأعدل الأمزجة سأدعوكم إلى مهلبية فاخرة بالفستق.

قمنا بالجولة المعهودة في السرادق الكبير لمعرض الكتاب وفي الأزقة الجانبية حيث يقل الزحام..

..كان الجواهري في معظم الجولة يتقدمنا صامتا ساهما..غالي يحتضن ذراعي بمودّة بين الحين والآخر وكأنه يقول للجواهري " والله يا سيدي أنا بحب الراجل ده ".

في الشقة وعلى غير عادته أوى إلى فراشه مبكرا حتى دون أن يقول عبارته المعهودة " تصبح على خير دكتورنا العزيز "

في الجولة الصباحية المبكرة التي اعتدتها وسط القاهرة الغافية اصابيح رمضان وقفت مع الحشد الكبير من الناس، وبينهم عدد كبير من العجائز والمسنين الأنيقين والمرتدين ملابسهم بعجالة واضحة، وآخرين بالأرواب بل وحتى ببيجامات النوم..

- عملوها الصهاينة أولاد الكلب!

-" دا عمل الموساد..والله دا الموساد!

- دي مصيبة !..دي نكسة!!"

- والله واحترقت يا حبيبة..

..خليط من الهمهمات، نداءات مبحوحة، شتائم غاضبة أصوات متعبة شاكية، حشرجات باكية، ولولات مختلطة بمفردات مكسرة غامضة.

..كان اللهب الضاري والدخان الأسود الكثيف ورشقات المياه المندفعة من خراطيم سيارات المطافئ ، وبقايا جدران منهارة هو كل ما حل مكان دار الأوبرا..دار الأمجاد الفنية.

على طرف من الحشد اللاعن، الناقم، الصارخ، وقف آخرون، أنهكتهم سنون زادها

الحدث، بجمود التماثيل على أرصفة الشوارع المقابلة، تنحدر بين قنوات غضون وجوههم المتعبة الذاهلة سيول دمع صامت.

فتحت الباب بحذر شديد وحزين .

..ادري انه يعشق إغفاءة الصباح الخالية من الأشباح والكوابيس.. توجهت إلى المطبخ، أشاغل نفسي فيه بإعداد بطيء لإفطارنا المشترك..كنت قد عرفت أن نعيمة لن تحضر هذا الصباح..ولا أي صباح آخر..

كان مزاجه حين صحا رائقا .. اعرف ذلك من وضعية ومكان جلوسه رغم صمته وسهومه أثناء ارتشافه فنجان قهوته.

لم أشأ تعكير جوه الرائق بأخبار حريق دار الأوبرا..لن أكون طالع شؤمه هذا اليوم.. سيعرف ذلك من الصحف الصباحية التي ستصلنا بعد ساعة.

حضر غالي..أعددت له فنجان قهوته التي يحبها " على الريحة "

..كان موضوع حريق الأوبرا محور الحديث في البداية، تلاه صمت قصير.

..الجواهري ينفصل عن المائدة ليجلس غير بعيد مسترخيا على إحدى الكنبات.

..لم تدم دندنته المنغمة الخافتة طويلا.. عاد ليجلس معنا..انه مزمع على شيء.

– أستاذ غالي، دعنا مما قاله فلاح أمس، لكن ألا ترى أن عدم حضور أي من الرفقة القديمة شيء مستغرب حقا ؟!

– أنت تعرف هذه الأجواء الجديدة..الناس لم تعتدها بعد.

– يعني لم تعتدْ الأجواء؟ أو لم تعتد وجودي في هذه الأجواء؟!..

– "يمكن خايفه".." دا انت بتخوّف يا أستاذ "

سارعت إلى انتهاز الفرصة..

– هو الخوف إذا..أهذا هو العهد الجديد الذي تتغنى به بألف موّال أستاذ غالي أمام الجواهري؟!..

عجبي لم أنت الوحيد الذي لا تتخوف من هذه الأجواء ؟! بل وأكثر من هذا، فأنت المرافق الأوحد هنا في جاردن سيتي، ومعه في جولاته أمام الملأ الأعظم في كل أحياء القاهرة ..محبتك تفوق المخاطر يا غالي؟!.. أم تكليفا خاصا من العهد الجديد..؟!

- " دنتَ زوّدت العيارْ حبتين.." ، ما رأيك يا أخي، إنني أنا نفسي اعدّ العدة للمغادرة، هنالك عرض صحفي لي للعمل في لبنان..

قفزت من مكاني واقفا وتوجهت بالحديث وبصوت منفعل وعالٍ

- انظر! أنظر أستاذ جواهري!..يتغنى بألف موال أمامك بأمجاد العهد الجديد ويجعل من أجوائها جناتك المثلى للبقاء في أحضانها..وهو؟! هو يهرب!.. الأستاذ غالي يعد العدة بحذر وخفية للهرب إلى لبنان..يترك جناته الجديدة لك وحدك..

أدار وجهه الذي بدت عليه نذر عاصفة خطرة صوبي وقال بلهجة آمرة محذرة.

- "الله!! الله! كافي فلاح..الله!"

..تناول علبة سجائره من على المنضدة وهو ينهض.. هز رأسه وهو يزورني ببصره متحاشيا النظر إلى غالي، أدار كفه اليمنى المشرعة الأصابع..توجه بخطى واسعة وسريعة صوب الشرفة..

..صمت متوتر في الصالة الوسيعة.

سمعت من على الشرفة حسرة طويلة أعقبتها

- " إيه دنيــــــا ".

بعد أيام قلائل غادر الجواهري القاهرة، شاكراً حسن الضيافة وحفاوة الترحيب متوجها إلى مقره، شبه الدائم والحبيب آنذاك براغ الساحرة، ليعود بعد عدة أسابيع فيرأس الوفد العراقي لاتحاد الأدباء المشارك في أعمال اتحاد الأدباء العرب المنعقد في دمشق، ثم يعود بعدها إلى دجلته في انتظار إرغامه من جديد على مغادرة إجبارية أخرى.

خدمة!، بخدمة!

القرنة ملتقى النهرين - ١٩٧٠-
حميد سعيد ممسكا ذراع الجواهري، الذي يمسك بدوره ذراع أم نجاح

كنت أمام فوانيس الرقوق الشعاعية أجيل النظر في حل طلاسم ظلال وخطوط أعماق صدر مريض يرقد في إحدى ردهات مستشفى الكندي الكئيبة وعلى الطاولة المعدنية الصدئة ترقد عشرات الرزم لرقوق مرضى آخرين تنتظر دورها لتعلق على صناديق الفحص المضيئة.

الغرفة- وهو- تعبير مجازي لما كان زاوية لأدوات تنظيف أرضيات المستشفى الكبير، فهنا كانت تتكدس مكانس وجرادل وماسحات ومساحيق وأكياس بلاستكية وقناني مطهرات وخرق مسح والعديد من علب حبيبات قتل الفئران والتي قامت المستشفى - مشكورة - بإفراغها من كل ذلك، لتحيلها من بين عشرات الغرف الفارهة لأطبائها، لتكون غرفة فحص الطبيب الجديد، الجواهري طبيبها الاختصاصي الوحيد في الأشعة التشخيصية .

ويا لسعادتي بهذا المكان المنزوي عن أنظار ثلة المخبرين و مسؤولي الأمن والزملاء من مستقبلي وجاهات الرفاق والمسؤولين، فغرفتي لا تحتفي بهم لا لأن الغرفة لا تتسع لهم ولمرافقيهم - حتى وإن وقوفا -، ولكنها وهو الأهم، لا تليق بمقاماتهم. غير أن رقوق فحوصهم كانت تأتي برسول خاص من الإدارة أو من أماكن انتظارهم في غرف أطباء تليق بمقاماتهم.

...الانزواء سعادة حتى في جحر ضيق.!! ولكم أن تسألوا بطل الجحر الشهير لو كان لديكم أي شك في ذلك!

لسعادتي - الأصح لجذلي - سبب آخر...

كان هذا المستشفى وجحر فئرانه ، مكان عملي هناك، هو المطهَر من جحيم عصام الراوي ومحرقته...محرقة الطب الذري أو مجازا معهده.

... لم يكن عبوري إلى ذلك الشاطئ الآمن دون قارب...

- تلفون!! دكتور.

بالطبع لا حاجة لسؤال مُعين قسم الأشعة عن مكان الهاتف، فهو على طاولة مسؤول أمنها الفخمة.

- ومن على الخط؟

- رئيس تحرير جريدة الثورة...حميد سعيد.

حين قدمت إلى غرفة امن الأشعة، وهو رئيس مصوريها أيضا، أخلى لي مكانه وراء طاولته الفارهة لا احتراما لي فحسب، ولكن للذي يطلبني وراء الخط.

- صباح الخير دكتور...كيف حال أبي الزهراء؟

- أهلا بابي بادية ...صباح الخير. كيف أنت؟

- لدي عندك طلب أرجو تلبيته...لا أريد تذكيرك! ولكن خدمة بخدمة يا فلاح!

عجبا ما هي هذه (الخدمة) التي يطلبها حميد سعيد رئيس تحرير جريدة السلطة -الثورة -، منصة العبور الوسيعة للوزارات.

- لن أنسى تلك الخدمة والأصح يا أبا بادية لن أنسى ذلك الفضل ما حييت...قل! ولك ما باستطاعتي.

- التلفون ليس هو المكان المناسب لهذا الطلب ...ما رأيك بفنجان قهوة في مكتبي بالجريدة...هل الساعة الرابعة وقت مناسب قبل ذهابك إلى عيادتك؟

- مناسب...سأكون عندك في الرابعة.

...كيف أنسى يا أبا بادية تلك الخدمة ، لقد كنتَ أنت قارب النجاة لي في العبور من جحيم عصام ومحرقته الرهيبة... محرقة الطب الذري.

(لجحيم عصام الراوي في قصر النهاية ومحرقة الطب الذري وللعبور منه إلى المطهر حلقة خاصة)

* * *

كانت معرفتي بحميد سعيد ترجع إلى عام سبعة وستين.

...كنا نحن مجموعة (فنون) ، صحيفتنا الأسبوعية التي ولدت وامتد عمرها لعددين اثنين، وخنقت وماتت في مخاض عددها الثالث ، في زاوية إحدى المطابع المسكينة في احد فروع شارع المتنبي بعد أن شرب الشاعر الحصيري مسؤول حسابات الصحيفة رحمه الله، شرب وحتى الغيبوبة أجور طباعة العدد المحتضر .

كنا نلتقي بشكل شبه منتظم في مقهى الزهاوي لنتدارس شؤون الصحيفة ومراجعة محتويات العدد المهيأ للنشر.

كانت مجموعة فنون هذه، أو ما يحب أن يسميه ماهود بتجمع الإنسان، تضم حسب الشيخ جعفر وماهود احمد وأنا وعبد الأمير الحصيري وممول العدد الأول وراعيه، السخي بكل ما ملكت يمناه ويسراه وجيوبه، عصام البصام، والذي كنا وما زلنا نعترف تكفيرا، إننا تناهبنا مكتبته الأدبية العامرة، والمشرعة أبوابها أمامنا، دون رحمة.

.. لمشروع فنون وجماعتها صفحات قادمة أخرى

عند تأخر أو غياب حسب ، كنت أقوم بتفقده في تلك الغرفة البائسة من احد الأزقة خلف جامع الحيدرخانة، و التي يعطر جدرانها البول، وأكثر زواياها عطرا ما كان تحت شعار أزقة بغداد الأكثر شهرة : هنا...البول للحمير .

في تلك الغرفة الرطبة نصف المظلمة والتي لا تجد فيها إلا سريرين حديديين عصمليين وأغطية نصف ممزقة ومتسخة وبضع أوانٍ لم يصل دورها في الغسيل بعد، وأقداح شاي فارغة، وحقائب مفتوحة لملابس تُرتدى على عجل، وأكداسا من

الكتب... مجاميع تحتل العديد من زوايا أرضية الغرفة العارية وفسحة ما تحت السريرين، و سترة بدلة "حسب" السوداء المعلقة - بأناة - بمسمار فوق جدار الحائط المتهري والذي تَحول الصحيفة التي ثبتها حسب عليه، من وصول رطوبته وأتربته إلى نصف البدلة العزيزة تلك، أما النصف الثاني منها أي البنطال فهو دائما، ونتيجة لخبرة سنين طويلة خلت، يستقر تحت متراس السرير كأحدث وسيلة عصرية ومجانية للكي .

في إحدى تلك الزيارات ، كان هناك شريك الغرفة الثاني ، شاب وسيم الوجه تكسوه حمرة خجل دائم - في تلك الأزمنة السحيقة -، يجلس مطرقا بحزن وذهول واستغراب على حافة السرير الحديدي الثاني... صامت صمت سليمان في اغلب الأوقات ...كان ذلك الشخص المطرق، الخجول، المستغرب، الصموت، هو حميد سعيد.

متخفيا كان... أو شبه ذلك، عن أنظار السلطة بين عتمات ذلك الزقاق الهرم من حارات بغداد.

مع تكرار زياراتي لحسب، والتي كانت تصخب بأحاديث مرحة ومشاريع وذكريات عن رفقة حميمة في موسكو ومغامرات صيد غرامية كان اغلبها يمنى بالفشل الذريع والمكلف، ومجاعات مؤقتة تصحبها هجومات مفاجئة على ما يخفيه احدنا من شاي وسكر وزيت في دواليبنا عن أنظار الآخر، وصداقات أشخاص أسطوريين كانت لنا بهم علاقات فوضوية ولا أكثر أسطورية وفوضوية من الشاعرالسوداني المبدع الراحل الجيلي عبد الرحمن ولا ارق واشف من الشاعر المرهف (تاج السر الحسن)، ناهيك عن ملك الغجر دون منازع - آنذاك - الفنان بالفطرة من اخمصه لحد انفه الأعقف الطويل، ماهود احمد و منظّر المجموعة الماركسي الفنان احمد النعمان .

- هل تذكر يا حسب حين نصبناك آنا والجيلي وماهود وأحمد في مقهى الشباب بموسكو أميرا لشعراء الهور والجاموس والقصب؟!

وحين رسمناك عاريا ممسكا بشموخ صولجان القصب الفاره وعلى رأسك تاجك المجدول من البردي والحلفاء؟!

لم تتبدل إطراقة حميد ولا ذهوله الحزين ولا صمته في ذلك الصخب المرح من الذكريات إلا في لحظات قليلة معدودة وبعد أن يستدرجه رفيق غرفته إلى ذلك بإصرار مرن .

* * *

..ونفذت مؤامرة انقلاب جديدة، واتى البعث ببراقع خادعة وحلّت جبهة (الحُليّ) كما كان يسميها الجواهري ممازحا أصدقاءه من قادة الشيوعيين واليساريين، في إشارة إلى بيت شعر خليع قديم يؤرخ ميلاد ابنة احد المعممين الحليين والتي اسماها الشيخ (جبهة)...

"وانتـــــــــضى القـــــــــومُ (. . . . .) حين حلـّ
ــــــتْ جـــــبـــــــهـــــــةُ الحلي ً َ ، أرّخْ!! زنارَها "

دعت (جبهـةُ الحُلي) الجواهري للعودة، ودعمنا أنا وأميرة هذه العودة في نداء تلفوني حار إلى مكان إقامته في براغ.

...عاد الجواهري ، ونزل و أم نجاح وظلال في الدار التي استأجرتها لهم في (داوودي المنصور) وهو من الأحياء الجميلة في بغداد.

عاد ولم " يرح اخو الطير ركابه " ، وما نفعت مناشدته لنفسه لا حداءً غنائيا ولا إلقاءً عاصفا مكررا : " أَرِحْ ركابكَ " في تحقيق ذلك.

(...لعودة (غريب الدار) صفحات ، ستأتي لاحقا)

* * *

كان تردد حميد من داره القريبة إلى دارنا غير قليل، ولا موعد محدد لذلك التردد الذي كثيرا ما يكون في الاماسي، حين يفيق الجواهري من قيلولته ليجلس في صالة الضيوف وحيدا في اغلب الأوقات إن لم يزره أنبل واصدق صحبه ، أبو نوال، مهدي المخزومي، طيب الله ثراه ، فلم يكن قد بدأ الترحيب الرسمي الصاخب بالجواهري بعد، ولم يحن بعد تذكر محبيه الكثر، من انه موجود على مبعدة أشبار من بيوتهم .

كانت زيارات حميد تتسم بالأدب والاحترام الجم وتقابل دائما من الوالد بمسحة عطف أبوي.

...كنت أرافق الجواهري في المرات القليلة التي رد بها بعضا من هذه الزيارات.

وهنا اكتشفت حميدا آخر...حميدا كثير الابتسام ، كثير التحاور، كثير الثقة كثير النشاط والحركة.

وتكرر لقائي بحميد في ظروف عديدة كان معظمها مع الجواهري ...باحتفال به... حول موضوع يخصه، أو كلمة اطلب نشرها دفاعا عنه حين يُستفرد بجبن بالشاعر المغترب أبداً، بمقولة أو مقالة سب رخيصة .

.. يستفرد به ودوما تحت حماية سلطوية وأيا كان موقع وزمان تلك السلطة.

.. هجوم هؤلاء(الغيارى) يهوش به دائما عن بعد آمن!

ما الذي يريده حميد!؟...ما هي (الخدمة) التي يقدمها مستضعف مثلي يؤدي واجباته حتى الإعياء، في زاوية الجرذان تلك من مستشفى عتيق نصف مهمل؟!...وأية خدمة تستعصي على من يشير، حتى ولو من على مبعدة، بإصبعه فيستجاب؟!...وما هو الموضوع الذي لا يكفي الحديث التلفوني لتبيانه ولا حتى الإشارة إليه؟!...لا اعتقد أن نباهته تخونه في أن يكرر ما عجز عنه الآخرون في الإقناع والاستمالة، وبالتهديد المبطن أو حتى العلني أحيانا ، عند فشل الأسلوبين الأولين؟!

...حقا سيكون موقفا استغلاليا بشعا لقاء(خدمة) اتسمت بالتفهم وحب المساعدة لإخراج صديق قديم من محنته...لا، لا اعتقد ذلك...على كل سنرى ما تخبئه الساعة القادمة.

...ساعتي تشير إلى الثالثة.

***

في الساعة الرابعة كنت قد وصلت إلى أبنية جريدة الثورة...الحرص على المواعيد عادة تأصلت منذ مطالع الشباب ولكن لم يكن الحرص على المواعيد وحده هو الذي كان دافعي في ذلك هذه المرة... الفضول والقلق هو سيد الدوافع ذلك المساء..

." ما هي (الخدمة) التي يريدها رأس هذه الوزارة الهامة في السلطة : جريدة الثورة...ولكن أليس هو الصديق ذاته الذي توده!...ما هذه الخشية غير المبررة!...ألم يخلصك من عذابات ذلك السادي مدير تلك المحرقة الرهيبة، معهد "الهولوكوست" للطب الذري ؟!... خدمة بـ خدمة، إذاً فهي مشروطة!!...ولكنه لم يضع شرطا حين نفذ ما كان يخشى تنفيذه وزير الصحة آنذاك...حين وصف الوزير المذكور بالـ " خواف "،

ورفع سماعة التلفون ليتصل بوكيل الوزير، صديق حميد الحميم ويطلب منه بحرارة أن يوقع أمر النقل الذي يتحاشى الوزير توقيعه خشية انتقام آمر معسكر (بوخي نفالت) الذري عصام الراوي...

ووُقع الطلب وانتقلت إلى زاوية الفئران الآمنة في مستشفى الكندي ، ولم تمض إلا أشهر معدودة ويُرمى بالوكيل خارج الوزارة، ليعين طبيبا في مستوصف بائس في مدينة نائية... الشرقاط ، منفى كبار البعثيين حين تحل بهم لعنة الحزب فيقبعون سعداء، إذ أنهم يدركون إن المسافة بين قرار الحكم بالنفي إلى هذه المدينة أو حبل المشنقة إن هو إلا شعرة القدر ."

ها قد اجتزت الآن الساحة المؤدية إلى الباب الرئيسي...تصاعد الوجيب في صدري.

"... السبعينات...مهرجان المربد في البصرة ...وليمة للجواهري في داري.. أنت يا حميد معهم بالطبع وسعدي يوسف ومحمد الفيتوري وعبد الرزاق عبد الواحد وحشد آخر من الأدباء الشباب.

.. تقع أنت في غرام لوحة (البادية) وتطلبها بوجه محمر شوقا وخمرا...أعدك بها ، حالما اقضي وطري منها، فهي جارية حلوة جديدة على (حرمي وحريمي)..."

" لكنك أنت الآن يا حميد مسؤول كبير.. رأس في الزعامات!! لست ذاك الخجول الصموت الذي عرفته في معية (حسب) في تلك الغرفة البسيطة المنزوية في احد أزقة (الحيدرخانة) العطنة...أنت على شاطئ آخر بعده قد تناءى عني .

.. ما هي (الخدمة!!) يا ترى؟!..."

" قل لي مثلا : " تعال على كوب شاي على رواق مثلا بدلاً من رجائي لـ(خدمة!!) كنت بذلك ستخلصني من عذاب جحيم القلق هذا! "

"...وفي مربد آخر...الجواهري ولميعة عباس عمارة وعبد الرزاق عبد الواحد وعلي الحلي ... ومجموعة بين جالس وواقف يرقبون الجواهري وهو يمازح لميعة بغزله...أو يغازلها بمزاحه...

لميعة ترد ممازحاته الغزلية فتذوب غنجاً .

- " يا ابن السبعين!! ما راح أتوب!! "

- وراكِ وراكِ يا أجمل (أم أربعة وأربعين).

يضحك الجمع ويتكاثر الحشد حول الجواهري ولميعة...أرقبك من مكاني من مجموعة الشباب الواقفين..."

تجلس أنت والبياتي منفرد ين ضجرين غير بعيدين عن الحشد.

- مرحبا أبا علي ، مرحبا أبا بادية...هيا بنا

- إلى أين يا فلاح؟...يتساءل البياتي.

- جولة في خمارات البصرة وأزقتها بعيدا عن أجواء العشاء الرسمية في فندق (شط العرب)

...ينظر البياتي إلى حميد مبتسما ومنتظرا استجابته للدعوة.

وكانت جلسة في خمارة مكتظة من الدرجة الثالثة على كورنيش شط العرب يمتزج فيها غناء السكارى برائحة العرق المستكي، بقطع متكسرة من صوت أم كلثوم آتية من مذياع الخمارة، بنداءات عالية تطلب المزيد من أرباع وانصاص البطحات وقناني البيرة، إلى الندل بمرايلهم المتسخة وصحونهم وأقداحهم الدائرة فوق رؤوس الزبائن الذين يشكلون بتجمعاتهم حول موائدهم جزرا مستقلة ذات عوالم متنوعة في ذلك البحر الصاخب الملفوف بضباب كثيف من دخان السجائر.البياتي يتأقلم مع العوالم هذه أسرع من حميد...يساعد في ذلك العرق المستكي، الذي تُخرق الأعراف العريقة لهذا المكان إن طلبت شيئا غيره.

سرعان ما سرى الدفء والحياة في جزيرتنا الصغيرة فأعلنت استقلالها سريعا وأضحت كيانا جديدا إضافيا في عوالم الخمارة المتنوع ."

...اجتزت الاستعلامات...اسمي مدون لديهم . هو في الانتظار.

"- لم يبق عشاء في الكازينو!!...الساعة الآن تقارب الواحدة. يجيب النادل. كان المفروض أن تطلبوا عشاءكم قبل ساعتين على الأقل.

- أحسن!! كان جوابي.

في زقاق صغير نصف مظلم، خلف ملهى في شارع الوطني، كنا نجلس على صفائح فارغة قرب بائع (التكة) والأكباد المشوية (الفشافيش) نأكل بلذة السكارى ما يعدّه ويقدمه لنا أسياخا بعد أسياخ....تلاها إبريق شاي (مخصوص لضيوف البصرة) اعدّ ه البائع.

- هل تعرف إن معرفتي بفلاح تعود إلى دمشق عام ستة وخمسين...، ثم موسكو فالقاهرة بعدها. إني أحبه أكثر من أبيه

- ولكن أما ترى يا أبا علي إن من الصعب أن تحب جزءا من كل، والكل هو "أبوه! ".. الجواهري لا غيره! .

- قد تعجبني بوابة عتيقة أثرية في عمارة كاملة.

- أوافقك تماما الجواهري عمارة ضخمة فيها الكثير من التفاصيل الجميلة . بوابتك الأثرية تلك التي تحب، جزء سهل الرصد لكل عابر. تمعّن! ارصد! ادرس كما يدرس المعمار لا المشاهد المستطرق، در حول هذه العمارة...ادخلها تمعن في بنائها، أركانها، زواياها الخفية، ريازتها قد تجد أجزاء كثيرة غير الباب الأثري العتيق..هذا شرط أن تتوفر الرغبة لمثل هذه المشاهدة المتعمقة. .. مع ذلك أشكرك يا أبا عليّ على هذه المحبة، رغم إني لست بابا عتيقا بعد.

..حميد صامت..."

..اصعد السلالم المرمرية العريضة المؤدية إلى الدور الثاني.

"...لقائي الأخير به كان وديا قبل ما يقرب العام، وفي نفس هذا المكتب الذي أتوجه إليه الآن... كنت احمل (البادية) ، اللوحة التي اغرم بها حميد من أول نظرة، والتي ورغم أني لم "اقض وطري منها" بعد، غير أنها محظية موعودة لحميد منذ زمن، وقد حان آنذاك أوان إيفاء ذلك الوعد،..خصوصا وان إيفاء الوعد متزامن بطلب ."

"... كنت اعرف انك كنت وراء مقال غالي شكري المسموم عن احتفاء المغرب بالجواهري....قصدتك لنشر رد كتبته على هذا المقال تمشيا مع (حرية النشر) ، فانا اعرف مَرافق الجواهري هذا في السبعينات ، ذلك الذي كان يدور حوله موسوسا ، أثناء حضوره حفل التأبين لمرور سنة على رحيل جمال عبد الناصر ، قبل خمسة عشر عاما ، واعرف تماما من الذي وراء الزج بتلك الرفقة الاجبارية.

.. كنت شاهدا ومشاركا للكثير من حواراتها ، فقد حضرت إلى القاهرة على عجل لإفشال مؤامرة غالي ومن وراءه على الجواهري... ونجحت في مسعايُ.

رفضت يا حميد نشر الرد - الجواهري كان بعيدا كالعادة حين يهاجم - وكنت أتوقع ذلك، وكانت حجتك انه ليس من الصحيح توسيع هذا الموضوع... ووضعت صفحات الرد في احد أدراج مكتبك. "

أنا الآن في فسحة الدور الثاني وارى القطعة النحاسية الأنيقة (رئيس التحرير).. أتمهل قليلا قبل دخولي إلى بيت الأحاجي ...

.. " أي خدمة يريدها رئيس الثورة؟!! الصحيفة - المنصة..موقع العبور لوزارة البعث "

* * *

الغرفة الفارهة بنوافذها الواسعة العارية عن الستائر والتي يغمر النور كل زاوية منها ، لا تزال هي هي مثل ما كانت قبل عام، بعيد ة عن الشبه بغرف الوزراء والمديرين العامين و رؤساء المراكز المهمة، تلك الغرف المصمتة المعزولة عن كل ما يمت إلى مظاهر العالم المحيط بها وأنفاسه.

لا يزال أثاثها بسيطا جدا ، مع وفر من أجهزة تلقّي المعلومات وآخر الإنباء ، وأجهزة الفاكس والطابعات...يمكنك أن تستشف نسائم قليلة من عطورالحبر والورق المنبعثة من فوضى القصاصات والصحف و لفائف الأوراق في مشروع طباعتها الأولية، المنثورة دون تنسيق فوق المكتب الواسع الذي يجلس وراءه حميد وفوق بعض المقاعد وطاولات الأجهزة.

...تهدا أعصابي المتوترة قليلا.

- أهلاً...أهلاً فلاح ينهض حميد من وراء مكتبه ويغادره متقدما للترحيب بي

- أهلا بك أبا بادية.

- بشرني كيف هي أوضاعك في مستشفاك الجديد...هل أنت مرتاح فيه الآن.

- تكفيني نعمة الخلاص من "الهولوكوست"... والفضل لك.

يرن جرس احد الهواتف العديدة المنثورة فوق المكتب ويعود حميد إلى مكانه خلفه...يختصر المكالمة

وينهيها رافعا سماعة تلفون آخر:

- لا أريد اتصالات هاتفية أخرى...قدر المستطاع " يبدو انه يخاطب سكرتيرة مكتبه...ها قد أتينا على الجد فيما يبدو...رحمتك يا إلهي!! "

- ما الذي تشربه؟

- شكرا لقد تناولت شاي المساء قبل قدومي إليك.

يسهم حميد للحظة ثم يبدأ بالبحث في أدراج مكتبه...يخرج كتابا أنيقا اقرأ عنوانه أثناء كتابته إهداءً، طفولة ماء :

- مجموعتي الشعرية الجديدة!!

- شكرا! أقولها مبتسما وأنا اقرأ إهداءه.

- كيف حال الوالد؟

- بخير والحمد لله على اتصال تلفوني دائم به. "...لم اتصل به خلال شهر تقريبا"

- هل سيلبي دعوتنا...دعوة اتحاد الأدباء لحضور مؤتمر الأدباء العرب الذي سينعقد في الشهر القادم هنا في بغداد.

- لا اعتقد ذلك...أتصور إنكم استلمتم برقيته الجوابية على دعوتكم ..." لا تسمح صحتي بذلك"!

- نعم استلمناها...

وضع كوعيه على المكتب واسند وجهه، الممدود تجاهي، على راحتيه

- وهنا أريد يا فلاح مساعدتك بهذا الأمر. قال ذلك ناثرا ابتسامته الواسعة عليّ.

- هل كان هذا ما قصدت بكلمة خدمة هذا الصباح في ندائك التلفوني إليّ؟!!

- نعم واكبر خدمة!!... ألم أخلصك مما اسميته بـ "الهولوكوست" ...أريد وساطتك لدى الجواهري ، و أنا اعرف قيمتها لديه...وساطتك أنت لا غيرك!!... "اعرف من هو المقصود بكلمة غيرك" .

...اعتبرها لطف صديق لصديق يا فلاح!!.

استمر في ابتسامته العريضة وتحديقة عينيه المتسائلتين في رجاء

"..مهمة عسيرة!..اعرف كافة تفاصيل الملابسات المحيطة بالدعوة..يتصورني و في الغالب، جاهلا بما تم في الأسابيع الثلاثة الماضية..الفضل لصديقي الصحفي الشاعر صادق الجلاد..أخبار ما يجري في اتحاد الأدباء لدي.

..أين أنت يا أبا فريدة في هذه الإضافة الجديدة في الأحداث في طلب الخدمة أعجيب هذا، لعلك كنت عوني عليها!.."

بدأت مظاهر التعب تغزو الابتسامة، وأنا أبادل التحديقة بأخرى.. لابد وان تحديقتي كانت بليدة أو خالية من أي تعبير يستدل به

..ها قد ذبلت أخيرا ابتسامة حميد بعد أن امتدت برهة الصمت.

..بدأ يشاغل نفسه بالبحث دون هدف في الأوراق المنثورة أمامه..رفع بصره تجاهي من جديد وبابتسامة متعبة :

- هه! ما رأيك؟

- برقية " لا تسمح صحتي بذلك " لم تكن هي برقية الجواهري الأولى التي يتسلمها اتحاد الأدباء..أليس كذلك يا أبا بادية؟.

- نعم. هذا صحيح.

- الم تسبقها قبل ثلاثة أسابيع برقيته " إن سمحت صحتي بذلك "، وكانت هي رده الأول على دعوة الاتحاد ؟.

- أراك مطلع على الكثير..قالها حميد بابتسامة لا تحمل الكثير من التساؤل.

- بل وأكثر من هذا!..لا تنس أن الجواهري أبي.. ما الذي تعنيه لك كلمات البرقية الأولى تلك؟ عبارتي الأخيرة المتسائلة خرجت بانفعال وحرارة عفويين.

– تعني لي، إن الجواهري متردد في تلبية الدعوة لحضور المؤتمر. قالها حميد دون إبطاء أو تردد.

– الأصح من ذلك، إن الشوق إلى بغداد بدأ يحفر من جديد ثغرة في جدار غربة الشيخ ..ليس المؤتمر هو الغاية، وخصوصا اتحاد الأدباء العرب وبتلك الوجوه الكثيرة المنتقاة ، والتي همها الأول في مثل هذه المؤامرات ..عفوا المؤتمرات النيل من الجواهري.

– ما الذي أمات هذه الرغبة عند الوالد في تصورك؟ وجه حميد سؤاله هذا متشاغلا بأوراق مكتبه.

– أنت يا أبا بادية.

– أنا ؟!.. قالها ببراءة ودهشة.

– نعم أنت للأسف الشديد..قلت ذلك بأسى صادق، و واصلت عتابي :

آه لو كنت تعلم مدى فرحتي بالبرقية الأولى، فأنا اعرف مزاجاته.. " إن سَمحتْ صحتي.." تعني أن هنالك احتمالا جديا لقدومه، وربما أنت تعلم كم أمضني الشوق لرؤيته. ومع هذا الأمل في قدومه بدأت في إعداد كل ما يوفر له الراحة والمزاج الرائق لمثل هذه الزيارة. أردت أن اجعل منها نزهة الشوق لمزمن الغربة ذاك.

– وأنا مشتاق لرؤيته أيضا ، واعرف انك تثق باني صادق فيما أقول .

تمهلت قليلا متذكرا لقاءاتي الأولى بحميد ولقاءاته الأولى بالجواهري بعيد عودته من الغربة والمصحوبة بالفرح والمودة الصادقين.

– كنت أثق بذلك قبل قرابة العشرين عاما ، لكن زيارتك الأخيرة والوفد الإعلامي إلى أوربا ، إعدادا لهذا المؤتمر المزمع أثبتت العكس. فمع علمك بما تعنيه برقيته " إن سمحت صحتي بذلك " ، تصرفتَ كمن يريد قطع الطريق على أي احتمال لحضور الجواهري.. لقد زرت أنت والآخرون كل الأماكن، وقابلتم كل من هب ودب صغيرا كان أو اكبر من صغير، وتعمدت والوفد برئاستك، أن لا تشمل الجولة براغ، وبالطبع من هو في براغ. و حين علم الجواهري بالجولة تلك، تحولت " إن سمحت صحتي بذلكْ " في برقيتة الأولى إلى " لا تسمح صحتي بذلكُ " في الثانية.

– صدقني يا فلاح لم تكن زيارة الوفد الإعلامي تلك مخططة لهذا الغرض..

"..اعرف يا صاحبي أمثال هذه الزيارات..لقاءات في العلن والخفاء..نثر وعود ومغريات.. فتح أبواب مشاريع.. إصدار صحف ونشرات محلية عربية في أوربا، شرقيها وغربيها.. تأسيس مكاتب لوكالات صحفية وإعلامية يطبل لها كثيرا، ويتم تسليمها حتى لأكثر الناس إقفاراً وبعداً عن عالم الصحافة والإعلام.. "

..ثم كانت زيارتنا لايطاليا وفرنسا..

.."..غاليريات ومعارض لكل فنان متعاون..جوائز عالمية وهمية تمنح بميداليات ذهبية و فضية، الفائزون الوحيدون فيها عراقيون، و بالطبع مخلصون لمآثر السلام الدائر رحاه على البوابة الشرقية..ندوات ومؤتمرات وتجمعات في القصة والشعر وكلها تشيد بروعة القادسية الثانية وأبعادها الإنسانية ودور القائد الضرورة في إسناد وتوطيد أمجاد امة العرب من المحيط إلى الخليج.."

..ولم يكن مرورنا بلندن وفينا ضمن خطة معدة من قبل..

.."..وبالرغم من محطاتكم في الإسناد والدعم الثابتة في أوروبا، من سفارات وممثليات، ومجلات حكومية سخية تصدر في عواصم تلك البلدان، كنتم مثقلين بهدايا السيد الرئيس – حفظه الله –، تلك الظروف السمينة التي تسلم يداً بيد، وذلك خارج إطار ما يودع لهم في الحسابات الخاصة سراً وبشكل دوري منتظم.."

..وكان دورنا كما ترى..

.."..نعم لقد تكلل دوركم بنجاح لا مثيل له.. لقد اشتريتم صوت الكثيرين.. وصمت الأكثر الآخر "

– وها أنت تدرك الآن يا فلاح، أن الجولة الأوربية كانت عفوية ومستعجلة..

.."..ما الذي يبغيه متنعم بالأمان والحرية والضمان في أوروبا، ليبيع صوت الضمير..وكيف يغلف مبدع عطاء روحه في ساحات الحقيقة والعدل بعباءة سميكة من

الصمت المقرر..صمت عن مآسي الذين لم يفلتوا مثلهم من عذابات السجن الكبير، ممن ينتظر دوره في التصفية الجسدية.

..للقول ثمن..وللصمت ثمن..العذابات وحدها مجانية وبلا أصداء.."

.. أولا وأخيرا لم يكن هنالك تنسيق مسبق وجدولة لاماكن تنقلاتنا..ربما كان هذا احد الأخطاء.

أنهى حميد شرحه للجولة الأوروبية التي لم يصل إلى انتباهي منها إلا قطع متناثرة.

* * *

- ما المطلوب مني بالتحديد.

- لنفترض أن هنالك خطأ غير مقصود مع الوالد..نريد إصلاح هذا الخطأ.

"..يبدو أن هنالك فركة آذان.. خبر الرفض وصل إلى أسماع شيخ المشايخ! "

- شيء جيد.. أصلحه إذاً!

- نحاول!.. لقد تم الإعداد لوفد يتوجه إلى الوالد خلال أيام لدعوته إلى المؤتمر.

- شيء جيد أيضا.إلى الآن لا اعرف ما هو دوري أنا..ما هي (الخدمة) التي تريدها مني بالتحديد.

مشددا على كلمة (الخدمة).

- أن تتصل بالوالد تليفونيا و تستخدم تأثيرك وإقناعك في لين المقابلة.

" كأنك تخطط يا حميد من جديد على تأكيد الرفض.. "

- لا أرى ضرورة للاتصال التلفوني ..المفاجأة أكثر تأثيرا واليك الصورة :

..يصل الوفد إلى براغ..يفتح الجواهري باب الشقة التي يطرقها..يفاجأ.. ينظر باستغراب.. تبدو على وجهه علامات غضب..يهز رأسه بعصبية وهو يطيل التحديق في القادمين بصمت متوتر...يطلق " نعم؟! " متسائلا.

..يبتسم القادمون، وتبدأ أناشيد شوقهم لرؤيته، على الأقل صادقة من احدهم، ممن يوده الجواهري، والذي يُختار بحرص ليكون في معية الوفد.

..يسأل القادمون الجواهري إن كان سيترك ضيوفه المتعبين مصلوبين على الباب..
..يهز الجواهري رأسه ويعدل طاقيته ويتراجع برهة أمام هجومهم .
..يجلس الصحب في الصالة الوحيدة الصغيرة ويتصرفون وكأنهم لم يفارقوه إلا من بضعة أيام..يصمت الجواهري مقطبا.
..هم يتحدثون ويمازحونه بحذر.
..ينفجر غضب الجواهري ويدمدم ويرعد.
..ينهض من مكانه ليشير بكفه المفروشة الأصابع كالشبكة.. يشير إلى كل فرد منهم.
..يقطع الصالة الصغيرة رواحا ومجيئا وهو يواصل الدمدمة والإرعاد.
..يتواصل الاعتذار من الجبهة القادمة.. من أقربهم إليه من الضيوف.. الجبهة القادمة الغازية هم ضيوفه الآن.
. يتحول الغضب العارم المرعد إلى عتاب قاسٍ.
..يطالب احدهم بكاس بيرة " بلزن " فهو عطشان.
.. وأنت تعرف الباقي.

سيقوم الجواهري بإعداد الكؤوس والمزات وتظهر على وجهه معالم ابتسامة خفية، فحتى حديث الغضب والعتاب أكثر أنسا من مرارة ساعات وحدة الشيخ في برد الشتاء الأظلم.

ابتسم حميد :

– صورة تفصيلية أبدعتها يا فلاح وغير بعيدة عما كان ليحصل، ولكن مع ذلك فالحذر واجب أيضا..هل اطلب كثيرا إن رجوتك مكالمته وإبلاغه بقدوم الوفد!

– أتصور انك مخطئ بمحاولة التمهيد هذه... إن كنت مصراً فسأقوم بهذه المهمة.. من هم أعضاء الوفد المزمع إرساله؟

– لم يحسم الاختيار بعد..أنت من تقترح؟

– سؤال مجاملة، مشكور عليها بالطبع..لكني أتصور أن وجود علي الحلي معهم سيكون صمام أمان، فالجواهري يحبه ولا اعتقد أن هنالك اعتراضاً من أية جهة على انضمامه إلى الوفد.

بدأ حميد يبحث بين أوراق مبعثرة على الطاولة..علائم وجهه تبحث عن شيء آخر خارج الطاولة..

" ما الذي تريده الآن يا حميد؟.. قل! لا تعذبني! أنا منتظر ..أرجوك لا تفاجئني بشيء آخر!.. للآن الأمور ليست سيئة كما حسبت .."

– ما رأيك أن تكلمه من مكتبي الآن.

.." تريد الآن حصري في الزاوية! "

– أعدك إني سأتصل به من الدار حالما أعود.

– لا شك عندي في ذلك. لكن الخطوط التلفونية غير مضمونة الاتصال في هذه الأيام ونحن هنا لدينا تسهيلات خاصة في الجريدة..رقم التلفون عندي لقد استحصلته من فرات..

لا اسأله لمَ أنا إذاً.

أخذ حميد يطلب من بدالة الجريدة خطاً خاصاً.

..بدأ يدوّر الأرقام..

.. " مع الوالد! ومنفردا في الدار!، احسب خمسين حسابا للحديث عبر هذه الآلة الباردة الميتة..إنها تجمّد كل عواطفي.. افقد حريتي معها.. تضيع كل الكلمات المعدّة بإمعان ومراجعة حين أتحدث تليفونيا مع من أحب ..فكيف وأنا أتحدث مع الجواهري.

..أتصرف بحرية كبيرة وبلهفة في حديثي معه بجلساتنا العائلية الموسعة في اغلب الأحيان، وبأقل من ذلك بقليل في جلسة منفردة معه، ولكن بعد أن استكشف سلامة العرين قبل اقتحامه، ومزاج الليث الرابض وموقعه في ذلك العرين، ذلك المكان الواحد المختار و المحدد دائماً لجلوسه، و في أي زاوية من البيت كان له مكانه الخاص الذي لا يتبدل.

..هنا مكانه!!..لا يتجاسر احد من العائلة على شغله مادام موجودا..بل و حتى في غيابه أحيانا.

..في مثل هذه الغيبات المتكررة، اجلس قريبا من احد أمكنته تلك، فأراه حاضراً جسدا وروحاً وحديثاً، ابتسامة ساخرة كانت أو تقطيبة همٍّ عظيم.

..كل هموم الجواهري عظيمة حتى اقلها شأنا..وكلها غالبا ما يتجاوزها بلحظة حاسمة لا توقيت لها، ومع تنفيسته الصعداء و عبارته " إيه دُنيا !! " والتي يرجع صداها لمن في الدار، ناهضا بعدها عن مربضه ، نافضا كل همومه.."

"..لقد أوقعتني في ورطة يا صديقي..وكيف لك أن تقدر حجم هذا المأزق، فأنت لست أنا، وجواهريَّ الذي تريدني أن أخاطب أمامك بهذه الآلة الباردة ،غير جواهريك.
..ألف جواهري لألف محب!! وللألف الكاره جواهري واحد. "

يعاود حميد الكرّة في تدوير أرقام الهاتف وللمرة الثانية يفشل في محاولة الاتصال ببراغ.

– يبدو أن هنالك بعض الصعوبات في الخطوط الخارجية . يقولها وهو منهمك في إعادة المحاولة.

استغل أنا الفرصة وانهض على عجل قبل إفلات لحظة الفرج تلك.

– طيب أبا بادية، سأحاول أنا الاتصال لاحقا من الدار ، واعدك إني سأحاول قدر المستطاع مع الوالد.

– وعد؟!

– وعد!.. سأتصل وأحاول.

في اليوم التالي أبلغت بأن الوفد قد تشكل، وان علي الحلي من بين أعضائه، وأن طائرتهم ستقلع ظهر يوم الخميس القادم، أي بعد أربعة أيام.

بعد أعادات متكررة لجمل متراكبة، وكلمات متقاطعة، و تخيل مسرحي لحوارات تتبدل صيغها في ذهني وفق ما سأفلح في قوله، وما سأجاب عليه، ومع إعداد الكثير من السيناريوهات البديلة وفق احتمالات الردود المتوقعة، أقدمت على رفع سماعة التلفون ودوّرت قرص الأرقام وانا نصف سارح.

– ألو..ألو..يصلني صوته وفي رناته معالم توتر وملل.

..تتبخر كل الحوارات والسيناريوهات.

- كيف حالك يا أبي؟

- من؟..فلاح ! ..أهلاً..أهلاً

- إنشاء الله أنت بخير؟

- بكلٍ تَداوَينا..إي نعم بكلٍ تَداوَينا.

- كنا في انتظار قدومك في نهاية الشهر بعد برقيتك " لو سمحت صحتي بذلك " - تجاهلتُ معرفتي ببرقيته الثانية -.. بل لقد رتبت لك كل ما يعطيك إجازة حلوة للأيام التي ستقضيها معنا في بغداد.

- لا تنتظر! ودعهم ينتظرون طويلا..لقد أرسلت لهم اعتذاري عن الحضور. قال ذلك بلهجة واضحة الاستياء .

"..مع ذلك، دعني أغامر بمواصلة حذرة. "

- لقد بدأت اتصالاتي في محاولة استئجار دار دجلة..دار الجعيفر..دار القصائد كما تسميها..مالكة الدار الآن سيدة عجوز، تستخدمها كبيت نزهة واستجمام، وما زالت محاولاتي جارية لإقناعها.

- لا تحاول!..لن تعيد الماضي يا ابني.. وأنا لن أعود!. وشدد على العبارة الأخيرة.

" أنت في ورطة يا فلاح..لا منفذ ولا ثغرة في جدار الرفض هذا.. لقد سقطت كل السيناريوهات المعدّة... وهل بقي منها شيء أتذكره الآن! "

- كيف براغ التي تعشق.

- غادةٌ باردة تتمنع بشتائها على شتاء عمري.

- أنت ربيع دائم..لابد وانك منشغل عنها بشيء آخر..غادة أخرى ربما؟!

- منشغل نعم ..قل مرهق بالانشغال في كتابة الجمهرة..لقد بدأت جمهرة الشعراء تستهلك بصري.

- ليتني معك فأساعدك في التدوين.. لا يُسمح لطبيب بالسفر من العراق. أرجوك لا تستهن بعينيك.

- لم يبق إلا القليل فقد أنجزت معظمها..كيف حالك أنت؟.

.." لابد أن ادخل في الموضوع بروية دون أن اسبب له أي نوع من الإزعاج.."

- أنا بخير..هناك من يرغب في القدوم لرؤيتك.

-..ما هذه التقدمة يا فلاح.." يرغب"!.." القدوم لرؤيتك "! قال ذلك بسخرية قاسية..لا تتصنع المقدمات وخبرني من هو القادم ولماذا ؟.

- وفد من محبيك في اتحاد الأدباء يرغب في زيارتك.

- هل تريد إزعاجي يا فلاح..لا محبين لديّ في بيت العقارب، هذا الذي تسميه اتحاد أدباء.

- حتى لو كان علي الحلي هو الراغب في زيارتك؟

- ما دام يمثلهم فلا أريده..اكرر..لا أريد أن أقابل أحدا..هل فهمت أم أعيد..لا أريد..

بدأ صوته يتعالى ويرتجف غضبا..اعتصر الألم صدري فشهقت واختنق صوتي وأنا أحاول أن أهدئ انفعاله المفاجئ :

- أرجـــوك خلص!..خلص!..أهدأ الله يخليك! الله يخليك! أنا غلطان..لا تريدهم؟!..يلعن والديهم! فقط لا تنزعج أرجوك!..عذري أنني مشتاق لرؤيتك حتى وإن في زيارة عابرة، حتى ولو كان ذلك عن طريقهم..أرجوك أنا آسف.

..وبدأ صوتي يتهدج وأنا اكرر..يلعن والديهم!..أنا آسف..أنا آسف.

بدأ هو الآن يحاول تهدئتي بصوت لم يبق في نبراته إلا الأسى.

- لا لوم عليك..لست أنت المخطئ، رسالة كُلفت أنت بتبليغها.. وشوقك أشاركه..اسمع يا أبا حسن!

وبدأ صوته يأخذ طابعا جادا مرة أخرى

..أعِدْ لهم جواب رسالتهم وبلّغهم!..لا أريد أن أرى أحدا منهم!.. لا أريد..

وعادت نبرة الغضب وإن بدرجة اخف فأكملت أنا عبارته

- لا تريد رؤية أيٍّ منهم. سٍأبلغ الجواب، فقط ليكن مزاجك رائقا! وليذهبوا إلى سقر، وحقك علي!!

- إن لم تبلغهم فسأبلغْ أنا السفارة هنا بذلك..أتسمعني؟!

لم يكتف الجواهري بتبليغي لهم فقد طلب من أخي نجاح والمقيم في منطقة أخرى

من براغ للقدوم إلى شقته وعلى الفور، ليحمله رسالة إلى السفير العراقي يبلغه فيها عدم استعداده لاستقبال أي وفد من بغداد.

كان الوفد قد اعد نفسه للسفر رغم هذا الرفض.

..في صبيحة يوم الخميس وقبيل إقلاع الطائرة إلى براغ بساعات قليلة تمّ إبلاغ أعضاء الوفد ,ومن اعلي الجهات المتنفذة بإلغاء الزيارة.

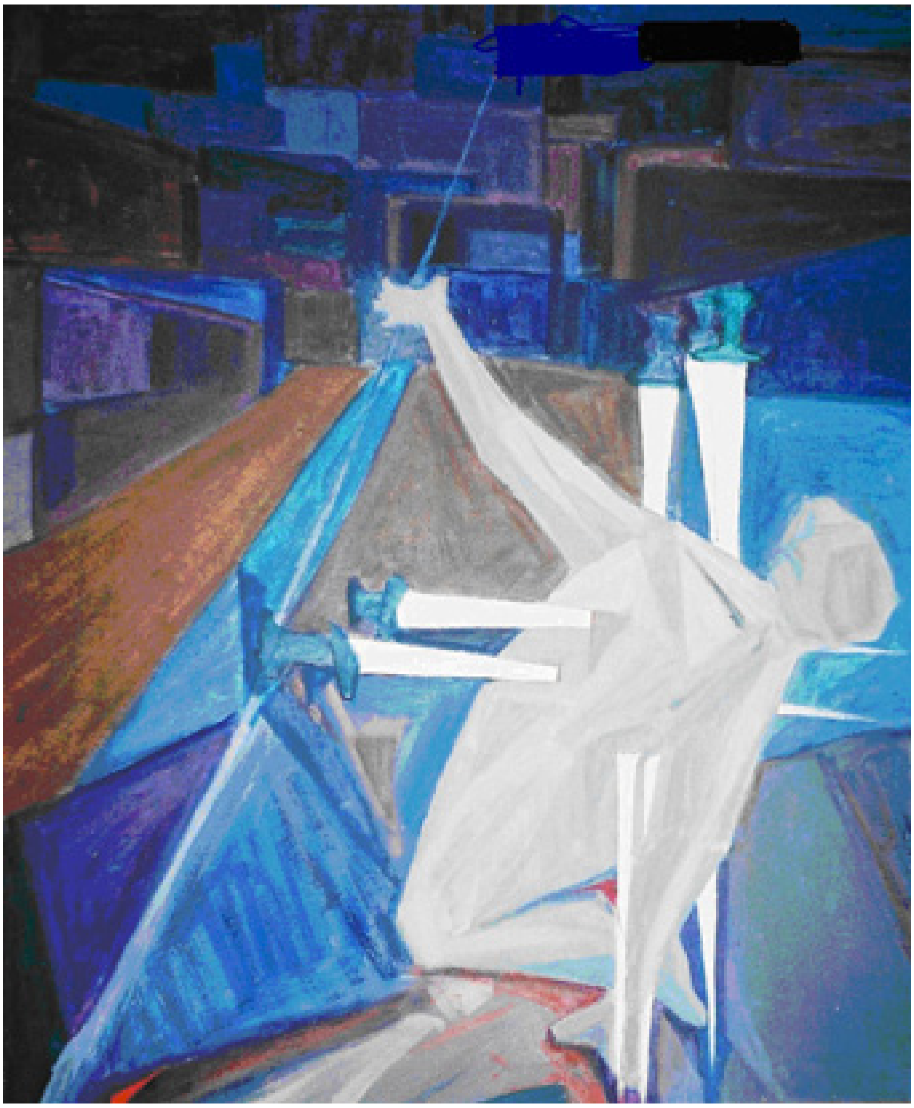

الرايات السوداء..اربعون عاما وما يزال الزحف مستمرا

فلاح الجواهري ٢٠٠٧

".. يا رمز المعالي "

افلت حامد من الباب المشرع إلى الزقاق بملابسه الداخلية وبغترته البيضاء وعقاله الأسود..رفع عقاله وكوفيته بيده اليمنى وأخذ يقفز، دائراً نصف دورة، تارةً إلى اليمين وأخرى إلى الشمال وهو يدبك هازجاً:

" مأمونة دار السيد! "

" محروسة دار السيد "

" دار السيد منهوبة "

" دار السيد مسلوبة "

ها ها ها ، إخوتي

" دار السيد منكوبة "

" و دار السيد !! "

كرر حامد المقاطع دابكاً هازجاً وهو يهزّ عقاله وغترته عالياً فوق رأسه حتى اختفى عند زاوية الزقاق.

.. ما هي إلا لحظات و ستخرج هُدى فارعة الرأس، هارعة إلى نهاية الزقاق تصرخ بلوعة " حامد وينك يا خيي ِ يا حامد..كَطيعة تكَطعني..يا أهل الرحم ما احد شاف ها المسكين؟ "

..تخرج هدى فارعة الرأس جاحظة العينين صارخة " وينك....."

.. قادتني متكئا على ذراعها وأجلستني برفق قرب إفريز السطح لأتشمّس أرقب وأسمع متراخيا ما يدور في الزقاق من على كرسيي في السطح .

..رتّبتْ دثاري.

. يكاد يتكرر مشهد الأمس نفسه..لا أجد انفعالا مميزا نحوه..

ساقاه متراخيتان، لا إحساس بوجود حوضه الذي يتكوم فوق غطاء كرسيه.. نصف جذعه العلوي عجيزة نخل متعفنة خاوية .. طعم صدئ يملأ فمه.. لسانه قطعة خشب ثقيلة متيبسة.. عيناه ثقيلتان جافتان تنظران بكلل إلى مساحة رؤية أمامية محدودة.. طبقة شمعية تغلف جلده..كثيفة طبقة الشمع تلك فوق وجهه وجبينه..شعره قطعة غريّن ثقيل متيبّس..

..يتدحرج أمامي مكعب من الصور المقطّعة..

..مكعبات ومخاريط ولفائف اسطوانية ملونة تعوم في صندوق عظمي أجوف مملوء برنين هلامي..أصداء معدنية رتيبة مكررة.

.. شريط مقطّع لصور متراكبة تتبدل أجزاء تراكيبها فتصنع مقاطع جديدة، يلتصق هذا المقطع بمقطع سابق أو بمقاطع لاحقة، يومض بعضها برقا ويختفي، مخلفاً خطوط شحنات تفريغ مشرشبة على خلفيات صور زرقاء ورمادية وحمراء وفضاءات لا لون أو حدود لها.

.. مكعبات ملونة لأحداث وحكايات وأقوال مرصوفة تتراكب بهيئات هرمية تتعالى وتنفرط متدحرجة.

..لا أستطيع متابعتها..لا رغبة بلمّ أجزائها من جديد.

يختفي الهرم..تترامى على السطح الأجوف بعض من مكعباته بأشرطتها المصوّرة.

..أصداء سقوطها يحدث ضجيجا مكتوما..

يزداد إعياؤه..يتدارك فوضاه..يهرب منها بالتحديق المركز بمساحة الرؤية الأمامية المحدودة..

مثلثات وحلزونيات وأشرطة مشرشبة وخطوط متقطعة قواعدها عند حافات السطوح..رسمت بحبر اسود مخفف على صفحة واجهات البيوت.. فوهات فارغة في الجدران المحبّرة.. شبابيك عوراء ببقايا ثلم زجاج محطم..أبواب مخلوعة متشققة أعيدت فسد ّت بعض مداخلها.

يتدحرج أمامي من جديد مكعب آخر منفرشا أمام شاشة الوعي :

وجوه مسوّدة تدبّ كسولة ضجرة في شوارع شبه مقفرة لها رنين صمت حزين يتجاوب صداه بين أعين المارة أو أولئك الواقفين بملل وكآبة قرب الأبواب أو وراء الشبابيك المحطمة تزوغ أبصارهم في العدم.

– يوم تسوّد وجوه.. " الله لا ينطيك بحق هاي الغيمة السودة..شوفي أم فاروق شوفي شلون اظلمّت الدنيا..هاي غيمة لو غضب اسود ".

– " والله أم احمد من يوم غيمة الجراد الصفرة والغيمة الحمرة اللي خنكَتنا بالرمل الأحمر من خمسين سنة ما شفنا مثل ها الشي. يومها أذّنت كل المآذن، وبدت قراءة التسابيح والأدعية ليوم القيامة..وأمي المقعدة تصرخ من غرفتها " هذي علائم ظهور صاحب الزمان..بعد عيني صاحب الزمان ".

– " والله وما يصدقه العقل..مطر اسود..مطر اسود لطخ كل البيوت..صخام يُمه!، هذا مو مطر..شوفي!! شوفي! تلطّخ صبغ بيتنا الجديد..وبيتكم وبيت أم هاشم.. "

– " هذي عمايل مضروب الكلوة أبو " أم المعارك " ، حرائق نفط الكويت وصل دخّانها لبيوتنا..هذي صارت " أم المصاخم ".." أم الملاطم "

– " بالله ستري علينا أم فاروق يروح يسمعنا احد! "

– " الكل تشتم علني وبكل مكان..شنو اللي بقى ينخاف عليه.. احمد وأخذته " القادسية .. بوابة القائد الشرجية "، ومحمود لليوم لا حس ولا خبر من بداية الانسحاب المظفر . وشوفي هذا جارك أستاذ حامد اخو المسكينة هدى، مدرس محترم تجنن من يوم هزيمة البطل المنصور .. وهاي هالتشوفين طبكَت عند حامد، خبال تمام.. يمه ما تحمل الكل يموتون..يحتركَون وتاكلهم الجلاب وهذا باقي.. "

يختنق برغبة عارمة بالبكاء..لايطاوعه كيانه المخذول الواهن ولا مآقيه المتيبسة.. أهي الكآبة التي تخذله أم هي برشامات الكآبة التي يحضرها جاره طبيب النفسية.

.. ينحني عليّ بوجه فأر كبير ذي شارب هتلري.. تنطّ حدقتاه الوسيعتان عبر زجاج عويناته الثخينة فتسقط متدحرجة على وجهي..أحاول إزاحتهما بكفيّ.

..لا سبيل لإزاحتهما .

..يزيح الفأر ذو العوينات بصره يسارا.. تسقط الحدقتان وقد تدحرجتا يمينا .. يقترب بفمه الفاغر وأسنانه الصفراء من وجهي..تهب رائحة عطنة :

- ستفيدك هذه البرشامات..سيزول هذا الكسل والخمول واللاابالية بعد حين

.. يغافله بين الكلمات ويلقي ابتسامات مبهمة وتتدحرج حدقتاه إلى زوجته الشابة.

يخرج الفأر الهتلري ويسحب حدقتيه معه.

- ساعديني على النهوض رجاءً..إلى الحمام!

- لمَ ألقيت البرشامات في المرحاض؟

- لا أريد أن أصبح مدمن أفيون..لا أثق بهذا الجار الفأر

يواصل التحديق في حقل رؤيته، الواجهات وبوابة بيت هدى وحامد أمامه.. تسري قشعريرة برد فيحكم إزاره حوله بكلل..تعبر فوق السطح بقع ضوء من شمس مسافرة عبر غيوم بيضاء..يتابع انتقالها إلى سطح بيت هدى ثم تسلقها جدار بيت الراوي .

يجهد..يلملم كل بقايا حطام إرادته، يحاول البكاء.. يعز البكاء.

.. لا بكاء !، اصرخ إذاً! اصرخ بأعلى صوتك!!

أصرخ في العراء ..

..تخرج الصرخة فحيحا رتيبا ثقيلا، لا تتعدى الفم المتراخي المفتوح فتنزلق.

..تسقط الصرخةُ في بئرٍ

دوّامة الصمت متاهاتٌ.

..لا رنةَ للصوتِ .

عبثا يبحث عبر البصرِ المخذول عن ذاته

..على أرضية السطحِ .

.. يشد قواه، يعيد البصر في رسومات السخام المذاب على واجهات البيوت المتصدعة أمامه.

يستعيد مكعباته ومخاريطه الملونة ..يحاول أن يركب منها هرما .
..تنفرط المكعبات وتتدحرج..

شاحنات عتيقة متربة تحمل أسمالا ممزقة لملابس داخلية قذرة وضعت فوق هياكل بشرية متراصة، ضامرة، معفرّة، تائهة الأبصار.

..تقف الشاحنة..تتساقط الأشباح المهلهلة نصف العارية فوق أرضية الشارع الأنيق.

..ينفرط الحشد فرادى ومثاني ومجاميع صغيرة تطرق الأبواب وتصرخ .."ميّ!، كسرة خبز!، سِتر! ستر! يا أهل الرَحَمْ الله يستركم!!..هدِمة زايدة!، نَعل عتيق!!..ستِر ستِر!!" الله يستركم أهل البيت.

يتكرر المشهد بعد ساعات ، و في اليوم الذي يليه.

.. في الأيام التالية، تقل أعداد فلول الجيش الغازي المنكسر، فلول المهانة ، تقل الشاحنات وأسراب المتسولين العرايا .

..يفلت حامد من سجنه من جديد بسرواله الداخلي ..يمشي بجدية وحزن في الزقاق..يلطم صدره العاري بكفيه ثم ينزل ضربات قوية بقبضة يده فوق رأسه :

" طوطو حيدر!..طوطو حيدر!..طو طو طو طووو، حيدر! "..يختفي من الزقاق.

تخرج هدى حافية القدمين "..وينك يا مسكين..يا..."

يزيح تراكيب مكعباته واسطوانات صوره الهرمية فتنفرط مبتعدة..لا يجد أثرا لها فوق أرضية السطح.

" وأنتَ لـ سبيت أهلِ البلدْ "

.." عجبْ أنتَ لـ ما تِنسبي "

يحاول مرات ومرات..يَخرج الصوت أخيرا كشخير حزين مكتوم.

ينشط بصره فتتسع مساحة الرؤية، ينجح بلف رأسه إلى حدود بيت الشيخ

(مسعد) عن يساره والى حدود سطح (العبيدي) عن يمينه..يستند على الإفريز الحديدي ويجهد في رفع جسده عن كرسيه..يسقط المئزر عن أحضانه

..ينجح في الاتكاء على السياج..تلوح معالم ابتسامة باهتة على شفتيه..يحاول ويفلح في اخذ نفس طويل عميق تعقبه حسرة طويلة تختنق بنشيج متقطع يستطيع هو سماعه..تندى عيناه، تترطب، تزداد ابتسامته سعة..

* * *

يعود محمود..

" ابتعدنا في الليل عن مسار الفلول المتراجعة عبر الطريق الرئيسي..أفراداً هائمين، جائعين مقرورين.

..كانت الأرزاق قد قطعت تماما ليومين قبل الاكتساح..لم يكن الجو رحيما..برد ومطر.

ضباطنا وآمرونا استولوا على الشاحنات والعربات الموجودة في الميدان..كان العراك فيما بينهم شرسا على العجلات الأسرع.

في المدينة التي مرت بها القوات المبعثرة لم تبق وسيلة نقل لم تختطف حتى الدراجات الهوائية والتراكترات....الكل " وينك يا روحي! ".

كنت على يقين بأن الطائرات ستلاحق الفلوَل على الطريق العام.

كان الرتل الفار على مسافة بضعة كيلومترات عنا حين حلت الكارثة.

..ارتال متعاقبة من الطائرات..النيران والحمم التي تصاعدت كانت تذكرني بغيمات فطر التفجيرات النووية ، لكنها كانت على حجم اصغر. وبسلسلة متواصلة من مؤخرة الركب وحتى نهاية مقدمته البعيدة.

..كنا منبطحَين على وجهينا ، حين أبرقت ثم أرعدت وتلا ذلك عصف شديد زلزل الأرض من تحتنا وغمرنا بكثيب من الرمال.

..حين استطعنا النهوض كان القصف متواصلا على مسافات ابعد من مسار الطريق العام المفترض..ساعتان لا غير، خيم بعدهما صمت يقشعر له البدن.. قبل ذلك، كنا نسمع دبيب الحياة في ما يصل إلينا من وشوشات العجلات الفارة .

..لا نأمة تسمع الآن، حتى صفير الريح تجمّد.

فضول رائحة الموت الخفية تجعلك تهتز هلعا وشوقا لاستكشاف المجهول المستعصي..في المقابر رغم هلعك تبحث عن حفرة مظلمة تقف عند حافتها ، تمد فيهاً بصرك إلى أعمق أعماقها..إلى ما تحتها!.

اقتربنا حذرين..هبّت علينا رائحة شواء نفاذة بعبق الموت..تقيأ صاحبي . أكان ذلك خوفا أم قرفا ؟!

كتل بشرية متفحمة سوداء تمتد على طول الطريق الممتد إلى ابعد نقطة في البصر، اكثرهياكل الشواء كانت منكمشة متقلّصة ، ما كان منها في مركبات مغطاة، اختلطت بقايا اللحم والعظام المسودّة منها بالحديد المنصهر.

لاشك بأنه أطول سيخ للشواء في تأريخ البشرية!!

..كانت هنالك أجزاء كثيرة منفصلة محترقة متناثرة على جانبي الطريق.. اذرع وأنصاف رؤوس وأقدام بأحذيتها أطارها عصف الانفجار مسافات..

استمر قيء صاحبي وقد تهالك على ركبتيه.. غطى وجهه لمدة طويلة قبل أن أمد يديّ لأنهضه، مشيرا بصمت إلى ضرورة مواصلة السير.

كيلومترات طويلة وعديدة والصورة تكاد تكون هي الصورة ذاتها.

..رغم محاولتنا أن يكون مسارنا بعيدا عن سيخ الشواء الطويل الممتد عبر الصحراء ، كنا نقوم حذرين باقترابات جديدة نستقصي فيها عن قرب نهاية مشهد الجحيم هذا.

..لا قرار ولا نهاية للجحيم! .

..خفتّ الرائحة قليلا، لكنها و قبل ذلك، كانت قد استقطبت مئات الكلاب الضالة وربما تقاطر البعض منها من مدينتي الكويت والعبدلي للمشاركة في وليمة القائد الحاتمية الكبرى.

أشرت على صاحبي بالابتعاد عن الطريق الرئيسي والإسراع على أمل الوصول إلى مشارف مركز حضري قبل حلول الظلام و قبل أن تشارك قطعان الذئاب لأخذ حصتها من الهبة العليّة. أضف إلى أن بعضاً من الكلاب المستثارة بالروائح قد تفضل لحما طريا ً بدلا من آخر متيبّس محترق.

في(العبدلي) استطعنا المقايضة بكنزاتنا الصوفية مقابل بعض الأرغفة.

..في مشارف الزبير وبعد مسيرة نهار كامل، كانت المقايضة بغطاءين صوفيين للرأس وفي أطراف البصرة بقمصلتينا.

..استمرت عملية التعري (الستريتيز) حتى وصولنا إلى أطراف (الكوت) وبعد عشرة أيام من الإذلال والبرد والجوع والأقدام المتقرحة المتورمة..لم يبق خلالها خرنوب ولا أشواك طرية لم تعلف، وحين لا يكون هنالك شيء يمكن أن يغذّي أو يطرّي فمنا، كنا نضع في أفواهنا حصى نمصّها ونقلبها في أفواهنا.

على مشارف المدينة كانت هنالك شاحنات في الانتظار ولك أن تتصور فيض سعادتنا حين لمحناها عن بعد، لقد اغرورقت عيناي على حين أجهش صاحبي بالبكاء.

- سننتظر آخرين قادمين حتى تمتلئ الشاحنة سنوصلكما مع هذه المجموعة من رفاقكم إلى احد أحياء بغداد الغنية، هناك الخير كثير، ومن يسكن في مدينة أخرى سيجد من هناك منفذا ووسيلة.." الله ما يكطع بعبده "..لكن أجور التعب والطريق مطلوبة " مو هيج؟ انتم زين تعَرفون شحة البنزين والمواد الاحتياطية وكل لوازم الشاحنة.. انتو زين تقدرون إحنه هم ورانا بيوت وعيال فاتحه حلْوكهَ "..أشار بعينيه وبحركة رأس خفيفة إلى ما تبقى فوق جسدينا!

- و الريح والبرد في هذا الشتاء الزمهرير؟ تساءل رفيقي.

- " انتو شباب، ما شا الله زلم خشنه!، راح تتراصفون باللوري و واحد يدفي الآخر".

وخلعنا عنا آخر ما يمكن خلعه، بنطالينا وأحذيتنا .

..كانت هنالك شاحنة كبيرة قريبة يُجمع فيها كل ما يمكن جمعه من الأسلاب. "

تدحرجت اسطوانة مصوّرة بتقطيع بطيء، أمامي الآن سكان شواطئ المانش الانكليز هم وقواربهم في عتمة الليل، آلاف تعبر لجة البحر إلى (دنكرك) .

* * *

أتابع حامد وهو يفرّ مرة أخرى من محبسه، ولكنه في هذه المرة كان في كامل قيافته، بدلة عاتمة زرقاء، حذاء من الروغان اللماع، غترة حريرية بيضاء وعقال أنيق أسود

..مشى مختالا بعد أن عدّل حواشي غترته ورفع رأسه بشموخ وعلا صوته

" أمجاد يا عرب أمجاد..في المحنة كرام أسياد.. أمجاد يا عرب أمجاد!! ".

..استمر حامد في إنشاده إلى أن اختفى عند زاوية الزقاق.

..علا صوت هدى مستنجدا مناشدا :

" وينك يا مسكين..وينك...؟! "

الجو غائم، لكنه في نفس مكانه من السطح، يجلس فوق الكرسي ذاته غير أن الدثار الذي يلتفّ به كان أكثر سمكا.

عيناه ما زالتا مشدودتين إلى الأشكال التي رسمها سخام المطر الأسود على واجهات البيوت أمامه، لم تتبدل حدة حواشيها ولا هيئاتها حتى بعد أن غسلها مطر الله المألوف..لابد أن ما حملته تلك المطرة المشؤومة كان حبرا صينيا مخففا!ً.

باب بيت هدى أمامه لم ينفتح ليومين، ولم يظهر حامد في عروضه الغريبة في الزقاق..لم يستطع الإفلات، يبدو أن الأقفال قد أحكمت عليه أكثر من السابق.

تتضبب رسومات الواجهات المحبرّة أمام عينيه ثم تتلاشى.

..تطفو أهرامات مكعباته وهيئاته الاسطوانية وتنفرط، فارشة أمام شاشة وعي الذاكرة مقاطع أشرطة مصورة تختلف درجات وضوحها..

***

ارتجّ البيت في زلزال عاصف صاخب وتناثر زجاج النوافذ..أجد نفسي وزوجتي مرميين عن السرير فوق أرضية الغرفة.

.. تلمّس احدنا الآخر في حلك الظلمة.

- أأنتَ بخير؟

- أأنتِ بخير؟

امسك احدنا كف الآخر وبدأنا البحث الصعب في حالة الانشداه تلك عن الباب.

..دون أية كلمة توجهنا إلى الغرفة الصغيرة المنزوية المجاورة..جلسنا في الظلمة على التخت المجاور لبابها بصمت، حتى استرددنا أنفاسنا .

- لقد قصفوا برج المرسلات والاتصالات على الأرجح.

وكان الأمر كذلك.

- ألم اقل لك أنهم سيضربون! قالت بصوت مرتجف واهن.

- لم أكن أتصور أنهم جادون في القضاء على اكبر حليف لهم في الشرق الأوسط.

لم يكن برج المرسلات ذاك، يبعد عن المنزل أكثر من مئة وخمسين مترا. وليته البقعة الهامة الوحيدة.

..بضع عشرات من الأمتار عنه، (يشمخ) مجمّع المخابرات الضخم و على مبعدة اقل من مئة متر يمين الدار، معسكر تدريب جنود المخابرات والاستخبارات ودائرة الانضباط العسكري.

خلف الدار بمائتي متر مجمع بيوت الوزراء وساحة الإعدامات، بالطبع تحت اسم ساحة التدريبات الخاصة، حيث كثيرا ما كانت تصل إليهما منه لعلعت الرصاص قبل أذان الفجر.

وهكذا لم يكن قصف المرسلات الصاروخي هو الزلزال الوحيد الصاخب تلك الليلة.

عند الصباح وبينما كنت أحاول ان أسد بعض ثغرات النوافذ بصفائح كارتونية، وأعيد ظلفة الباب الرئيسية المخلوعة إلى موضعها بدت مظاهر حركة هجرة جماعية من البيوتات المجاورة

..تقدم احد الجيران مني متسائلا في حيرة " لا أراك في عجلة لمغادرة المكان؟ "

ذهبوا إلى مدن أهاليهم أو أقاربهم، هذا إلى "راوه" وذاك إلى "الفلوجة" و"عانه" و"النجف" و"الخالص" ..

..حضر أولادي وأمهم من البيت الآخر ونزلت ابنتي من سيارتها ترتجف رعبا كعادتها في مثل هذه المواقف.

- أسـرع، هيـا أسـرع مـعنا إلى بسـتـان أصـدقـاء لنا في " ديالى "..أسـرع! أسرعْ!..العفو أسرعا، أسرعا وتعالا معنا رجاءً..الكل مغادر من حولك !

- لكني لا انوي المغادرة..لم اعتد على ترك المكان الذي أعيش فيه.

أجبتها بهدوء و بابتسامة مطمئنة . احتضنتها بدفء :

- هل نسـيتِ إني لم أغـادر مـسكننا في البصـرة ولا مـرة واحدة لستِ سنوات من الحرب و كانت الدار حينها في قلب مواقع القصف..كنت أنقلكم إلى مكان آخر آمن وأعود إلى ديرة كانت قد أقفرت تماما..الأفضل خذي سيارتي هذه فهي آمن وأوسع.. وسيـارتـان عندكم في مثل هذا الظرف خير من واحدة..ستبقى عندنا - أنا وإلهام - السيارة الأخرى الأصغر وفيها كفايتنا.

لم يمنع تحصين الغرفة المنزوية الصغيرة من أن تُزخرف أعالي جدرانها بالشظايا و أصبح الوصول إلى المرافق الأخرى في البيت خطرا خصوصا في ساعات الليل غير أننا كنا محظوظين، فركن المؤونة والحمام لصيقان تماما بالغرفة الصغيرة.

..أصبحت مدفأة "علاء الدين " داخلها هي المخبز والفرن والطباخ ومصدر الإنارة علاوة على التدفئة في ذلك الشتاء قارس البرودة.

كنت أوصل زوجتي إلى مكان عملها عبر شوارع شبه مقفرة، وهي ترتجف هلعا طوال الطريق من أصوات القصف المتفرقة..بعد انتهاء عملي أعود لأخذها ، صامتة مفزوعة طوال الطريق..

أسبوع..اثنان من القصف والرعب، ومن ثم تمرض..اسهالات وقيء..انزفة رحمية متكررة.

.. أقسام الطوارئ في المستشفيات على أشدها زحاما وأسوءها خدمة.

..أصاب بالفزع خوف فقدانها.

.. " أما من فرج.. أما من خلاص؟! متى ستنزاح الغمة؟! متى ينتهي وتنتهي معه حروبه اللعينة..يا رب ليتني أكون مخطئا وإنهم جادون فعلا في الخلاص منه..يا رب! "

تستمر الحمم والصخب الهادر والوميض الفضي اللامع ، واحتراق السماء باللهب الأحمر الذي يليه.

الشظايا التي كنت أجمعها عند الصباح كل يوم من الغرف والسطح والتي كنت أضعها في وعاء خزفي، زاد وزنها عن ثلاثة كيلوغرامات

..نتشاءم من جمعها..أدفنها تحت شجرة زيتون في حديقة المنزل.

أصبحت الحديقة المكان الآمن، غير الموحش الوحيد لكل كلاب المنطقة.. كانت "ونيسنا" الحي الوحيد، شاركتنا في الزاد العسير وبترحاب، فقد أقفر الحي من سكانه.

اقطع الطريق إلى مستشفاي..

عادت قطع القماش السوداء معلقة هنا وهناك.

..عادت قوافل جنازات القادسية الثالثة إلى الظهور.

.. عادت النعوش المتجهة إلى مقبرتيّ "الفلوجة" و"النجف" تعبر مسرعة أمام دارنا.

أضع يدي في يدها حتى تستطيع بعد جهد أن تغفو على التخت الضيق في السويعات القليلة حين يبتعد القصف.

.. أمد جسدي على فراش مجاور على الأرض أنصت من الراديو الصغير إلى إذاعات العالم..(مونت كارلو) ، الـ(ب ب سي) ، القاهرة، عمان.

.. الكل يناشد القائد المظفّر الصامد على القبول بأحد عروض عديدة لانسحاب مشرف ودون شروط مجحفة.

. " يا رب!! "، آلاف في مثل حالي أو أسوأ منه، ملايين تدعو وبحرارة من الأعماق أن يستجيب.

.. صامد، صامد عنود بطل..وليس كل العناد حمق!، فالضحايا ليسوا إلا قرابينه! .

الإنذار الأخير!..ستعبر قوات العالم المدجج بكل بدع الموت الجماعي..ستعبر عند منتصف هذه الليلة على حشوده من الجياع المقهورين والمرتجفين بردا وهلعا..حشود مسكينة لا خيار لها في أشكال الموت التي تُزج بها دون قضية أو هدف مقنع..لا، بل و كل ما هو شائن وعدواني.

.. لا خيار لجيش" القائد الضرورة "، لأنصاف العراة والجياع في البراري الموحشة العدائية، لا خيار في الحياة.

.. لا خيار في الموت.

في ساعة الهجوم..جاء أمر القائد " التاريخي ".. " التاريخي والجغرافي أيضا " بالانسحاب من " محافظة " الكويت.

أنصت إلى الخبر :

".. بتدخل عاجل من الأمم المتحدة وبعد الموافقة على الانسحاب الفوري الكامل من أراضي الكويت..سيتم وقف القصف على مدينة بغداد في الساعة الثالثة والنصف بتوقيتها المحلي... "

- أسمعت، أسمعتِ يا حبيبتي إنها نهاية المحنة و نهاية الطاغية.. غدا صباحاً سنستمع معا إلى البيانِ الأول لحكم جديد يعلن نهاية الحروب والمذابح والقهر ونهاية المجرم.

..غدا مهرجانات الناس في كل زاوية من البلد الجريح.. ستعم الاحتفالات حتى في تكريت والرمادي..

بدأت الحمم تنهمر على محيط بيتنا..ليلة ولا كل تلك الليالي المزلزلة..كأننا نحن فقط مركز تلك المعركة..

..ارتجاج ضخم، مادَ البيت من تحته في اتجاه وعاد إلى مكانه، مع استمرار اهتزاز خفيف أعقبه لثوان.. " لابد انه انهيار الجسر المعلّق غير البعيد عن الدار! ".

استمر القصف وتزايد.. لم يبق باب إلا وانخلع، وتطايرت آخر الشظايا الزجاجية العالقة في زوايا النوافذ..

اقتربت الزلازل والرعود والبرق المتداخلة التي تتلامع عبر حطام وشقوق الألواح الخشبية..

" يا رب زدها !.. زدها وأجعل خلاصنا وخلاص الملايين بنهايته! "

أرفع قبضتيّ إلى السماء بشكل هستيري " زدْ وبارك!.. زدْ وعجل بالفرَج!.. يا ألله !

كثرت الشظايا التي كان يُسمع أزيزها وارتطامها بعد وميض الانفجارات وهزيمها، مخترقة طبقات الألواح الخشبية التي تدعم النوافذ العارية..ألواح لا تتعدى وظيفتها الإحساس المخادع ببعض الطمأنينة ..

أسمع اصطكاك أسنانها ويزداد اختضاض كفها المتمسكة بي..أسمع صرير خوف خشب(التخت) المرتعش تحتها..أرمي بجسدي فوقها وأحتضنها بصمت

..يقل اصطكاك أسنانها ويخف اختضاضها..تغفو أخيرا .

يتوقف القصف في الثالثة والنصف فجرا.

يطبق الصمت.. يرنّ الصمت

-..لقد توقف القصف يا حبيبتي!!..غدا نحتفل مع بغداد الهازجة بنهاية الطاغية.

..دعها في نومها..ساعات قليلة وأوقظها على نشوة البيان الأول لعهد حكم جديد ، حكم لا يمكن إلا أن يبث الأمل في ملايين المذلّين المهانين..سيبزغ فجر أمل جديد.

مجهداً أغفو ساعتين .

.. الساعة تقترب من السابعة..أدير مفاتيح المذياع.. أجد ضالتي أخيرا.

..الصوت مشوش قليلا.. إذاعة عراقية غير التي عهدناها تعزف ألحانا لأناشيد لا أُميّزها.

- أصحي يا حبيبتي.. أصحي ولنستمع سوية..إنها أناشيد الحكم الجديد ً!!

..لا جواب !

كرر بصوت أعلى ونغم أرق.

- اصحي لنستمع إلى البشرى !

.. أدير مفاتيح الراديو .. يعلو صوت المذياع بنشيد الجوقة :

" إلنَه اَلنصرِ والنَصرِ غالي..صدام يا رمزْ المعالي " .

لوحات

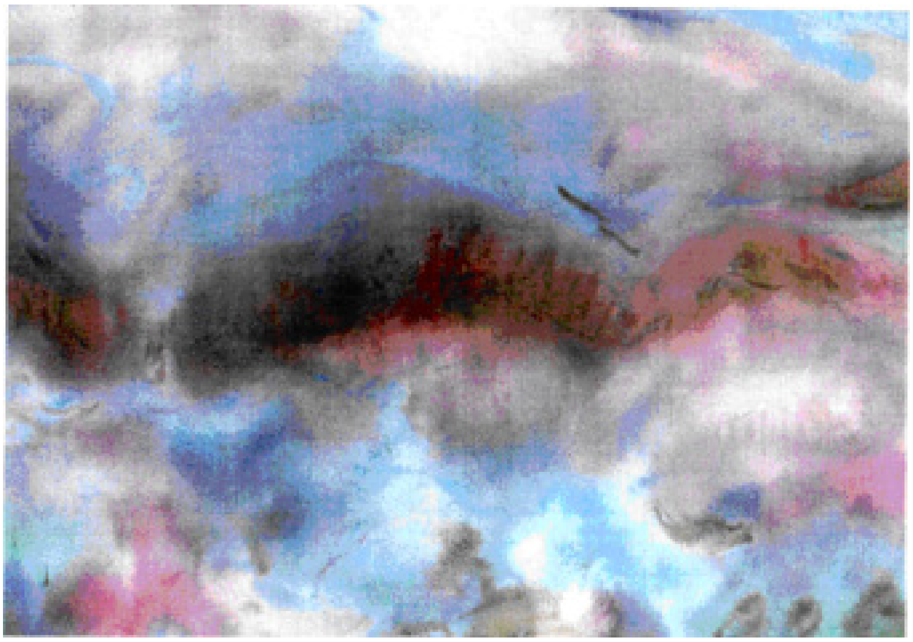

فلاح الجواهري - الضباب والغابة - ٢٠٠١

الضباب والغابة

هذه السلوى العجيبة :

فرشاة، علبة ألوان صغيرة ، أوراق بأحجام وسمك وسطوح مختلفة، بين أحضانها تندس محتمية صفائح لوحات قديمة ، قلم صغير كاد أن يستهلك، اسفنجة تشربت بألوان وأزمنة وذرات ورق ذائب وبصمات أصابع..

لوح خشبي رقيق تأطر بخطوط مشرشرة وبقع وألوان بمستويات مختلفة يمكنك معرفة أعمارها كما في حلقات مقطع جذع دوح معمّر.

تحملها تحت ذراعك برفق وحنو

تحمل هنا مشاعرك وانطباعاتك ورؤاك، أحلامك وشوقك والحنين الشاف الممض..

تحمل بها التجربة ولحظة الانبهار في اكتشاف موقع ومعلم..

تحمل حزمة ضوء معفّر،يتسلل كاللص بين أغصان غابة كثيفة.

هنا اصطياد لحظة سكون من ظلال غيمة سابحة فوق حقل اخضر.

هنا في هذا الخزين من الوريقات والخطوط و اللون المنساب المرتَشف تكمن معالم كآباتك واحباطاتك.

تعبر من خلال مساحاتك الورقية الملونة ليل النجم الساهر، واحتراق " فحمة الديجور "، والضوء المنتشر الذي لا حدود له، والظلال الزاحفة، وأبخرة الوديان..

تحمل تحت ذراعك زرقة البحر الملتمع، الكابي، المعتم، الشاف بخضاب البنفسج ، المتورد الخلجان بالحصى.

تحمل البحر أقحواني الأفق..

لحظة سارعت لتستوحي منه على وريقاتك، لقطة من مزاجه البحري..

عبرتَ فيها بألوانك على عجل وانفعال منبهر منتشي..

وجدت نفسك وفرشاتك وألوانك قد أبدلت مسارك ومسار كل أدواتك، لتماشي مزاجه المتبدل في غنج، ثانية بثانية...

هنا تحت ذراعك وأنت تسير على غيمة من ذهول حالم شاشات مترامية الأبعاد

تظهر عليها تفاصيل ذكرياتك، براقة متفجرة الألوان زاهية حينا، ضبابية غامضة عسيرة الوضوح حينا آخر.

عدّتك تلك، قرّبت الأبعاد التي تلاشت..الهيئات والفضاءات المترامية..الجدران المصمتة والنخرة المتهاوية..الواحة والصحراء..النهر المتدفق والجدول الرائق..

ضفاف الطين والرمل.. و أرضا مشت فيها أخاديد الجفاف المعروقة ...

هنا سعف النخل المتناثر الهفهاف كشعور السعالي في ليلة عاصفة

هنا حزنها الأزلي المستوحش في لفح هاجرة صموت..

هنا تحت ذراعك جبال كردستان الملونة تتدرج بوضوح عبر الزرقة البنفسجية من أوشحة الغروب تخال السلاسل المتلاشية في الأفق البعيد تمتد إلى أبدية غامضة..

هنا وتحت ذراعك الوطن الذي تستحضره متى ما أمضك الشوق وأنهكتك الغربة..

لقد أنرت بما تحمل عتمة الشمال الاسكندنافي الطويلة الحزينة..

أنت أيها المقرور بالبرد والغربة! ها قد ألهبت بتوهج ألوانك أصقاع العدم الجليدية.

كم كانت تلك الأدوات المتواضعة بديلا عن عقاقير الاكتئاب وأسرّة الردهات الصامتة الأكثر اكتئابا،

كانت فرشاتك حبل نجاتك الذي تسلقته لتخرج من عتمة أقبية الإحباط إلى فسحة الأمل النيرة.

..وفيما أنت في فيافيك، حاملا متاع همومك، تجد فسحة صغيرة من تعب التجوال والضياع .. تسارع فتلقي بعصا ترحالك في استراحة بين المتاهات.

تجد ركنا دافئا تضع فيه حاملة خشبية..علب ألوانك وأنابيبها ..لفائف من أقمشة الكتان..صفحات وسيعة من الورق..رزماً من كتب، وعددا من أشرطة موسيقية..

فجأة تكتشف انك ابتنيت وطنا صغيرا تستعيض به عن الوطن المتنائي عنك يوما بعد آخر..

ذلك السراب المخادع الذي كلما اقتربت من صفحة مياهه بعطشك الممض، نأى عنك إلى أفق ابعد.

.. يا لك من مزمن ضياع ..

على مشارف عقدك الثامن، وما زلت عند مفترق الطرقات.

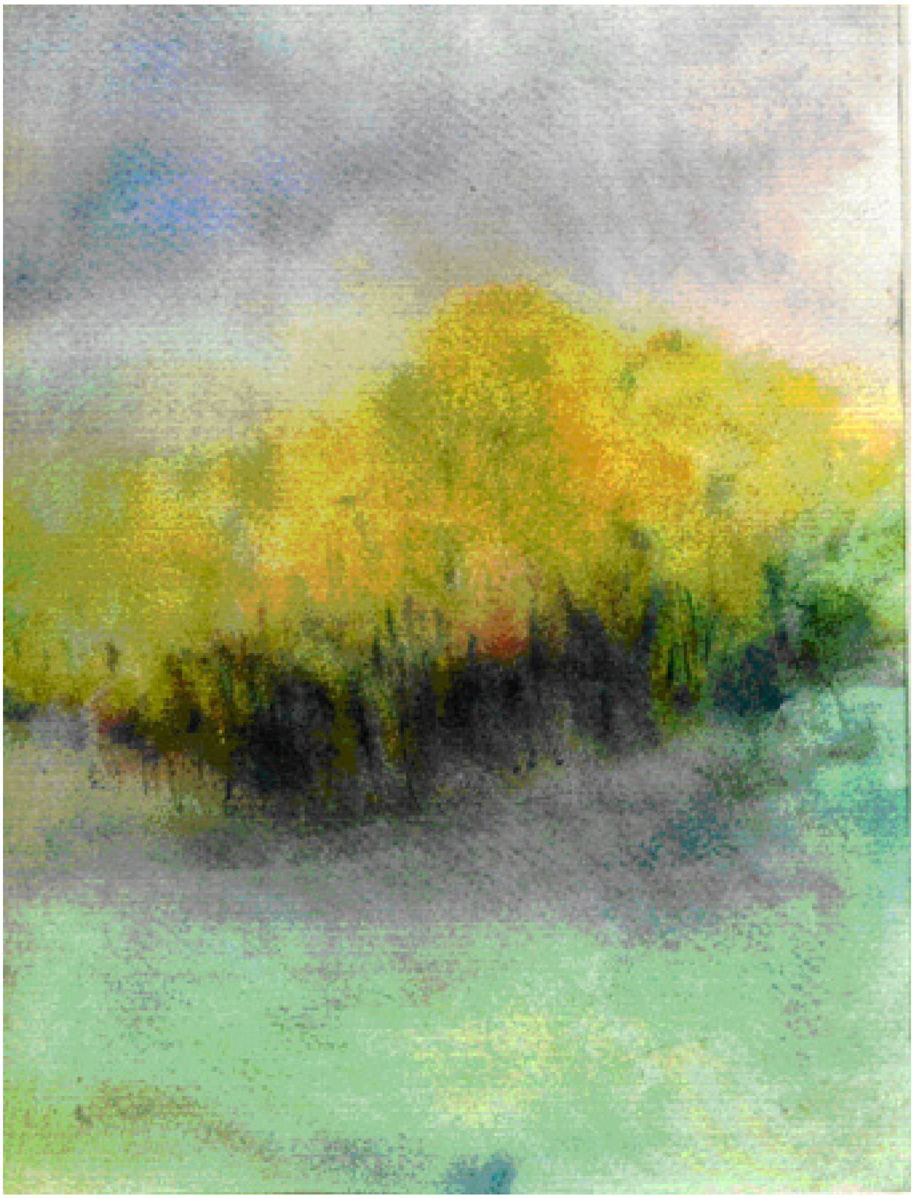

فلاح الجواهري – الضباب والغابة – ٢٠٠١

هل أنت الذي تتبع الضباب ام انه هو الذي يتبعك، ها هي أحزمة منه تقترب منك متوجسة، شاحبة ،حذرة، تنزلق فوقها أوشحة أخرى باتجاهات مغايرة..

حواشي الأوشحة المتهدلة تُسحب فوق سطح التربة الندية التي تظهر من خلال الستائر الشافة المشرشرة بقعا وأخاديد وكتلا طينية.

.تتوارى هذه المعالم لتظهر بعد لحظة في مكان آخر..

التربة الندية تزحف.

على مبعدة من مكانك ترتفع أبخرة متموجة، مذكّرة بغيمات دخان متصاعد عن مواقد التنانير المشجورة بالسعف والأعواد اليابسة عند الفجر في بيوت طينية منثورة بين حقول الجنوب.

..أشباح عجيبة ملوّنة تطل متنقلة هنا وهناك من خلال كوى نصف شفافة بين وشاحات الأبخرة البعيدة..

تتبدل الألوان وكثافاتها زاحفة، مبدلة هيئات رسومها دون انقطاع.

.إنها أشباح الغابة البعيدة ،

" حين تتحرك غابة (دوناي- نورماندي) في مواجهتك ".

تحث الخطى لتلحق الأحزمة الشفافة وكوى الألوان المتحركة التي تلاعبك فتعاود الظهور عن يمينك.. عن شمالك.

تهرب منك.

تتلاشى الألوان والهيئات الشبحية..

تلتف في متاهات زجاج مضبب متماوج..

يندى خدك.

تواصل سيرك دون معلم مرئي..تطفو..تستقر على سطح لين..تنحدر فوق أحجار بليلة زلقة..

أنت الآن تخوّض في جدول بارد يمتزج خريره بحفيف أشجار تقترب..

للضباب همس مبهم..

تغوص في الوحل مصرّا على متابعة تخبطك كطفل عنود..

وخز يدمي ذراعك.

تتخطى سياج أسلاك شائكة فتنهب مساميره نتفا من ثيابك ..
تُدمى ساقاك
تسيرحثيثا في مجاهلك..
أنت محاط الآن بأحزمة ضباب أكثف و أشباح تتحرك..تظهر وتختفي.. إنها جذوع السنديان الضخم العتيق..
تواصل..
خيمات وسيعة من أغصان الصنوبر تهفهف فوق رأسك..

تضرب أحداها فينثل عليك مطر ابري وقطيرات تنثر وجهك بالماء والعطر الصنوبري..
تسكر بنشوة عابرة.
تزداد كثافة الألوان وروائح اللحاء والأغصان المنخورة والجذوع وحصيرة الإبر الصنوبرية المتخمرة والعفص والأعشاب الندية..
..لتربة الغابة المنتفخة بالأشنات عطر يتميز عن كل ذاك المزيج الآخر من عطور الأشجار وبقاياها.
..يتنامى فضولك من ذلك المشهد، يلفّك غموض يمتزج بخوف الغريزة من عتمات مجاهل الطبيعة البدائية..

فلاح الجواهري - الضباب والغابة ٣ - ٢٠٠١

ما الذي يختبئ وراء هذه الظلال المزدحمة وأمواج أوشحة الضباب المبحر في اتجاهات ومستويات متباينة؟

تتهادى أمامك الأوشحة بإغراء وغنج..تتسرب بين أشباح الجذوع..تغريك باللحاق.. أشباح غواني (جيزيل) المسحورات بعشقهن القاتل يسحبنك إلى المجهول فتتبع ولِهاً مأخوذا.

..تعبق من جديد عطور العفص و إبر الصنوبر الندية المذوبة بعبق الأرض المبقعة بالكتل الهشة من التربة المنتفخة بالطحالب والاشنات.

.. بثور انفقعت وأخرى آن لها أن تنفقع عن فوهات عاتمة الخضرة مبقّعة بحبيبات سودا ء.

تنحني متأملا هذا البركان الخامد الصغير..

في قعر الهوة بقايا من فتات حمم..

ابر صنوبر عتيق متيبس..

أتربة فحمية هشة..

قطع لحا ء متنخر..

بقايا هلامية لزجة لفطر الثعلب الهرِم.

تغرف بكفك من مزيج الدورق الترابي..تقربه من انفك وتستنشق عبقه ملء رئتيك..

لحظة سكر عابرة تتجدد.

تواصل إبحارك السندبادي في بحور الغلالات الشافة وعماليق الظلال وأشباح الغواني الراقصة .

فجأة تخترق الأحزمة الضبابية السابحة أصابع ساحرات متشعبة مستدقة..يمتد بعضها صوبك في حين ترتفع أخرى ممشطة شعورا كثة متشابكة خضرا ء تتدلى من بعضها جدائل معثكلة ملفوفة بشباك من خيوط العناكب.

تزيح الأغصان وتطفو على وجهك ابتسامة منتشية من دعابات الساحرات الطفولية التي تحاول استثارة خوفك الغريزي ونبش مكامنه..

تحني رأسك مارا تحت أنامل الأغصان العارية ..تحس بالأنامل المستدقة تمشط

شعر رأسك..تسمع أنين تكسّر بعض هذه الأنامل الرقيقة..تزيح البعض الآخر بأناة وحذرعطوف وأنت تواصل خطواتك..تخشى أن تفسد دعاباتهن بكسر أنامل رقيقة أخرى..تسمع صرير حطام إطراف أخرى تساقطت عبر أزمنة متباعدة.. تحس حصيرتها الأسفنجية تحت قدميك.

فجأة، وكما تنزاح ستارة مسرح بأناة وبطء وصمت، تتباعد الأبخرة وتشف..

تنساب حزم متكسرة من الضوء بين الكتل الكثيفة الخضرة.

..تخطو بضعة أمتار تجاه منابع الضوء..ينبلج أفق رحيب لماع الخضرة تنزلق فوقه بقع النور المصفرة البراقة..

تبدل الآن البقع النيّرة المخضوضرة أماكنها، منسابة كحلم صامت عجول، تاركة بين مجالات سياحتها أخاديد زرقاء وبنفسجية ومربعات صفراء وأخرى عاتمة الخضرة.

تعود من رحلتك تلك عند حلول المساء..تفتح باب وطنك الصغير فتقابلك بحفاوة رائحة زيت الكتان الطرية المخلوطة بمزيج من محاليل المذيبات التي تذكرك برائحة علكة المستكي.

تزيح من على سطح اللوح الخشبي الواسع علب أصباغ وأنابيب الألوان الزيتية والفراشي، وسكاكين المزج المعدنية الرقيقة، وصحونا، وقطع ألواح زجاجية وأواني فخارية تستخدمها بديلا عن لوح مزج الألوان الخشبي.

..تفسح مجالا لصفحة ورق حبيبية السطح، خشنة، مدغمة البياض.

..تضع علبة ألوانك المائية العتيقة..تفتحها بلهفة المحب.

..تضع أكوابا من الماء.

تستل فرشاة ناعمة..تبلّها، ترطب بها حدقات الألوان..

تعود من جديد في سياحة أخرى فوق سطح الورق.

تبدأ الصفحة بالاتساع..تترامى أبعاد حواشيها..يبدأ السطح الورقي بالتحول إلى عالم غامض.

..تنساب مبحرا من جديد في متاهات أوشحة الضباب المتداخلة.

..تتمايز وتتضح معالم جذوع السنديان الضخمة وخيمة أغصان الصنوبر الهفهافة.

..ينفغر ثغر ذلك الوعاء العجيب من بثور تربة الغابة المنفقعة.

يتراكم ذلك الخليط العجائبي من حمم التربة وبقايا الغابة النخرة والأشنات في قعر ذلك الوعاء.

..تفوح في الغرفة الصغيرة روائح رحم الغابة المظلم.

أشم من جديد ذلك الخليط من عطور العفص وابر الصنوبر الندية وبثور التربة المنتفخة بالطحالب والأشنات وقطع اللحاء العتيق المنخور والبقايا الهلامية لعطر الثعلب الهرم.

تغص حنجرتك بغرغرة مكبوتة، تندى عيناك، تتصاعد حسرة مسموعة إلى شفتيك.

تهرع إلى باب الغرفة.

..تفتحه على عجل.

..قبل أن تضع قدمك خارجه، ترفع رأسك إلى السماء مطالبا، لا سائلا، فسحة قصيرة أخرى من العمر.

الفرات الذهبي- السويد - فلاح الجواهري١٩٩٨

الفرات الذهبي

اليوم الثالث ولا يزال نديف " الثلج الأسود " يهبط دون انقطاع أو رحمة.

تقترب بوجل لتطل من النافذة فتترا ءى الشوارع المقفرة التي انمسحت واختفت خطوطها ومعالمها.

هنا وهناك تدور دوامات بيضاء صافرة وهي ترفع في لفائفها آخر أوراق الخريف.

تنحسر، تبين، ثم تغيب تماما تعرجات الأزقة الجانبية وأشباح من بقع الجدران المواجهة.

تختض وتسري قشعريرة برد رغم انك تكاد تتعرق من لفح صفائح التدفئة المشعة القريبة.

فزع ورهبة..

هذا هو الجحيم!!

النار..شعلتها.. حرارتها.. زهو ألوانها..اللهب الراقص بأذرع النور..

النار قبس الحياة.

الثلج..الألوان..بيداء البياض المقفرة..برد انطفاء القبس..وحشة صمت اللون..

الموت ثلج.

الثلج جحيم.

من بعيد..بغصة الألم الطافي إلى سطح الذاكرة، تتصاعد التماعات ذلك الضوء المنهمر بسخاء من نوافذ السماء المشرعة..

يا لنِعمَ ونعيم تموز..

يا لشوق لهبه الحارق..

يا نعمة الفيء الندية عند شواطئ غابات نخيله..

يا لفرات تموز الذهبي..

يا جذل البواسق..

يا خيم سعفه الظليل..
يا لشواطئ كوفته الذهبية..
يا لروعة حصيرة الظلال والنور بين جذوعك الرشيقة في بساتين (أم الذهب).. بساتين الشيخ الكريم، أريحي القلب والخلق باقر الجواهري .
يا لنا ، نحن صِبية وصبايا ،
..يا لعبثنا الفوضوي المرح
عند حواشي البستان..
على الغِريَن الذهبي .

* * *

تتحرك الهوينى تجاه الطاولة المهملة الوسيعة المفروشة بعلب الألوان وأنابيبه..
غوانيك الضامرة التي كادت تجف من الجفوة والهجران الطويل.
تقف بخشية..تتردد
أمامهن..تحن.
..يسري دفء في عروقك..
تمد يدك فترفع الحاملة الخشبية المتربة..
تسندها برفق..
تفتح ساقيها..
يزداد حماسك وأنت تتأملها منتصبة رشيقة أمامك.
تختار لوحا عريضا لتحتضنه الحاملة الخشبية.
يفوح من جديد عطر زيت الكتان الزكي وأنت تهصر الأنابيب الزيتية..
تتلامع اسطوانات الألوان الملتوية الطرية فوق تراكمات وبقع لونية قديمة متيبسة تداخلت حواشيها المغبرة فوق صفيحة الخلط.
تغمد مجموعة مختلفة الأحجام والسطوح في قبضتك اليسرى.
..شيئا فشيئا تبين وتتوضح وتتسامق جذوع النخيل.
.ينغلق الشط الذهبي المتلامع بأمواجه حول الجزيرة المفيأة بخيمة السعف المفروش..

..تفوح رائحة الطلع.
اسمع كركرة الصبايا العابثات.
أسبح في تيار من الماء والبهجة والنور.
يتدفق النهر الوسيع من حاشية اللوح العريض.
يجرف بتياره كل رواسب الروح المهترئة.
تمتلئ حنجرتك بغصة.
يتغرغر صوتك بحسرة متصاعدة.
تهرع إلى باب الشرفة.
تفتحها.
تقتحمك الريح الباردة.
تقتحمها.
تخرج فارعا صدرك الأعزل.
..تتحدى زوبعة الجحيم الأبيض.
يغمر الدفء حضيض أعماقك.

ترفع وجهك صوب السماء المغلفة بنديف الجحيم.
تصرخ مطالبا..
.. مطالبا لا سائلا!!، فسحة قصيرة أخرى من العمر.

***

إي وعـــــــيش ٌ مــــــــضى عـليك بـهـيٍّ
وشـــــــعـــــــــاع ٌ مـن شـطـّـكَ الـذهـبـيٍّ
والتــــفــــاف الـنخـــيـل َ حـــولك حـــتى
لـو تقـــصّـــيــتَ لم تجـــد غـــيـــــر فيٍّ
وانبـــســـاطُ الســـفح َ الذي زاحـــمـــتـــهُ
د َفــــعـــــاتٌ من مــــوجكَ الثـــــوريٍّ

وسنا الشـــــمس حين مــــجـّتْ لعـــابا
أرسلتـــــــــهُ من نـورها الكســــــــرويِّ

فــــتـــخـــالُ الضـــيـــاء ـوالماءُ مــــوجٌ
فـي رواحٍ مـن جـــــــانـبٍ ومـــــــــجـيِّ

كـــخـــيــــوطٍ من فـــضـــةٍ بتن َطوع الر
يـح َبـين الشـــــــمــــــالَ والـشــــرقـيِّ

وابتـــــســـــامِ البـــــدرِ المطلِّ إذا مـــــا
بـــاتَ يـجلـو الـدُجى بـوجـــــــــهٍ وضـيِّ

يا فـــــراتي وهل يحـــــاكــــيك نهــــرٌ
في جــــمــــالَ الضُـــحى وبردِ العـــــشيِّ

الجواهري ١٩٢٤

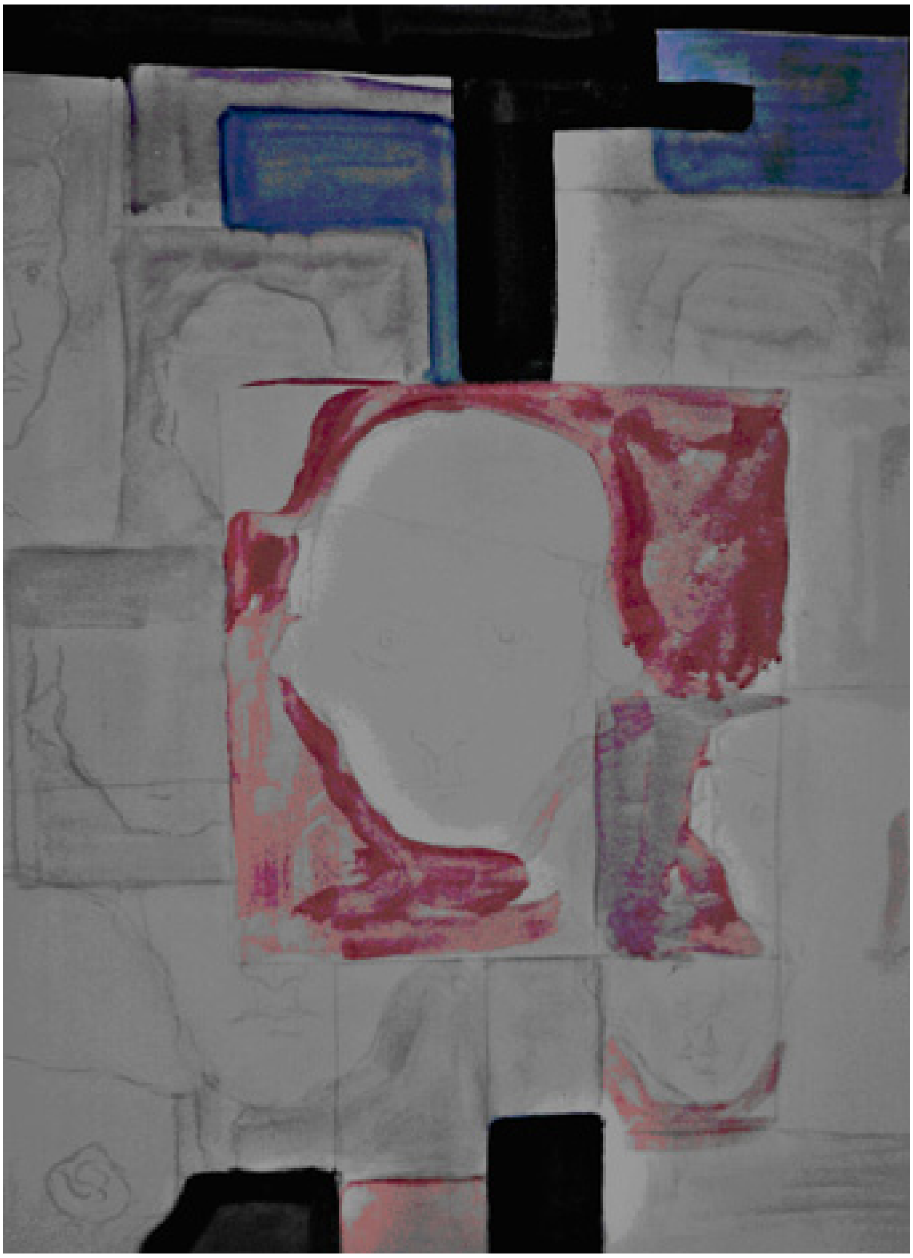

فلاح الجواهري – فُرِشتْ أُنساً لكَ الحدَقُ – باريس ٢٠٠١

فُرِشَتْ أُنْساً لكَ الحَدَقُ

لـقـــــــــــد أ َســـــــــــرى بـــيَ ألأجـلُ
وطـــولُ مـَـســـيـــــــــــــــرَةٍ مـَـلـــلُ

وطـولُ مـــــــــســـــــيـــــــرةٍ مـن دو
ن َ غـــــــــايٍ َ مـَـطـمـحٌ خَـــــــــجـِـلُ

ها أنت تذرع بخطاك، وعلى غيـر هدى، أزقـة ودروب " مـدينة النور "..لاترى "النور" وتنحجب عن أبصارك القباب الذهبيـة وأطواق الجسـور الفـارهة، وتمر دون أن تلحظ أو تسمع التفاف العشاق على بعضهم وهمسهم المحموم وهم ينزوون في أركان نصف مظلمة من أرصفة ضفاف السين.

تمر دون اكتراث بتلك الكنيسة القوطية الشهيرة غير عابئ، لا بأبراجها وأجراسها المتعـاليـة، ولا بملائكتهـا اللائذين في حمى جدرانها الرخاميـة المزخرفة، حتى ولا بشياطينها بألسنتهم المدلوقة وهم يجحظون من علٍ بأحداقهم الحجرية الوسيعة، مادّين بأجسامهم ، مطلين ومتحفزين للقفز من أعمدتهم على أفواج السياح المارين بصخب مرح تحت عرائش حدائقها الجانبية.

تظل تتسكع دون أن تنتبه إلى أن قرص الشمس الملتهب بالأرجوان قد اختلطت ألوانه ببريق قبة ضريح نابليون لتخترقها بخشوع، وربما لتنام تحت رخام قبره عارية بعد أن تركت أوشحتها البنفسجية الزرقاء تسبح في الفضاء المحيط بالقبة الذهبية.

تهبط الظلمة فتواصل ضياعك في الأزقة الملتوية.

..الليل طويل منهك.

تعود متعبا ، مُحبطا ، خائبا ، إلى غرفتك الصغيرة..

تستعد لليلة أرق أخرى.

تفرش أحداقك..

تمر منصات الليل عبر محاجر زجاج النافذة العاتمة.

تتخطاك المنصّات الحالكة دون أن تنطبق عيناك.

بحار سماوية من غيوم تتفاوت شفافيتها و تتشرب بألوان بنفسجية وزرقاء كابية..

تتصاعد من قرارات سحيقة أبخرة وأوشحة ضباب رمادية متدرجة العتمة..

يتراءى شبح ظلال لقارب ينساب بصمت منحدرا ببطء ومخترقا أمواج وسُتر البحر الذي يبدو إني اخوّض فيه أو أهيم على شطآنه.

القارب صغير.. صاريتة محطّمة.. شراعه ممزق مشرشر..

معالم ضبابية لشخص يقف فوق مقدمة القارب وكأنه يريد أن يسبق القارب للوصول في انحداره إلى شاطئه ..

تتوضح المعالم أكثر..

انه أنت يا أبي..

يا لله أنت!..أنت ثيابك بالية ممزقة ؟!

أنت ضاوٍ ، منهك، منكس الرأس بالهمّ..مخذولا أنت يا أبي ؟!!

لم أعرفك مخذولا!

أسألك دون صوت..

صامت أنت لا تجيب..

الألم يهتصر قلبي

أخوض تجاهك في الضباب..

افتح عينيّ على الظلمة ..

ظلمة وصمت

تلتمع الظلمة

ينعكس الصمت

أسبح في السكينة.

مرحبا بك !..

إطباقة وسن عابرة ثمينة حملتك على جفني .ّ

..تعال أيها الحبيب و فضفض همومك في صدري.

كرهتَ المنافي؟ ..ضقتَ ذرعا بها ؟

يا لقهر المنفى!

يا للعنة البعد !

يا لوحشة العدم !

..يا لصمت منفاك!

* * *

تنهض عند الفجر..

تنصب ستارة قماشك فوق الحاملة الخشبية..

تعامل مساحاتها البيضاء بانفعال وتوتر..

لا تحس بمسالك الضوء الكابي وهو يدخل نوافذك بخجل ، ولا بحزم النور المتلامعة بعده وهي تتسلل ثم تخترق بعناد زجاج النافذة.

تتوقف لحظة وتنظر..

تتملّى بإمعان المساحة التي كانت قماشا.

ها أنت أمام الجواهري في تسعينياته فارشا حدقتيه الوسيعتين عبر منصات الليل العابرة..

تسمع هديله الشجي الحزين :

فرّ ليلي من يدِ الظُلَمِ
وتخطّاني .. ولم أَنمِ

ها أنت تراه بعد سنين من النأي..

وأي نأي ..نأي العدم !

..كم أنت قريب!

تحسّه كأقرب ما يكون القرب بكبريائه ورقته وحزنه الكامن العميق..
ها هو يرغب في مسامرتك أنت لا ليل الأبدية الموحش..
يركن إليك بعد تعب السهاد الممض عبر مسيرته الطويلة في بحار الظلمات.
أيها الحبيب! كم حطام سفينة ركبت؟
كم شراعا مزقت؟
أية أهوال كابدت كي تصل إليّ؟
..يتدفق الشوق.
يتصاعد ألم مر ممض.
تختنق حنجرتك بغصة خانقة.
تسيل بصمت دموعك.
حسرتك تتصاعد.
يتغرغر صوتك.
تسرع لتفتح ظلفتي الشباك..
ترفع وجهك صوب السماء..
..تنشج نشيج رجل عزّ طويلاً عليه البكاء..
تحدّق في زرقة العدم متسائلا..

* * *

مرحباً يا أيها الأرقُ
فحمة الديجور تحترقُ
والنجوم الزهر تفترقُ
فيجر السابحَ الغرقُ

شفّ ثوبٌ للدجى خَلِقُ
وخلا من لؤلؤٍ طبَقُ
ومشى صبحٌ على خدرِ
كغريبٍ آبَ من سَفَرِ

فرّ لَيلي من يدِ الظُلَمِ
وتخطاني ولم أنَمَ
كلما أوغلتُ في حُلمي
خِلتنُي أهوى على صنمِ
يستمدُّ الوحيَ من ألمي
ويبثُ الروحَ في قلمي
آه يا أحبولةَ الفكَرِ
كم هفا طيرٌ ولم يطِرِ
* * *

مرحباً يا أيها الأرقُ
فُرِشت أُنساً لكَ الحدَقِ
لكَ من عينيّ منطلقٌ
إذ عيون الناس تنطبق
لك زادٌ عندي القلقُ
واليراعُ النضوُ والورقُ
ورؤىً في حانةِ القدرِ
عُتّقت خمراً لمعتصرِ

الجواهري ١٩٦٢